صوت الخبرة

ر. د. لانج

- المؤلف: ر. د. لانج
- العنوان: صوت الخبرة
- ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم
- الطبعة: الأولى 2023
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
١٧٠٩٦ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-371-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ر. د. لانج

صوت الخبرة

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

لانج، ر. د.
صوت الخبرة – ر. د. لانج
ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم
ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2023
272 ص، 21 سم.
رقم الإيداع 17096 / 2022
الترقيم الدولي 978-977-765-371-8
1 – علم نفس
2 – العنوان

هذه ترجمة كتاب:
The Voice Of Experience
By: Ronald David Laing
© RD Laing Estate [2022]

جميع الحقوق محفوظة
© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved
© **Afaq** *Publishing House* 2023

كلمة شكر

أجريت مناقشات مثمرة حول مواضيع هذا الكتاب مع كثيرين. أود أن أذكر بعضهم فيما يلي ممن كان لهم، بطريقة أو بأخرى، تأثير على ما كتبْتُه هنا، نتيجة محادثات شخصية، بغض النظر عما كتبوه: جريجوري بيتسون، فريتيوف كابرا، فينتشنزو كاريتي، ديفيد كوبر، ستانيسلاف وكريستينا جروف، فيليكس جواتاري، فرانسيس هكسلي، ف. أ. جينر، فرنك ليك، بروس لارسون، فريدريك ليبوير، نورمان موريس، ليتايرت بيربولت، بيل سوارتلي.

أود أيضًا أن أشكر المنظمات التالية على الفرص التي أتيحت تحت رعايتها لتطوير ومناقشة الأفكار الرئيسية هنا: مؤسسة وليم ألنسون وايت، نيويورك؛ جامعة ويلينجتون، نيوزيلندا؛ جامعة فلورنسا، إيطاليا؛ منتدى علم النفس الإنساني والعلاج النفسي، شتوتجارت، ألمانيا؛ الجمعية الدولية لعلم النفس عبر الشخصية[1]. الرابطة الأوروبية لعلم النفس الإنساني. جامعة لوفان؛ جمعية فيلادلفيا، لندن.

(١) علم النفس عبر الشخصية **Transpersonal Psychology**: أو علم النفس الروحي، مدرسة في علم النفس تدمج الجوانب الروحية والمتسامية للخبرة الإنسانية في إطار علم النفس الحديث. (المترجم).

المحتويات

الجزء الأول

الفصل الأول: الخبرة والعلم ٩

الفصل الثاني: نظرة موضوعية ١٩

الفصل الثالث: نظرة تشخيصية ٥١

الفصل الرابع: احتمال الخبرة ٩٥

الفصل الخامس: الولادة وما قبلها ١٢٥

الفصل السادس: رابطة ما قبل الولادة ١٥٧

الجزء الثاني

الفصل السابع:

أنماط علم الأجنة وعلم النفس والأساطير ١٦٥

الفصل الثامن: الوحدة المزدوجة ١٧١

الفصل التاسع: الارتباط والقطع ١٩٧

الفصل العاشر: مدخل ٢١٣

الفصل الحادي عشر: البيضة والكرة والذات ٢٢٧

الفصل الثاني عشر: التراجع والنكوص ٢٣٧

الخاتمة ٢٥١

الببليوجرافيا ٢٦١

الجزء الأول

الفصل الأول

الخبرة والعلم

- ١ -

الخبرة ليست حقيقة موضوعية. الحقيقة العلمية لا تحتاج إلى أن نَخْبرها. الاختلافات أو الارتباطات، أوجه التماثل وعدم التماثل التي نخبرها كأحداث تتوافق في بعض الأحيان فقط مع تلك الاختلافات أو الارتباطات التي نعتبرها حقيقة موضوعية. يعرف كل تلميذ وتلميذة أن المظاهر خادعة.

ليس من السهل تعريف الخبرة. كل الخبرات نماذج للخبرة، لكن الخبرة في ذاتها ليست خبرة. الخبرة بحقيقة موضوعية أو فكرة مجردة ليست الانطباع أو الفكرة. وتأثير حقيقة موضوعية علينا قد لا يكون حقيقة موضوعية. الحقائق لا تحلم. أريد مساحة واضحة للنظر في آثار هذه الحقائق وتأثيراتها على الحقائق.

علينا إفساح المجال لمناقشة الخبرة بهذا الشكل، لأن الأساليب المستخدمة في استكشاف العالم الموضوعي، والمطبقة علينا، عمياء عن خبرتنا، ولأنها كذلك بالضرورة، لا يمكن أن ترتبط بخبرتنا. هذا المنهج الأعمى، المطبق علينا بشكل أعمى، يمكن أن يدمرنا عمليًّا، كما دمرنا نظريًّا بالفعل.

سنتناول أمثلة مما يحدث في الطب النفسي وطب التوليد وغيرهما من المجالات، حين تأخذنا التكنولوجيا العلمية إلى هناك.

في هذا المنعطف، لا يمكن أن نواصل إلا بمحاولة حل المشكلات المربكة التي تحيط بنا أو تبديدها أو محوها أو إبطالها.

لا توجد خبرات، عادية، يومية، معتادة أو غير معتادة، سواء كانت انطباعات أو أفكارًا أو أحلامًا أو رؤى أو ذكريات، غريبة أو شاذة، مألوفة أو عجيبة أو ذهانية أو عاقلة، تمثل حقائق موضوعية.

حتى أبسط ألم لا نشعر به أبدًا كإحساس مجرد. إنه يطعن، يسحب، يقبض، يلدغ. طعنة الألم موجودة قبل أن نميز الفانتازيا عن الإحساس.

وأحاول في هذا الكتاب نقل طبيعة بعض حقائق الخبرة البعيدة عن الموضوعية بتصويرها ووصفها.

بالتمييز بين التصوير depiction والوصف description، أفصل مستويين ضمن الاستخدام العادي لكلمة الوصف، أي مستوى أول للوصف، أريد أن أسميه التصوير، ومستوى ثانٍ للوصف، وصف ما نصوره.

وقد حاولت تحقيق التوازن بين الصور والأوصاف بحكايات قصيرة أو قصص تصور الموقف تصويرًا مباشرًا. وكان عليَّ أن أضمِّن هذه الصور لأنه من غير المتوقع أن تعرف بدونها ما أحاول وصفه. وأريد أن أقتصر بدقة على المصطلحات الوصفية حين يتعلق الأمر بتقديم تعميم وصفي لما صُوِّر. ومن دون هذين المستويين، الأول والثاني للأوصاف والصور، لن تتاح للقارئ فرصة مقبولة لإدراك ما أكتب عنه.

تعتبر مصطلحات مثل التحول والتشكيل والتراجع والنكوص والنمط المشيمي السُّري (الصولجان)[1] أوصافًا للصور.

يأتي معظم ما أقدمه من الصور والأوصاف من أشخاص رسموا لي بشكل مباشر، شخصيًّا، ما هم عليه أو ما كانوا عليه.

نحن الآن على بُعد ثلاث درجات من أصول الصور الأصلية. ربما تكون الروابط أضعف من أن نلاحظها. الخبرة ليست موضوعية ولا تنتقل إلى الأشياء. وتختلف طريقة إيصالها أو نقلها عن طريقة إيصال المعلومات الموضوعية أو نقلها.

تأخذ الخبرة أشكالًا درامية أقرب إلى الموسيقى التي تتكشف عبر الزمن من التصوير الحي المتزامن، الذي لا يتغير عبر الزمن.

اللحن تسلسل نمطي لنغمات بدرجات مختلفة. والدرجات المطلقة للنغمات تمثل كميتها، ومواضعها النسبية والأجزاء التي تلعبها في البنية الديناميكية الدرامية للحن تمثل أنواعها. اللحن لا يتكون من النغمات منفصلة أو منفردة، ولكن من الشكل الناتج عن تسلسل نسب درجات النغمات. هذه النسب ليست نغمات في حد ذاتها. إنها الاختلافات بين النغمات. إنها لا تصدر صوتًا. إذا وصلت الموسيقى إلينا، فهناك اهتزاز تعاطفي فوري من خلاله نردد الصدى ونتواصل معه. وهذه المشاركة الرنانة ليست الطريقة التي نوصل بها الحقائق الموضوعية.

---

(١) الصولجان **caduceus**: عصا الرسول، عند اليونانيين أو الرومان، يلتف حولها ثعبانان عادة. (المترجم).

هناك صدى بين المطرب والأغنية والمُغنَّى والمسموع والمستمع. إن اللحن يحرك ويجدد الشعور، والمزاج، والحالة العامة، ودقائق الشفقة، التي لا يمكن لأي خطاب علمي أن ينقلها، ناهيك عن منهج علمي يبدأ دراسة ثقافات وأزمنة وأماكن، عبر شعوب مختلفة على نطاق واسع.

- ٢ -

لا تتطابق الارتباطات الموضوعية وارتباطات الخبرة إلا في بعض الأحيان. الارتباطات الموضوعية وارتباطات الخبرة من أنواع مختلفة. والارتباطات بين هذين المستويين من مستوى مختلف أيضًا.

لا ينتمي ارتباط المستوى الثالث بين المستويين الأولين إلى أيٍّ منهما حصريًّا. هذا المستوى الثالث لا يبرز لأي نظرة، ذاتية أو موضوعية، تستبعد من نفسها رؤية الارتباط الذي تبحث عنه. ونحاول في هذه الدراسة توضيح الطرق التي ترتبط بها هذه المستويات وتنفصل في داخلها وفيما بينها.

في أقصى انفصال بين الخبرة والموضوعية الكلية، لا يرجع الأمر إلى مجرد أن بعض الخبرات الخاصة المميزة مستحيلة موضوعيًّا، بل إلى استحالة تفسير أي خبرة في حد ذاتها، موضوعيًّا، ويمكن استبعادها باعتبارها مستحيلة، ولا يمكن تحقيق ذلك دون إلغاء ذات المرء في هذه العملية، وهو التناقض الذي اقترب بعض الموضوعيين المتطرفين من تحقيقه.

إن الموضوعية الكلية تنأى بنفسها عن أي تفسير محتمل للخبرة. أكثر علماء الأعصاب تمرسًا هم الأكثر تأثرًا بوجودها الحقيقي، وعلاقتها المتقلبة التي لا يمكن تفسيرها بالدماغ. بالنظر إلى البيانات الموضوعية نفسها، قد يفسرون، وهم يفسرون بالفعل، علاقتها بالخبرة بكل طريقة يمكن تخيلها، من النظرة الأحادية إلى الثنائية، والتوازي،

والتفاعل، بدون تناقض مع نفس مجموعة أهداف الحقائق الموضوعية المتفق عليها، مع الحفاظ على كل وضع متناقض. إن البيانات الموضوعية الأكثر تعقيدًا حول الارتباط بين النشاط النفسي البشري الذي يمكن التعبير عنه والأحداث المادية الموضوعية تتركنا أساسًا في الظلام أو في النور كما تركتنا دائمًا.

إن تقسيم أي حالة إلى ثنائية الذاتي والموضوعي يقدم تمييزًا مفيدًا للغاية، بل وجوهريًّا، لأغراض كثيرة. لكنه اعتقد أن العالَم بيضة مكسورة. هناك أناس يصرحون بأنهم لا يؤمنون حتى بالله، وأناس يؤمنون بدون قلق بوجود ما يميزهم. وأنا، بالطبع، أميز بينك وبين الأرض والسماء وبيني. وفي الوقت نفسه، يبدو كل تمييز وكل كائن أو حدث يمكن تمييزه متلاحمًا بشكل مبهم وغير مفهوم في وحدة نهائية لجوانب لا نهائية، أميز منها جزءًا دقيقًا. حين ننتقل إلى الخبرة ونتعلم ما قد ينبغي علينا أن نتعلمه، لا يمكن تحقيق ذلك بمنهج مصمم لاستبعادها. بالمثل، لا يمكن لخبرتنا أن تملي أوامرها على العلم الموضوعي في مسائل الحقيقة الموضوعية.

لا يمكن أن نقيس مزاجًا أو نعد صفات. إننا نعيش بالمقارنة والتماثل والتباين والتكافؤ والاختلاف، وهي تخلو إلى الأبد من المحتوى الموضوعي. ولا يمكن أبدًا أن نكرر خبرة بالطريقة التي يمكن أن نجري بها تجربة موضوعية. إن أنماط الروح وتعديلاتها وأشكالها وتحولاتها لا تفتقر فقط إلى وجود موضوعي، بل إن الكثير منها أبعد من الخيال. وأفترض أنه لا يكاد يوجد أحد لا يعرف كيف يبدو الشعور بالتعب. لكن هناك كثيرين يشهدون بأنهم لا يعرفون الشعور بالبهجة

ولا يمكنهم تخيلها. ولا توجد طريقة لمعرفتها إلا بالشعور بها. لا يوجد لحن، إذا لم تُسمَع العلاقات بين النغمات باعتبارها لحنًا. ومع ذلك، من يسمعون الألحان لا يحتاجون إلى إثبات وجود الألحان لأن بعض من لا يسمعونها يقولون إنها غير موجودة. ومع ذلك، قد يتم ترهيبهم لاعتقادهم بأن الأمر لا يهم حقًّا. بعبارة أخرى، تلك السمة، التي لا يمكن معرفتها إلا بالخبرة بالموسيقى أو أي مجال آخر، لا علاقة لها بالعلم باستثناء اعتبارها موضوعًا آخر محتملًا للدراسة، وليس باعتبارها مصدرًا للمعرفة أبدًا. هل نبجل موضوع دراستنا باعتباره مصدر معرفتنا؟

- ٣ -

الحقيقة لا تصنع فرقًا بالنسبة لي شخصيًّا إلا إذا أدركْتُها. إن إدراك الاختلاف حاسم في إحداث أي تغيير يُحدِث فرقًا بالنسبة لي. من الأسهل بكثير على المرء أن يدرك شيئًا يشعر به شخصيًّا من أن يدرك شيئًا لا يشعر به، وربما لا يستطيع أن يشعر به أبدًا. حتى إننا كثيرًا ما نفشل في إدراك ما نتمنى ألا نعرفه.

يمكن لهذا الموقف أن يصل إلى حد توليد الوهم بأنه لا توجد خبرة. إنها وهم الواقع الذي لا يسعه إلا التعدي على الواقع باستمرار. إنها شيطانية. وجودها يتطلب نفيها. لكن هذا النفي، رغم أنفه، يستمر في نفي نفسه. لأن إمكانية وجود عالم موضوعي نهائي مستحيل موضوعيًّا في النهاية. لا يمكن لكائن أن يدرك أنه ليس إلا كائنًا. إننا لا ندرك أحيانًا أننا لسنا محض كائنات. يصبح العالم العادي **ساحرًا وغير مفهوم**[١].

فيما يتعلق بالمعرفة والإدراك المستمَدَّين مباشرة من خبرتنا الخاصة، لا يعرف أي منا عنهما معرفة جوهرية أكثر من الرجال والنساء في أوقات أخرى وأماكن أخرى وربما يعرف ويدرك أقل منهم بكثير. من ناحية أخرى، على عكس المعرفة الشخصية نتيجة الخبرة المباشرة، تتراكم البيانات غير الشخصية من الملاحظة الموضوعية، وسجلات

(١) ساحرًا وغير مفهوم *un enchantement incompréhensible*: بالفرنسية في الأصل. (المترجم).

الاستدلال، والفرضيات والنظريات المتعلقة بها والتجارب التي تجرى عليها من جيل إلى جيل. وهذا النوع من المعرفة غير التجريبية يغير طبيعة الخبرة الإنسانية، وجميع أشكال الحياة على هذا الكوكب، بطرق يصعب تخيلها، ناهيك عن تحقيقها بالكامل.

وقد أدى تحالف الرياضيات والملاحظة الموضوعية المصقولة علميًّا، والتجريب، جنبًا إلى جنب مع الطرق المتفق عليها للتوصل إلى اتفاق حول الحقيقة المتفق عليها، إلى ظهور تكنولوجيا تغير كل حياتنا بسرعة غير مسبوقة ومذهلة، في كل شيء تقريبًا.

نقلتنا من السيوف والسهام إلى القنابل والصواريخ في أربعمائة عام. إننا في وضع فريد. هل نعرف كلنا هذا؟ هل ندركه؟

دُمِّر العالم بالفعل نظريًّا. هل يستحق عناء تدميره عمليًّا؟ إننا والعالم الذي نعيش فيه تلاشينا من النظرية العلمية منذ سنوات.

* * *

الفصل الثاني

نظرة موضوعية

- ١ -

هناك علماء مغرمون بتكرار أنهم ليسوا فلاسفة أو لاهوتيين أو أنطولوجيين أو ميتافيزيقيين أو فلاسفة أخلاقيين أو حتى علماء نفس متواضعين. ويكون هذا مناسبًا حين يكون هذا دليلًا على تواضعهم، لكن الأكثر شيوعًا أنه رفض سريع لكل ما لا يمكنهم رؤيته بطريقة رؤيتهم. ومن المفارقات أن مثل هؤلاء العلماء لا يستطيعون رؤية الطريقة التي يرون بها طريقة رؤيتهم.

من وجهة النظر الموضوعية البحتة، كل شيء موضوع والعلاقات والارتباطات الحقيقية الوحيدة هي العلاقات الموضوعية. فضيلتها المميزة أنها غير متأملة بقدر المستطاع. لا يمكن أن تتأمل افتقارها للتأمل[١].

---

(١) كان هناك، ولا يزال، علماء يتأملون بعمق. لم يفشل أحد في تأمل عدم التأمل العميق لوجهة النظر الموضوعية الحصرية في العلم. علماء الفيزياء والرياضيات الذين أخذونا إلى أبعد مكان في الكون العلمي الأكثر عرضة للحيرة والأقل دوجماتية بشأن العلم في هذه الأيام. ومع ذلك، فإن سيويل Sewell، في The Orphic Voice (١٩٦٠)، محق، كما أعتقد، في تحديد إحدى خصائص «رفض الوعي الذاتي» لعلماء الأحياء المعاصرين (ص ٤٣). انظر أيضًا: كابرا Capra (١٩٧٥)؛ جولدشتاين Goldstein (١٩٣٩)؛ جرين Grene (١٩٦٨، ١٩٧٤)؛ بولاني Polanyi (١٩٥٨)؛ وايتهيد Whitehead (١٩٦٧، ١٩٧٨).

عملية الموضعة وموقف الموضوعية ليسا موضوعين موضوعيين. لا يمكن رؤيتهما بطريقة نظر تتمثل كفاءتها المميزة تحديدًا في وضع الأحداث الموضوعية غير الذاتية في بؤرة التركيز. العالم الموضوعي العلمي ليس عالم الحياة الواقعية. إنها أداة متطورة للغاية، ابتكرت بعمليات متعددة تستبعد بفعالية وكفاءة من نظام خطابها الخبرة المباشرة في كل تقلباتها الظاهرية.

وقد أوضح عدد من المفكرين الأوروبيين هذه النقطة. وأريد أن أكررها. ولا أرغب في بذل جهد فيها.

أريد بالأحرى التفكير في بعض الصعوبات العملية والنظرية التي نواجهها حين نحاول استخدام ثمار الموضوعية العلمية في خدمة واقعنا البشري العادي، الذي ابتعد عنه العالِم كثيرًا.

لا يقتصر عمل العالِم الموضوعي على التحولات المعقدة للخبرة الساذجة، لكنه الآن، من خلال الأجهزة الميتا حسية، يسبر عالمًا يتجاوز الخبرة البشرية، أو البيانات الحسية، مهما كانت ضعيفة. ومع ذلك، فإن عالمنا البشري المعيش، مهما كان مجردًا ومتحللًا وخاضعًا للسيطرة والتلاعب، هو البداية والنهاية اللتان لا غنى عنهما لهذه المهمة كلها. نحتاج إلى حقائق عالمنا الذي نعيشه أو إلى مبتكراته الخيالية، حتى لو كان ذلك لمجرد أن نفسرها، بمصطلحات ميتة لأحداث الرياضيات والفيزياء التي لم تحدث. وكل تفسير يتطلب وصفًا لشرحه.

- ٢ -

على العالِم المستقبلي، للبدء في أن يصبح عالِمًا، إجراء عدد من العمليات غير الموضوعية بالضرورة في هذا الجانب من خبرته التي سيكون علميًّا بشأنها. فقط حين يكتسب الطريقة الموضوعية المناسبة المطلوبة للنظر يُدخِل ما يريد رؤيته بموضوعية في بؤرة التركيز. وحينها فقط يمكنه البدء في فحص ما دخل في بؤرة التركيز.

توجد فروق دقيقة كثيرة في مختلف التخصصات التي يتفق العلماء عمومًا على أنها علمية، وهناك بعض من يحاولون استكشاف العالم الذي نعيش فيه بدقة علمية كاملة بدون الانفصال عنه. وهذا ليس سهلًا أبدًا: هل هو ممكن؟ اعتدنا على أن نبقى على اتصال بقلب الطفل، وخوفه أو انزعاجه، بتقريب آذاننا والاستماع، والاستماع أحيانًا حتى من القلب إلى القلب. الآن، نبتعد عن الطفل. وننظر إلى التجريدات على شاشة جهاز فحص الجنين. هذه الممارسة تبعدنا، حتى حين ندرك نظريًّا أنها تبعدنا.

يمكن تطبيق النظرة العلمية نفسها على أي شيء وكل شيء من النجوم إلى الذرات، ومن الميكروبات إلى البشر. وعند تطبيقها على أنفسنا تستلزم أكثر من مجرد استبعاد جزئي أو كلي لبيانات الخبرة والحس. في أثناء عملها، يجب أن تلغي الحضور الحي للآخر. إن النظر إلى الآخر باعتباره موضوعًا لا يعني فقط تحويل الشخص إلى شيء

ولكن، بالطريقة نفسها، قطع أي علاقة شخصية بين المرء والآخر، والمرء ينظر بهذه الطريقة.

لنكن واضحين. لا أعترض على هذا الإجراء بحد ذاته. لا أطلب من الجراح أن يعالج عظمة، أو من طبيب أسنان أن يعمل في جذر العصب، لإخفاء أي مشاعر أو نيات شخصية بالنسبة لي مهما تكن، وهو، كما آمل، مستغرق تمامًا في مهمته غير الشخصية.

ومع ذلك، يتناسى الجراحون والعلماء أحيانًا أننا بمساعدة العمليات العقلية غير الموضوعية ننتقل إلى «الموضوعية». التغييرات غير الموضوعية تبرز العالم الموضوعي.

من المفارقات أن الأفعال غير الموضوعية تخلق الموضوعية. إن العالم «الموضوعي» لا يظهر إلا حين نكون موضوعيين. ولا شيء أكثر ذاتية من موضوعية عمياء عن ذاتيتها.

- ٣ -

لا نعرف أي وقت أو مكان آخر في التاريخ استطعنا فيه تجاوز حواسنا ومفاهيمنا، حتى إلى ما وراء الخيال، كما نتجاوزها الآن بشكل روتيني. في بضعة أجيال، اعتدنا على تأثير التكنولوجيا لدرجة أن عجائبها الغريبة تكاد تبدو تافهة بالفعل. يأخذنا الميكروسكوب والتلسكوب والتلغراف والتليفون والراديو والتلفزيون والكهرباء والإلكترونيات خارج ما نعرفه مباشرة. حطمت تمامًا عددًا لا يحصى من التفسيرات القائمة على الملاحظة المباشرة للمظاهر وحدها.

يريد الأطفال في الرابعة من عمرهم معرفة مكان مفتاح تشغيل القمر وإيقافه. وتكيُّفنا مع هذا الوضع الثوري حقًّا يجعلنا ندركه بالكاد. إنني أعرف، لكن هل أدرك تمامًا تأثير حقيقة أنه حين يتولى الأمر جهاز ميتا حسي، تُستبعَد حينها أجهزة استشعار الإنسان، العارفة والمعروفة؟ عند تشغيل المفتاح، لا يكون التحول تدريجيًّا. يحدث انقطاع. نلاحظ الخطوط الملونة من الطيف الذي ينتج من بخار الهيدروجين المتوهج. ما نراه من الجهاز بيانات الحس.

لكن تلك الملاحظة الواضحة تُترَك في المغامرة العلمية. يريد العالِم أن يفهم الطبيعة الفيزيائية، أي بالنسبة له، الطبيعة غير الحسية للإدراك بالحواس (Schrodinger, 1967, pp. 173-5).

يفسر عالم الفيزياء هذا العالم الحسي ويتحكم فيه بما ليس حسيًّا. تمدنا الكهرباء بالضوء. فقد البشر العاديون في العالم القدرة على الرؤية

منذ فترة طويلة في عوالم عمياء مظلمة يبدو العالِم، أحيانًا، أنه يكاد يختفي فيها.

لدخول هذه العوالم على المرء أن يتجرد من ذاته. لا تدخلها مشاعر. موضوعيًّا، الذاتية لا هنا ولا هناك. لا يقتصر الأمر على استبعاد المرء لذاته باعتباره إنسانًا يحس ويشعر ويسعى حينها من الصورة العلمية، ولكن باستخدام الأجهزة، يُستبعَد العالم البشري نفسُه، بمعنى ما. يجب أن نعود إلى حواسنا لكنها هي نفسها أصبحت الآن أدوات[1].

الرسائل التي تعيدنا بها آلاتنا من مسابرنا إلى ما وراء الظواهر التي تقدمها حواسنا، تبقى حسية. علينا أن نبني أجهزتنا بحيث تصوغ «نتائجها» بطريقة تجعلنا نتلقى في النهاية رسالة استثنائية يمكن لأجهزة الاستشعار البشرية المخادعة أن تسجلها ولعقولنا أن تقيمها. لا يمكن أن نجد النتائج إلا فيما تجده أدواتنا.

صار عقل الإنسان مرتابًا، لا يثق في خداعه الذاتي والإمكانيات الوهمية للخبرة البشرية العادية، وكرس نفسه لطرق تحييد هذه الحالة أو تجاوزها، قبل أن يجد الطريق العلمي بوقت طويل.

يعود فصل العالم الوهمي المعيش عن العالم الحقيقي غير المأهول إلى الماضي بقدر ما لدينا سجلات لعقل الإنسان، غربية أو شرقية. في

---

(١) سألت عالم فيزياء نظرية عن وظيفة كل هذا العالم -هذا العالم الفعلي الذي نعيش فيه بالفعل- بالنسبة له بصفته عالمًا. أدار عينيه إلى السماء ونظر إليها. وفكر طويلًا.
وصاح: «لكنه مفيد للغاية!».
وناشدني ألا أذكر اسمه حين أكرر هذه القصة، وبالتالي لن أذكر اسمه. ويقسم إنه لم يقصد ذلك قَط.

الغرب، يُنسب إلى هيراقليطس وصفه بأنه كومة غبار (Diels, Fr. 124) منذ أكثر من ٢٥٠٠ عام. ويقول ديموقريطس إننا «منفصلون عن الواقع» (Fr. 6). إن حاسة اللون والذوق اتفاقيات مشروطة (Fr. 9,11,123).

هناك نوعان من المعرفة، نوع أصيل والآخر زائف. وإلى الأخير ينتمي كل ما يلي: البصر، السمع، الشم، الذوق، اللمس. والنوع الحقيقي مفصول عنه. حين لا يستطيع الزائف أن يفعل المزيد –لا يرى، ولا يسمع، ولا يشم، ولا يتذوق، ولا يدرك عن طريق اللمس بدقة– وتكون هناك حاجة إلى تحقيق أدق، يأتي الأصيل...

(Diels, Fr., trans. Freeman, 1956, p.93)

المفارقة الانعكاسية موجودة أيضًا في أعمال ديموقريطس.

لكن حواسنا المرفوضة ترد: «أيها العقل البائس. تحصل على دليلك منا وتحاول أن تسحقنا؟ انتصارك هزيمتك» (ص ١٢٥).

منذ ذلك الحين، تقدم العلم الغربي بمتابعة المفارقة المتمثلة في فحصها وإنكارها بشكل متزامن إلى حد ما. لم يتحرر من حواسنا وحدها، لكنه تحرر من أمور أخرى كثيرة: الخرافات والروحانية، والسحر والميتافيزيقيا، وتعدد الآلهة والشعر. النوع والشكل في كل مكان، لكن تحديد موضعهما صعب. وليس للمشاعر والدوافع والنيات والروح والوعي مكان. يشعر بعض العلماء الآن بضرورة إعادة الوعي بطريقة أو بأخرى إلى معادلاتهم. ولكن كيف؟ إنها مشكلة محيرة بالفعل.

دعا جاليليو إلى إزالة كل الصفات التي قد تختفي إذا تبخر وعي الإنسان. يا له من مشروع جريء! وقد غير وعينا في الأربعمائة عام الماضية إلى حد بعيد.

الآن أقول إنه كلما تصورت أي مادة، أو جوهر مادي، أشعر فورًا بالحاجة إلى التفكير في أنها محدودة، وأن لها شكلًا ما؛ وأنها كبيرة أو صغيرة مقارنة بأشياء أخرى، وأنها في مكان معين في أي وقت معين؛ وأنها واحدة إذا كانت قابلة للعد، أو قليلة، أو كثيرة. لا أستطيع فصل هذه المادة عن هذه الشروط بأي قدر من مخيلتي. لكن لأنها يجب أن تكون بيضاء أو حمراء، مُرة أو حلوة، صاخبة أو صامتة، طيبة الرائحة أو كريهة الرائحة، لا أشعر بأن عقلي مضطر إلى استدعائها باعتبارها صفات مرافقة بالضرورة. بدون الحواس لترشدنا، ربما لن يصل العقل أو الخيال بدون مساعدة إلى مثل هذه الصفات. ومن ثم أعتقد أن المذاق والرائحة واللون وما إلى ذلك مجرد أسماء بقدر ما يتعلق الأمر بالموضوع الذي نلصقها به، وأنها تكمن في الوعي فقط. ومن ثم إذا أزيلت الكائنات الحية، فإن كل هذه الصفات تمحى وتفنى. ولأننا فرضنا عليها أسماء خاصة، مختلفة عن أسماء الصفات الأخرى والحقيقية المذكورة سابقًا، نود أن نعتقد أنها موجودة حقًّا باعتبارها مختلفة بالفعل عن غيرها (trans. Drake, 1957, p.272).

ربما تكهنًّا، نحن البشر، بما يبدو عليه العالم بدوننا منذ أن عرفنا أننا في عالم. لكن العلم الحديث بعد جاليليو وديكارت منح هذه التكهنات مزية الحياة والموت. كان لا بد من تدمير العالم نظريًّا قبل تدميره عمليًّا.

بالنسبة للكثير من العلماء الممارسين حاليًّا، يبدو برنامج جاليليو مفهومًا تمامًا. يخلع المرء العالم بطريقة لا تلفت الأنظار كما يخلع ملابسه قبل الذهاب للسباحة أو النوم. إن الأفعال العقلية اللازمة ضرورية بقدر ما هي تلقائية وغير لافتة. قد لا تُدرَك وقد تُنكَر. ونادرًا ما يفكر بها من يؤدونها. ومع ذلك، يُفترض الآن، في أوساط كثيرة، أن طريقة النظر التي تولدها هي النظرة العقلانية الوحيدة الموجودة، والطريقة الوحيدة لاستخلاص النوع الوحيد من المعلومات المهمة، أي: ماذا يمكن أن يساعدنا في تخمين ما يجري في غيابنا؟ تحدث أشياء مضحكة حين تحاول هذه النظرة النظر إلى ما صُمم حتى لا تراه[1].

كان التمعن العلمي اللا إنساني المنجز تمامًا عملية استحواذ شاقة، تحققت بشق الأنفس.

(١) قال لي باحث في الفيزياء في الثالثة والثلاثين بعد محاضرة جادلت فيها أن النوع يختلف عن الكمية، وكان له مكانة فكرية وجمالية وأخلاقية، ولا ينبغي أن يعمينا عنه تفانينا الواضح للكمية وحدها: «كما تعلم، لم أفكر قَط في النوع. نوع؟ نوع؟!».

- ٤ -

وقد تجاوزنا مع ذلك الافتقار البشري الحقيقي إلى بسالة فرانسيس بيكون في عصر النهضة. بالنسبة له، الطبيعة سيدة. ومع ذلك، لا يجب تركها «حرة وطليقة». يجب علينا تقييدها وإثارة حنقها. ثم «حين تُجبر بالفن وبيد الرجل على الخروج من حالتها الطبيعية، وتُضغَط وتُشكَّل»، قد تخبرنا بما نريد معرفته (Bacon, 1960, p. 25).

إذا لم تخبرنا، فعلينا أن نستخرج منها أعمق أسرارها بالتعذيب.

تجاوز العلم الحديث هذه الفكرة شبه الرومانسية عن الطبيعة باعتبارها امرأة علينا أن ننظر إليها ونجردها ونفعل بها ما نشاء[1]. بالتأكيد، في هذا البرنامج العلمي للهيمنة الذكورية الجامحة، لا يوجد شيء علمي يمنعنا من أن نفعل بها أي شيء علمي يعجبنا. علميًّا: لا حرج في فعل أي شيء لا يمثل خطأ علميًّا.

---

(١) ومع ذلك، يمكن لمورجان **Morgan** أن يكتب في ١٩١٦: «أثير الاعتراض في الواقع بأننا في عملية تكاثر ذبابة الفاكهة، نتعامل مع ظروف مصطنعة وغير طبيعية. وكان من الواضح أن النتائج التي حصلنا عليها من حظائر التربية، وحوض البذور، وإناء الزهور، وزجاجة الحليب لا تنطبق على التطور في الطبيعة «المفتوحة» أو الطبيعة عمومًا أو الأنواع البرية. ولتحقيق الاتساق، يجب أن يمتد هذا الاعتراض نفسه ليشمل استخدام الكيميائي لأنبوب الاختبار والتوازن أو الفيزيائي للجلفانوميتر. وهذه كلها أدوات غير طبيعية تستخدم لتشويه أسرار الطبيعة. أجرؤ على الاعتقاد بأن التناقض الحقيقي ليس بين المعالجة غير الطبيعية والطبيعية للطبيعة، بل بين البيانات الخاضعة للرقابة أو التي يمكن التحقق منها من جهة، والتعميم غير المقيد من جهة أخرى» (التأكيد لي) (الاقتباس من **Allen, 1978, p. 67**). لاحظ أن التناقض «الحقيقي» بالنسبة له لا علاقة له بما إذا كان يجب علينا تشويه الطبيعة أم لا، أو ما إذا كان التشويه أفضل طريقة للتعرف على سيدة.

يخشى البعض بضعف من أن يتعدى البحث الأعمق في الطبيعة الحدود المسموح بها للعقل الرصين، وينتزع خطأ ما يقال في الكتاب المقدس وينقله المقدس ضد من ينقبون في الأسرار المقدسة، إلى الأشياء الخفية في الطبيعة، **التي لا تحدها موانع** (Bacon, op. cit., p. 188).

هناك علماء مهذبون يرغبون في أن تقتصر القسوة العلمية على المجالات والطرق والوسائل التي لا تؤذيهم كبشر مهذبين.

لا يجب أن يكون العالِم قاسيًا. ومع ذلك، فإن اللطف والرأفة ليسا من أجزاء المنهج العلمي، بالرغم من أنهما يمكن تحويلهما إلى مواضيع لدراسة علمية. الإجراءات العلمية التي يجب تدميرها لتحقيق الاكتشاف قابلة للتطبيق وتُطبَّق، بالتساوي، على جميع المواد، ميتة أو حية، على الصخور والزهور والفيروسات والحشرات. وحين تستخدم على الجرذان والفئران والقطط والكلاب والطيور والأسماك والقردة، وفي النهاية علينا بشكل حتمي، لا يوجد كابح أخلاقي علمي داخلي للتحقق من الزخم العلمي. ولا تكون الإجراءات أقل علمية حين تطبق بشكل بغيض من المنظور الأخلاقي.

ما يصح علميًّا قد يكون خطأ أخلاقيًّا.

قد لا تشوب التجربة شائبة من المنظور العلمي وتكون كريهة روحيًّا.

لا يمكن للعالِم أن يرى ذلك بنظرة علمية. لا يستطيع أن ينظر إلى

نظرته بنظرته، لأن النظرة العلمية **فعل**. وهذا **الفعل** ليس من الحقائق التي تظهرها نظرته، مع استبعاد كل ما ليس حقائق.

هل يمكن أن يبدو هذا غير ضار؟ يبدو أن بعض العلماء ينظرون وكفى، ويكونون غير عاطفيين لكنهم ليسوا قساة، عادلين ومنصفين، دون أن يكونوا غير إنسانيين أو وحشيين. من الممكن في بعض مجالات العلوم أن يكون ذلك رائعًا من الناحية المنهجية بحيث يكتشف المرء أكثر، كلما تدخل أقل. لا ينبغي أن نأخذ موقفًا من علماء الرياضيات العظماء الذين كشفوا عن خاصية الأرقام لأن بعض الناس يتصورون أن الطريقة الوحيدة لتكون علميًّا هي تحديد كمية كل شيء، حتى الأرقام. علميًّا نريد أن نعرف ما يخرج عن سيطرتنا وما يقع في نطاقها أيضًا. ما نراه علميًّا قد يعزز اهتمامنا بأن نسلم بأننا الكائنات التي نراها. لكن النظرة القاسية التي لا تبالي، والنظرة القاسية الجامحة للفضول غير المحدود، والمقدر لها أن تنغمر في السعي وراء إشباعها، ليست أقل علمية. نأت بنفسها عما يمكن أن يعتبرها مجرد سذاجة عاطفية لدرجة أن الادعاء بعدم الإعجاب بمزاعمها يمكن أن يبدو، على ما أعتقد، لمن ينظرون إلى كل شيء بطريقة واحدة فقط، غريبًا بالكاد في أحسن الأحوال.

في أكثر من ٧٠٠ عملية، قمت بتدوير أجزاء الدماغ وعكسها وإضافتها وطرحها وخلطها. لخبطتها. أعدت ترتيبها. قمت بتقطيع شرائح، وإطالتها وإمالتها وتقصيرها وتثبيتها وتبديل وضعها ووضعها

متجاورة وقلبها. قطعت شرائح من الأمام إلى الخلف بطول الحبل الشوكي، والنخاع، مع قلب أجزاء أخرى من الدماغ من الداخل إلى الخارج. لكن لا شيء أقل من وضع الدماغ في دلو المخلفات –لا شيء يمحو الشعور (Pietsch, 1972, p. 66).

إنه يشير إلى السمندل.

لا يوجد سبب علمي لعدم التصرف بهذا الشكل معنا.

– ٥ –

الاختبار النهائي للعقل السليم أو غير السليم في أجزاء كثيرة من العالم هو: هل يعرف المرء الفرق بين الصواب والخطأ؟ يفخر الترتيب الموضوعي للمعرفة[١] بأنه استبعد الفئات قبل العلمية للخير والشر من نظريته وممارسته. ومع ذلك، كثيرًا ما تُقدَّم ادعاءات بأن العقلانية العلمية الموضوعية يجب أن تسود على السماوات والأرض والسمندل وعلينا. بعد أن قررَتْ أن معرفة الخير والشر ليست جزءًا مما تعرفه أو تطمح إلى معرفته، تخبرنا بما يجب أن نفعله، سعيدة بأننا نجهل الروح والعقل والنفس والحب والكراهية والجمال والقبح، وكل شيء آخر يفترض معظم الناس أنه يجعل الحياة جديرة بأن تعاش.

يعتقد جاك مونو[٢] أن رفض العلم الموضوعي إشباع نوستالجيا الإنسان لأيام المعنى قبل أن يأتي، يفسر الكثير من العداء تجاهه. وهو يعتقد أن هذا العداء ينبع من رفض قبول «رسالته الأساسية». إذا قبلنا هذه الرسالة بمعناها الكامل،

---

(١) هل نحن، ككائنات فضولية واعية، فريدة في الكون أم لا؟ مهما تكن الإجابة، فمن المؤكد أن الإنسان يمكن أن يفخر بأنه قطع شوطًا كبيرًا في التطور البيولوجي بحيث لا يطرح مثل هذه الأسئلة' (**Luria, 1976, p. 121**). هل هذا الفخر شيء يجب أن تفتخر به؟ -كذبة روحية ربما كان لها قيمة للبقاء، ربما، لكنها لم تعد كذلك.

(٢) جاك مونو **Jacques Monod** (١٩١٠-١٩٧٦): عالم أحياء فرنسي، حصل على نوبل ١٩٦٥. (المترجم).

... يكون على الإنسان أن يستيقظ في النهاية من حلمه الألفي ويكتشف وحدته التامة وعزلته الأساسية (Monod, 1974, p. 159).

ويتابع قائلًا إنه من الصحيح تمامًا أن العلم يهاجم قيم «العهد القديم». ويؤكد أنه يمحو هذه القيم. ليس بالهجمات الأمامية المباشرة. إنه لا يحكم عليها. يتجاهلها ليدمرها. كنا ننتمي إلى القيم القديمة، لكن القيم الجديدة تنتمي إلينا، لأننا نبتكرها.

ويبرر العلم تمامًا، وفقًا لمونو، الخوف والعداء اللذين أظهرهما بقايا أتباع العهد القديم، الذين لا يزالون مستعبدين لعبوديتهم الكونية. الأخلاق، حتى الآن، في جوهرها غير موضوعية، ومحظورة إلى الأبد من مجال المعرفة (ص ١٦٢).

القيم الجديدة المستندة إلى العلم قيمنا، قيمنا وحدنا، لأننا مبتكروها وأسيادها. إنها، يا للسخرية، «تبدو وكأنها تتلاشى في فراغ كوني لا يكترث»!

وهكذا حين يرى «الإنسان الحديث» (ص ١٥٠-١٦١) أن قدرة العلم الرهيبة لا تدمر الأجساد وحدها ولكنها تدمر الروح نفسها ينقلب عليه[١]. هل من المدهش أن يتساءل الكثير من المعاصرين؟

---

(١) سألْتُ فريتجوف كابرا **Fritjof Capra**، الفيزيائي ومؤلف كتاب **The Tao of Physics**، عن رأيه في كتاب جاك مونو **Chance and Necessity**. ورد بأن أخبرني بأنه سأل هايزنبرج عن رأيه في مونو، وأجاب هايزنبرج: «لا أعتقد أنه يفهم حقًّا فيزياء الكم». بالرغم من أنني ليس لدي أي فكرة واضحة عما أوضحته تلك الملاحظة، فإنني شعرت بطريقة ما بموجة غير محسوسة تقريبًا من الارتياح غير المبرر تكتسحني (**Laing, 1980, p. 20**).

- ٦ -

لا تظهر بعض الحقائق العلمية إلا حين نحقق الموضوعية. ولبعض الحقائق وجود علمي وأهمية علمية وليس لها وجود أو مغزى شخصي يمكن التأكد منه. ليس لمغزى الإنسان في الوجود أو المغزى العلمي وجود أو مغزى علمي.

تُفحَص الآن دورة حياتنا كلها من الحمل حتى الموت بالنظرة العلمية. يُستثمر الطب العلمي، في أجزاء كثيرة من العالم، بقدرته على تحديد كيف ومتى وأين ومن نعالج حين نولد ونلد ونموت، أو في أي وقت لا يمكن فيه أن ندافع عن أنفسنا جسديًّا أو اجتماعيًّا.

إن استحالة أن يجد العلم أسبابًا علمية لكونه غير علمي بالنسبة لنا توضحه جيدًا القصة التالية التي رواها جوزيف نيدهام[1] (١٩٧٥) في عمله في تاريخ علم الأجنة. يعطينا مثالًا مبكرًا لتجربة في التقاليد العلمية، تجربة تنذر، ربما، بأشياء ما زالت آتية. وتستحق أن تُقتبس بالكامل أيضًا، للروح العلمية الدقيقة للجدل الذي ولَّدته.

> ... لفت صديقي الدكتور آر دبليو جيرارد نظري إلى قصة غريبة، لم يتمكن من تتبع أصلها، عن أن كليوباترا، الملكة البطلمية، فحصت عملية نمو الجنين بتشريح الجواري في فترات زمنية معروفة من الحمل، باتباع تعاليم أبقراط بشأن بيض الدجاجة. القصة على ما

(١) نيدهام Needham (١٩٠٠-١٩٩٥): عالم بريطاني في الكيمياء الحيوية، ومؤرخ العلوم وعلم الجينات، معروف بأبحاثه العلمية وكتابته عن تاريخ العلوم والتكنولوجيا الصينية. (المترجم).

يبدو، عبرية (راجع Preuss p.451). كان ر. إسماعيل[1] (Nidd. III. 7) يدرس أن الجنين الذكر اكتمل في ٤١ يومًا، والأنثى في ٨١ يومًا، واستشهد بنتائج تجربة الإسكندرية المذكورة. وجادل المشككون بأن الجماع ربما يكون قد حدث قبل بدء التجربة، لكن المؤيدين ردوا بأنه تم إعطاء مادة تساعد على الإجهاض بالطبع. واستعان المتشككون بالشك في الكفاءة العامة لهذه الأدوية. كما تساءلوا عما إذا كان الجماع بين الجواري وحراس السجن محميًّا تمامًا (Needham, 1975, p. 65).

التقليد مستمر. يخبرنا عالم معاصر أن الرحم كان يعتبر البيئة المثالية للنمو والتطور ولكن براهين البيولوجيا الإنجابية تكشف تأثيرات مزعجة. **لم نعد نستطيع الالتزام بالتكيف الكامل للجنين بملاذ ما قبل الولادة وعلينا التحكم في تلك البيئة بكل الوسائل البيولوجية تحت إشرافنا الإكلينيكي**. تتمتع البشرية بالقوة الكامنة لتعدِّل عمدًا بيئتها داخل الرحم لتحقق النمو والتطور المثالي لعابر الرحم لأننا لم نعد المخلوقات العاجزة التي تتحكم فيها قوى عمياء لا نسيطر عليها (التأكيد لي) (Kugelmass in Ferreira, 1969, p. viii).

يجب أن نتحكم في تلك البيئة بكل الوسائل البيولوجية تحت إشرافنا. هل هذه كلمات عالم أم جنرال؟ المرأة، التي تَصادَف أنها مرتبطة بتلك البيئة، برحمها، بطريقة لا تخضع للمساءلة العلمية ولا

---

(١) ر. إسماعيل **R. Ismael**: ربما تكون الإشارة إلى الحاخام يشمايل بن إليشا نحماني المعروف باسم الحاخام يشمايل وأحيانًا يطلق عليه لقب «بعل هبرايتا» حاخامًا في القرنين الأول والثاني. (المترجم).

صلة لها بالموضوع، لديها سبب للتراجع أمام القوة الحالية لهذا العداء العلمي السريري، المزود بحماس إرسالي مقدام لا يعرف الكلل.

الحمد لله، غالبًا ما أعتقد، أن هذا النوع من العقول لا يمكنه رؤية الكثير من القوى التي يحاول السيطرة عليها، بالرغم من محاولته الجادة. يعمل أندرسون وبينرشكي Anderson and Benirschke (١٩٦٤)، مع المدرعات[١]، يجعلانها تحمل، ويخرجان الأجنة، ويقطعان الأجنة، ويوزعان القطع بشكل عشوائي، ويعيدانها إلى الأمهات و

> ... لاحظا أن الطعوم grafts من جنين الأمهات ومولودها تأخذ وقتًا أسرع من الطعوم من جنين الإناث الأخريات، سواء كانت حوامل أم لا، وهي ملاحظة **توحي أنه قد تنشأ علاقة شخصية فريدة بسرعة بين الأم ونسلها** (التأكيد لي) (Ferreira, op. cit., p. 117).

إن الفكرة القائلة بأن الملاحظات المأخوذة من طعوم أجنة المدرعات بشكل عشوائي «توحي» بأن علاقة شخصية فريدة يمكن أن تنشأ بسرعة بين الأم ونسلها قد تصدم بعض الناس ويعتبرونها ملتوية نوعًا ما، وشاذة إلى حد ما، وحتى غريبة، وعجيبة، ومتنافرة. ومع ذلك، يعد هذا جزءًا طبيعيًّا من التفكير والممارسة العلميين العاديين.

قد يبدو العلم الموضوعي، بمصطلحاته الخاصة، غير مؤهل تمامًا للإدلاء بأي تصريح علمي حول خصائص الخبرة الإنسانية التي تتمتع بالجرأة على الاستمرار في الوجود، بالرغم من أن العلم لا يستطيع دراستها.

---

(١) المدرعات **armadillos**: المدرع حيوان ثديي يعيش في وسط أمريكا وجنوبها. (المترجم).

لا يمكن رؤية الرابطة الشخصية بالنظر إليها بنظرة تقطع الصلة الشخصية بين النظرة والمنظور إليه.

النظرة العلمية ليست فعلًا مشتركًا. الفكرة نفسها عن السر المقدس للحظة الحالية، علميًّا، هراء بلا قيمة. ليس له وجود موضوعي، وبالتالي ليس له قيمة معرفية. ومهما يكن الوجود الغامض الذي يمكن منحه بحذر لا يكون له وجود حقيقي في الزمان والمكان الموضوعيين. هذا يشبه أن نقول: قُضي علينا، وليس أمامنا إلا أن ننتظر حتى يتم تحطيمنا.

- ٧ -

نحتاج إلى إيجاد توازن مناسب بين الادعاءات بشأن حكمنا من خبرتنا الخام البرية الجامحة وادعاءات العقلانية الموضوعية. يجب إعطاء كل منهما ما يستحقه.

إن الخلاف الحالي بين أحد أهم أنواع الفكر التي نشأت في تاريخ البشرية، وبين الخبرة الإنسانية نفسها، مقلق تمامًا.

يجب أن يستبعد العلم الكثير، لينظر ويرى ويجد ويبرر، كما يفعل، ويود كثير من الناس نسيان العلم، لأنه يزعجهم كثيرًا. ويبدو غالبًا أن العلماء لا يستبعدون فقط ما هو ضروري من الناحية التكتيكية، ولكن ما لا يمكن أن يتفاوضوا بشأنه شخصيًّا، ونحن نميل إلى التهرب من تحدي العلم حين نخشى أن يدمر ما نعتز به.

قد يكون القاضي الذي بداخلنا مستعدًّا للاستماع إلى الادعاءات حول سذاجتنا، سواء من شهادة العقل العلمي أو من خبرتنا غير العلمية، بالرغم من أن كلًّا منهما قد لا يلتفت إلى الآخر. هذا الكتاب موجه لمثل هذا القاضي في كل منا.

لا يقتصر حدوث الخلاف، التصادم، بين التجريدات النظرية المختلفة، التي يتبناها أناس مختلفون. الصراع داخلنا أيضًا، خاصةً داخل العلماء، بقدر ما هم بشر.

لدى العالِم مشكلات إنسانية بالإضافة إلى المشكلات العلمية، ولا يمكن حلها كلها علميًّا. ينزلق كثير من العلماء داخل العلم ويخرجون

منه على مدار اليوم بدون صدمات ثقافية كثيرة. والعالَم جامح، سواء وجد المرء، في عقله أو قلبه، التحرك إلى الأمام والخلف سلسًا أم لا، خارج العلم، وفي كل مكان. ونحن، في الداخل أيضًا، في أعماق عقولنا وقلوبنا، جامحون. والمعادلات الخارجية والارتباطات نيات ورغبات. والواجبات والالتزامات، الحرية والمصير، الانبهار والسحر، لا تزول لأنها ليست بيانات جامدة. لا يمكن للمنهج العلمي أن يفهمها. لماذا نتوقع ذلك؟ وإذا لم نتوقعه، فكم يكون غريبًا أن نتوقع من العلماء، ويتوقع العلماء أنفسهم، أن يكونوا قادرين على إخبارنا بما يخبروننا به، ويأسون أو يحتقرون حتى الرغبة في محاولة معرفة أي شيء عنه.

ما فائدة التحكم حين نريد أن نرى ما يظهر دون تحكم؟ ما فائدة ما هو خارج التحكم إلا بوصفه شيئًا للتحكم؟

ماذا يحدث حين يلتقي الإنسان العلمي بالإنسان العادي في عالمنا العادي؟ هل يستطيع التعرف على نفسه؟ هل يستطيع التعرف علينا نحن العاديين؟

هذه النظرة العلمية الفارغة أخلاقيًّا والقاسية الموجهة إلى تلك الأدوات اللا مبالية لا ترانا أو تسمعنا -نحن الذين نرغب ونتحدث ونتصرف. ليس لديها نيات ولا أفعال. هناك وحدات وثوابت وأنماط متغيرة من السلوك اللفظي والجسدي. انتهى السلوك والقدر.

وقد أثيرت هذه النقطة مرات كثيرة ولكن لا بد من تكرارها. الفعل يستلزم الدوافع والنيات. لا يمكن أن نفهم أنفسنا أو الآخرين إذا طرحنا دوافعنا ونياتنا. لكن، لا نيات من الناحية الموضوعية. من الناحية

الموضوعية، يصبح الفعل شيئًا. يصبح التصرف جزءًا من السلوك يجب نشره وفحصه. قد يظهر نمط سلوكي. ومثل هذا النمط السلوكي نتاج مجرد تمامًا للملاحظة العلمية ومعالجة البيانات والاستدلال، المستمدة من تحولات عديدة. وقد يبدو بعد ذلك أن هذا النتاج سبب لما اشتُقَّ منه.

تُمنح إذن فعالية سببية لأفعالي، حتى للأحداث في قلبي ودمي. وقد وجدنا أننا نعاني، ونبتلى بشدة، من هذه الأنماط السلوكية المستخلصة من سلوكنا. وهذه الأنماط المستخلصة من الدرجة الثالثة تؤدي الآن إلى ظهور جحافل من العلل، من الصداع النصفي إلى السرطان (على سبيل المثال، Friedman & Rosenman, 1974; Pelletier, I 977).

بطريقة ما، يبدو هذا الأمر وكأنه عقيدة قديمة. قد تلقي طرق تصرفنا بظلالها على العقل وتمرضنا. إن السلوك الصحيح جزء من المسار الثماني[1].

هناك وقت لتجاهل الدوافع أو النيات، أو اعتبار تجاهل وجودهما أمرًا مفروغًا منه تقريبًا. يمكن اعتبار المشي الخطأ أو اتخاذ وضع خطأ، أو تأرجح الجولف أو ضربة التنس على الشاشة نمطًا لسلوك مجرد. يمكن تصحيح المشي أو الوضع أو التأرجح أو الضربة بتصحيح النمط. ولا حاجة للإشارة إلى الدوافع أو النيات. لكنها مسألة أخرى حين نعتبر السلوك البشري كله نمطًا سلوكيًّا مفيدًا أو عديم الفائدة أو مرغوبًا فيه

(١) المسار الثماني **eightfold path**: المسار إلى النيرفانا، ويتألف من ثمانية جوانب يجب أن يمارس فيها الطامح: الآراء الصحيحة والنية والكلام والعمل والمعيشة والجهد واليقظة والتركيز. (المترجم).

أو غير مرغوب فيه، وحين تأتي نظرية سلوكية موضوعية تمامًا لتحدد جميع القرارات التي تتخذ بشأن ما يجب القيام به لك وللمتورطين بدون قصد في التعلق بزوائد لا حاجة إليها تمامًا.

حين تكون هذه العقلانية الجاليلية الديكارتية بكامل سطوتها، فإنها تهيمن تمامًا على التصورات الفعلية للفرد. لم يعد أحد يرى أحدًا، صديقًا، أو عاشقًا، أو مريضًا، لأنه ما لا يزال يُسمَّى في بعض الأوساط إنسانًا. يرى المرء شيئًا[1].

هذا النوع من النظر ليس من اختصاص العلماء. ومع ذلك، فقد قاموا بزراعته في منهج لفصل أنفسهم عما يدرسونه بطريقتهم في النظر إليه. وهي طريقة ممتازة للتخلص من سحر أي شخص، سواء أكان والدًا أو زوجًا. ألقِ نظرة فاحصة عليها -ولكن بالتأكيد لن يقبل المرء اتخاذ قراراتنا الرئيسية بشأن الحياة والموت على أساس ما يكشفه، مع استبعاد كل الطرق الأخرى التي يمكننا من خلالها التعامل معًا. يميل المرء إلى إنكار صحة، بل وإمكانية، ما يغمض المرء عينيه عنه.

(١) قال لي طبيب «اعتنِ بزوجتك جيدًا. إنها أهم قطعة في جهازك». بالنسبة لعالم فسيولوجي من القرن التاسع عشر مثل ليبيج Liebig (١٨٠٣-١٨٧٣)، كان الحيوان أو النبات بالفعل مجرد «شكل تجريبي»، وهو بلا شك أهم نوع من أجهزته.

- ٨ -

كيف نبدو للعقل العلمي؟

إننا نترك العالَم وراءنا لنتجاوزه، لكننا جميعًا نحب أن يكون لدينا صور أو نماذج لما نتخيل أنه وراءنا. والصورة التي يمكن تصويرها لها علاقة ما مع ما تصوِّره، تختلف عن العلاقة بين الصورة والواقع الذي لا يمكن التنبؤ به، الواقع الذي يلمِّح إليه الوصف في الصورة.

تُرسَم صورة من عالمنا الحسي على عمليات خارج مجالنا الحسي. ويُرَدُّ الاندماج الزائف للصورة الحسية والعملية التي تتجاوز الحواس إلى صورتنا عن أنفسنا. على سبيل المثال، يخبرنا لوريا Luria (١٩٧٦)، عالم الكيمياء الحيوية الحائز على نوبل، أن كل خلية من أجسامنا «مصنع كيميائي أساسًا» (ص ٦٥)، به محطة للطاقة وخطوط تجميع وقطع متنوعة من الآلات. الإنزيمات «مثل الأدوات الآلية تُرتَّب في خط إنتاج للوصول إلى السرعة المثلى وأعلى كفاءة للإنتاج» (ص ٦٧). تصنع هذه الإنزيمات الجزيئات التي تخرج من خط الإنتاج «تمامًا مثل السيارات الجاهزة» (ص ٨٩).

تعتبر هذه الرؤية الذاتية للغاية موضوعية «أساسًا» وصحيحة «أساسًا» وتأتي لتؤثر تأثيرًا هائلًا في العالم. لأننا، في ضوء مثل هذه التركيبات النظرية، المدعمة مؤسسيًّا، نتعامل عمليًّا.

- ٩ -

قد يستخدم عالِم موضوعي شخصيته. مثل العالَم كله، قد يحاول تحويلها إلى أداة، واستخدامها أداة، في بحثه الموضوعي.

يخبرنا تولمان Tolman، أحد أبرز الباحثين على الفئران في العالم، أنه في أثناء التخطيط لتحليل تجاربه، صاغ مفاهيمه في قالب مستمد من خبرته الإنسانية اليومية. وينوي ذلك، في أعماله المستقبلية، كتب في عام ١٩٣٨: «للمضي قدمًا أتخيل كيف كان لي أن أتصرف، لو كنت فأرًا». وبعد ذلك، يحاول ترجمة أي حدس واعد يخرج من هذا التمرين إلى «مصطلحات طنانة موضوعية ومحترمة مثل القوى الموجهة والتكافؤ والحواجز وما شابه» (١٩٣٨، ص ١٤٠).

إن الأصولي الموضوعي الأكثر صرامة يتجنب مثل هذه المداعبة مع الذاتية. حتى لو استخدمت مثل هذه المناورة على أنها إسقاط واعٍ، فإنها تشبه مغازلة الطاعون، وهي أسوأ من اللعب بالنار.

يدق هال Hull (١٩٥٢) ناقوس الخطر:

> تتمثل إحدى أدوات المساعدة على تحقيق الموضوعية السلوكية في التفكير في سلوك الكائنات الحية الأدنى من البشر، مثل الشمبانزي والقرود والكلاب والقطط والجرذان البيضاء. لسوء الحظ، غالبًا ما ينهار هذا الشكل من الوقاية أمام الذاتية حين يبدأ المنظِّر التفكير فيما سيفعله لو كان فأرًا أو قطة أو شمبانزي... (ص ١٤٠).

نعم، فُقِد الكثير من الناس الطيبين. لكن هال لديه «جهاز» يوصي به باعتباره «وسيلة وقائية أكثر فاعلية» ضد انتشار عدوى الذاتية، أي: انظر في كل وقت إلى «الكائن الحي باعتباره روبوت يحافظ على نفسه تمامًا، مصنوعًا من مواد تختلف عما صنعنا منه» (مقتبس في Brown, 1978, p.140).

إن النظر إلى الآخر على أنه كائن حي يتصرف، واعتبار هذا الكائن الحي روبوت، وتخيُّل أنه مختلف ماديًّا عني قدر الإمكان، تبدو كلها مجتمعة أفعالًا ذاتية إلى حد بعيد، وفي الواقع، ذاتية أكثر تعقيدًا وتطورًا من الخطيئة البسيطة نسبيًّا المتمثلة في تخيل أنه جرذ، أو أي شيء، أو أي شخص.

يبدو «جهاز» هال مثل وصفة طبية لتطوير فصام البارانويا. أن يتخيل المرء نفسه مثل الآخر، ويتخيل أن الآخر مختلف عنا قدر الإمكان، نقيضان من أصل واحد. لا يُظهِر التماثل المتعاطف أو غير المتعاطف، أو غير الودي، (وقد يقول المرء) أن عدم التماثل غير المتعاطف يعرض رابطة رأفة وتعاطف بين مختلف الكائنات. واحتمال أن تكون هذه الرابطة أداة لا يزيد على احتمال أن يصبح الهواء خشبًا. إنها لا تلعب أي دور في المنهج العلمي الموضوعي. إنها رابطة خبرة، وبالتالي فهي ليست موضوعًا علميًّا. ليس لها قيمة معرفية للعلماء الموضوعيين الذين يمكن أن تكون فقط بالنسبة لهم بقايا عقليتنا البشرية البدائية. وأفضل ما يمكن أن يفعله العالِم الاعتراف بالخطر وتوخي اليقظة باستمرار.

حتى العالِم ربما لا يزال يرى البشر من حوله. قد يرى زوجته، أو طفله، على سبيل المثال، بوصفه إنسانًا، في لحظة ضعف. لكن، عليه أن يذكِّر نفسه على الفور بأنه هو نفسه وهم متحرك، بقايا عقليته البدائية قبل العلمية. وله أن يقر صراحة، بدون خجل أو حرج، أنه كان ولا يزال مرتبطًا ارتباطًا شرطيًّا بها، إلى حد ما على الأقل. ولا يستطيع أن يلوم نفسه على تعرضه لها في كل مكان.

> للإيجاز، نستخدم مرة أخرى تقاليد تفكير الفرد كما لو كان لتفكيره هدف واعٍ. كما كان من قبل، يجب أن نتذكر أن هذا مجرد كلام مجازي. الجسد **في الحقيقة** آلة تبرمجها جيناتها الأنانية برمجة عمياء (Dawkins, 1979, p.157).

- ١٠ -

يدافع كونراد لورنز Lorenz (١٩٧٧) بقوة عن حقه بوصفه عالِمًا في رؤية صديقه بوصفه إنسانًا. كم هو مخيف أنه يحتاج إلى مثل هذا الدفاع عمومًا! يشهد أن خبرته مع صديقه تكذِّب النظرية القائلة بأنه يعاني من نوع ما من الثنائية شبه الفصامية التي يميل نوع من العقلانية الشائعة بين العلماء إلى صنعها.

حين يقول شخص ما إن صديقه دخل الغرفة للتو، فهو بالتأكيد لا يعني فقط روح صديقه التي تشعر بشكل ذاتي، ولا يعني جسده الذي يمكن الوصول إليه بالفحص الفسيولوجي؛ ما يعنيه بالضبط اتحاد الاثنين. وبالتالي، يصدمني بطبيعة الحال أنه ينبغي علينا التحقيق في كل العمليات الفسيولوجية الموضوعية التي تزود الناس بمعلومات عن العالم الخارجي والأحداث الذاتية لخبرتنا ومعرفتنا. إن اقتناعنا بوحدة الإنسان بوصفه كيانًا ماديًّا وشخصًا يشعر يؤهلنا لاستنباط معرفتنا من الفسيولوجي والفينومينولوجي (ص ٤).

وبالإضافة إلى ذلك،

لا يمكن تفسير استقلالية الخبرة الشخصية وقوانينها من حيث المبدأ بمصطلحات القوانين الكيميائية والفيزيائية أو البنية الفسيولوجية العصبية، مهما تكن معقدة (ص ١٧٠).

يوضح موقف لورنز وعلماء آخرين أنه من المحتمل تمامًا ألا يؤمن العلماء بالعلم باعتباره كل شيء ونهاية كل شيء. لماذا يجب أن نتوقع أن تكون قوانين الكون الموضوعي وتلك الخاصة بالخبرة الشخصية من نوع واحد؟

لماذا يجب أن تخضع كل الروابط بين الأحداث في الخبرة، والروابط بين الأحداث الموضوعية التي لا يمكن اختبارها، والروابط بين هاتين المجموعتين، للقوانين نفسها؟

هناك أناس يمارسون فن العلم الموضوعي أو حرفته، وهم على وعي بالخبرة الإنسانية العادية، ولا ينتقصون منها. لكن، بوصفهم علماء، ماذا يفعلون بها؟ لم يكن لعلم الجنس الموضوعي أن يوجد بدون الخبرة الجنسية، ومع ذلك يبدو أن الكثير من الدراسات الموضوعية للنشاط الجنسي تُجرَى متناسية حقيقة أن العرض الذي يجري لا يكتسب معنى بالنسبة لنا إلا بقدر ما يعتبر تعبيرًا عن الخبرة الجنسية البشرية، وبقدر ما يدخل في نطاقها.

يمكن أن أتعاطف مع وادينجتون[1] (١٩٧٧) وهو يفكر في هذه المشكلة الصعبة.

> تعامل مع الجنس كشيء في مجال الكيمياء، وقد تتوصل إلى حبوب منع الحمل -وهي عامل واضح جدًّا ينتج عنه نتيجة محددة جدًّا. ومن ناحية أخرى، إذا رفضت معاملته على أنه أي شيء أقل

(١) وادينجتون **Waddington** (١٩٠٥-١٩٧٥): عالم أجنة بريطاني وعالم وراثة وفيلسوف. (المترجم).

تعقيدًا مما كنت تعتقد (بسبب العوامل اللا شعورية فيه)، ينتهي بك الأمر إلى الشعور بأنك غارق في مستنقع فرويد ويونج ورايش ولانج والبقية، وهو مستنقع بلا قرار. إنه اختيار صعب. ومما لا شك فيه أن رؤية «الشيء» تؤثر إلى حد ما؛ ويمكن للمقاربة «الاختزالية» للجنس إصلاح الأمر بحيث لا تنتج الفتاة بويضة قابلة للتخصيب حين يكون وجودها غير مرغوب فيه. لكن وجود بويضة مخصبة أو عدم وجودها ليس هو الشيء الوحيد المهم في الخبرة الجنسية. تتضمن الخبرة عوامل يمكن للمرء أن يتعرف عليها، ويحاول فرويد وآخرون التحدث عنها، مهما وجدوا من صعوبة في القيام بذلك بأي طريقة ذات معنى (ص ٢٣).

تكمن الصعوبة هنا في أن الحديث الهادف الذي يربط البيانات بالخبرة لا معنى له موضوعيًّا. ومن المستحيل، كما ينبغي أن أفكر، استبعاد خبرة المعنى، ومعنى الخبرة، من المنهج والخطاب، وفي الوقت نفسه، أن تتوقع ممن يتحدثون عن تلك الأمور أن يكون لحديثهم أي معنى. بالنسبة لهذا المنهج، وضمن هذا الخطاب، المعنى بلا معنى. لا توجد خبرة أو معنى في النظام الموضوعي لأن النظام الموضوعي هو الطريقة التي يظهر بها العالم، مطروحًا منه الخبرة ذات المعنى. محرومة من المنهج العلمي، ومنفية من الخطاب العلمي، تعيش في القصص والروايات والأساطير والأمثال، في أنماط ديناميكية وأشكال درامية.

تتضافر الحقائق والمعاني في رداء واحد سلس تستمر خيوطه في اجتياز الشقوق التي نصنعها بمفاهيمنا.

لا يرغب الإنساني العلمي الذي يمنح نفسه هذا الوصف في أن يكون عدميًّا. على العكس من ذلك، قد يحتج، مثل وادينجتون، بأنه يرغب في تبرير الطبيعة. ومع ذلك، لا يمكنه تبرير تبريره إلا بما يحاول تبريره. ولأن «التبريرات» ليست أحداثًا علمية، لا يمكن العثور على أي مبرر.

وفقًا لتعبير سي إس لويس[1] (١٩٧٨)

> إن الوسائل اليائسة التي يمكن للإنسان أن يُقاد إليها إذا حاول أن يؤسس قيمة على حقيقة يوضحها جيدًا مصير الدكتور سي إتش وادينجتون...
>
> إذا كان الخير = «أيًّا كان ما تفعله الطبيعة» فعلينا بالتأكيد أن نلاحظ ما تفعله الطبيعة ككل؛ والطبيعة ككل، كما أفهم، تعمل بثبات وبشكل لا رجعة فيه نحو الانقراض النهائي لجميع أشكال الحياة في كل جزء من الكون (ص ٦٢).

في مثل هذا المخطط، لا يوجد أي مبرر لانحيازنا غير الخاضع للمساءلة تجاه قضية ضيقة الأفق مثل علم الأحياء المحلي لدينا. ومع ذلك، بدون بعض التحيز أو الالتواء، يبدو أننا قد تُركنا مع «القتل والانتحار باعتبارهما واجبينا الوحيدين» (ص ٦٢)، إذا كان روح شبح يطارد الفراغ اللا متناهي للذرات يمكن أن يفترض أن وراءه مثل هذه الواجبات الهزلية.

---

(١) لويس **Lewis** (١٨٩٨-١٩٦٣): كان كلايف ستابلز لويس كاتبًا ولاهوتيًّا بريطانيًّا. شغل مناصب أكاديمية في الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد وجامعة كامبريدج. (المترجم).

- ١١ -

كل ما يمكن أن تقوله العلوم الطبيعية عن القيم أنها ليست **في مجال قدرتها على الفحص**.

هناك بعض أنماط الوجود الأخرى خارج قدرة العلوم الطبيعية على الفحص وهي الحب والكراهية، والفرح والحزن، والبؤس والسعادة، والسرور والألم، والصواب والخطأ، والهدف، والمعنى، والأمل، والشجاعة، واليأس، والله، والسماء والجحيم، والنعمة، والخطيئة، والخلاص، واللعنة، والتنوير، والحكمة، والرحمة، والشر، والحسد، والخبث، والكرم، والصداقة الحميمة، وفي الحقيقة كل ما يجعل الحياة تستحق أن تعاش. لا يرى عالم الطبيعة أيًّا من هذه الأشياء. بالطبع لا يرى! **لا يمكنك شراء جمل من سوق الحمير**.

* * *

الفصل الثالث

نظرة تشخيصية

كان أولريش يُسأَل: الاسم؟ السن؟ الوظيفة؟ العنوان؟ ...

شعر وكأنه محاصر في آلة، تقسمه إلى مكونات عامة غير شخصية حتى قبل أن يكون هناك أي ذكر لذنبه أو براءته. اسمه –هاتان الكلمتان[1] الأفقر من ناحية المفهوم، لكنهما الأغنى عاطفيًّا في اللغة– لا يوضع في الحسبان هنا. عمله، الذي أكسبه تكريمًا في العالم العلمي (ويُعتبر عادةً صلبًا جدًّا)، لم يكن موجودًا بالنسبة لهذا العالم هنا؛ لم يُسأل عنه ولو مرة. وقد وضع وجهه في الحسبان من منظور «الوصف» فقط. شعر أنه لم يفكر من قبل في حقيقة أن عينيه رماديتان، تنتميان إلى نوع من أربعة أنواع من العيون معترف بها رسميًّا ويوجد منها ملايين العينات. كان شعره فاتحًا، وكان طويل البنية، بوجه بيضاوي، ولم تكن له خصائص مميزة، بالرغم من أنه كان له رأي مختلف بهذا الشأن. كان يشعر أنه طويل، وأن كتفيه عريضتان، وصدره متسع مثل شراع ممتلئ من الصاري، وكانت مفاصل جسده تربط عضلاته مثل حلقات صغيرة من الصلب كلما غضب أو تشاجر أو، على سبيل المثال، تشبثت به ربة

(١) في الأصل **his name**، ومن هنا يأتي الحديث عن كلمتين. (المترجم).

الخير[1]. ومن ناحية أخرى، كان نحيفًا خفيف البنية وأسمر ورقيقًا مثل قنديل بحر يطفو في الماء كلما قرأ كتابًا يحركه أو تأثر بنسمة ذلك الحب الرائع للمشردين، الحب الذي لم يكن قادرًا على فهم وجوده في العالم. وحتى في هذه اللحظة، كان يستطيع أيضًا تقدير خيبة الأمل الإحصائية لشخصه، وأثارت أساليب القياس والوصف التي طبقها عليه ضابط الشرطة حماسه بقدر ما قد تثيره قصيدة حب ابتكرها الشيطان.

Musil (1979), pp.185-6

(١) ربة الخير **Bonadea**: ربة الخصوبة عند الرومان، خصوبة الأرض والنساء. (المترجم).

- ١ -

تقوم آلة النظر بمسح الكائن. تكشف وتنظر بتمعن. تجمع بيانات في تشكيل غير شخصي، قابل للتصنيف والقياس وموضوعي. تقسم بياناتها، وتفرز الأجزاء الصغيرة، وتُفصِّلها وتُصنِّفها وتعالجها. إنها طقس شيطاني كامل، وليست مجرد قصيدة حب.

إنه احتفال للسيطرة، السيطرة على العقل والجسد والسلوك، والسيطرة دائمًا، مهما تكن، من أجل السيطرة المطلقة، والمزيد من السيطرة، والسيطرة الكاملة والشاملة. ومن المفترض أن يتم الوصول إلى السيطرة الكاملة حين لا يحدث إلا ما نسمح به. ما الاستقلالية التي نسمح بها لأي شيء ولمن وأين ومتى؟

لم نعد نقيد ونعذب ونقطع ونمزق. إننا مفككون عقليًّا. تدخل البيانات الخام إلى الآلة، مثل اللحوم البشرية النيئة في فم مولوخ.

تخضع الآن دورة حياتنا كلها من الحمل إلى الموت، في الصحة وفي المرض، لتدقيق هذا النوع من المراقبة. والقرارات التي تُتخَذ في ضوئها تحدد بالفعل ما يجب فعله لنا حين لا يُسمح لما يحدث فينا، عقليًّا أو جسديًّا، بتحديده.

إننا نهتم، عمومًا، بسياسات حياة الإنسان على جميع المستويات، الروحية والفكرية والعاطفية والاجتماعية والمادية: قضايا القوة التي تتجمع وتتراكم في جميع مراحل حياة الإنسان وأبعادها، من الحمل إلى الموت.

من الذي يقرر، ومن أين تأتي القرارات بشأن من يستطيع، وما ينبغي، ومن لا يستطيع، ولا ينبغي، أن يقرر ما الذي يجب فعله، أو لمن، وفي أية ظروف؟

بأي سلطة يتم تحديد ما يمكن أو لا يمكن أن يُفعَل لنا قبل أن نولد، أو حين نولد، أو بعد أن نولد؟ من يحدد من يمكن أن يكون مع من وما يفعله لمن، أو معه؟ ماذا يُفعَل لنا حين نكون في حالة عجز عقلي أو عاطفي أو اجتماعي أو جسدي؟ من يحدد كيف وأين وفي أي صحبة يجب أو يمكن أو لا يمكن أن نمضي وقتنا ونحن أصحاء أو ونحن نحتضر؟

أريد أن أنظر إلى الطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا، وأستخلص القليل عن كيفية تضافر الطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا مع الطريقة التي نتعامل بها مع أنفسنا.

- ٢ -

التشخيص النفسي وسيلة لتحديد الأحداث العقلية والعاطفية غير المرغوب فيها. لا يمكن أن يقصر فحصه على عينات محددة من السيكوباثولوجي لأننا ننظر إلى كل الحياة العقلية بالطريقة **نفسها**، لرؤية بعض الأحداث العقلية والعاطفية في فئة «ما يجب الحد منه»، أي السيكوباثولوجي. وبالتالي، يجب وضع كل حدث عقلي وعاطفي في موكب التعريف.

ما يجب أن يستمر هو ببساطة ما قررنا ألا نوقفه. ما لا نمنعه، نسمح به. بصرف النظر عما نمنعه، لا يوجد شيء لا نسمح به.

ما غير المرغوب فيه؟ ما الذي لن نسمح به؟

في بعض الدوائر، لا يُسمح فعليًّا بأي شيء يختلف تمامًا عن المعتاد. هناك أنواع مختلفة من الناس، من بينهم النوع «العادي» وحده أكثر ما يسمح به.

ذكر كارل ياسبرز (١٩٦٣) إشكالية الطب النفسي بمصطلحات يستمر غالبية الأطباء النفسيين في إقرارها. «يبدو أن أعمق اختلاف في الحياة النفسية للإنسان موجود بين ذلك النوع من الحياة النفسية التي يمكن أن نتكهن بها ونفهمها، وهذا النوع غير المفهوم، بطريقته الخاصة، المشوه حقًّا مشوه وفصامي (دون الحاجة دائمًا إلى وجود الهذاء). الحياة النفسية المرضية من النوع الأول يمكن أن نفهمها على أنها زيادة، أو نقصان، في الظواهر المعروفة لنا التي قد تبدو غير

مصحوبة بأسبابها ودوافعها الطبيعية. الحياة النفسية المرضية من النوع الثاني نفهمها بهذه الطريقة بشكل غير كافٍ. في هذه الحالة، تحدث تغيرات من النوع الأكثر عمومية. مع هذه التغيرات التي لا يمكن أن نتعاطف معها، لا يمكن أن نجعلها مفهومة على الفور، بالرغم من أننا نحاول استيعابها بطريقة ما من الخارج» (ص ٢١٩). تعليقًا على هذا المقطع، يكتب هيلم ستيرلين[١] (١٩٧٤)، وكان من تلاميذ ياسبرز: «لدينا هنا مسلمة ياسبرز المركزية عن وجود «هوة» وهي، حسب قوله، تفصل الفصام عن الخبرة الطبيعية والعصبية، وتؤدي إلى فشل أي محاولة لفهم هذه الخبرة حقًّا والتواصل الحقيقي مع مريض الفصام. في شرح هذه المسلمة، صار ياسبرز مؤيدًا لموقف المراقب عن بعد في الطب النفسي الحديث» (ص ٢٢٠).

هناك حقًّا **هوة** الاختلاف، بتعبير كارل ياسبرز، الاختلاف **الكلي**، بتعبير مانفريد بلولر، بالنسبة لمعظم الناس العاديين، بما في ذلك الأطباء النفسيين، بين الحياة العقلية لبعض الناس وحياتهم. أقترح في هذا الفصل النظر إلى بعض الطرق التي يقدم بها الأطباء النفسيون والمحللون النفسيون أنفسهم للآخرين، عبر الاختلاف.

هذا الاختلاف الكلي ليس هوة موضوعية. إذا لم تكن هناك خبرة بمثل هذه الهوة، فلن تكون هناك دعوة لتبريرها أو تفسيرها أو فهمها أو شرحها. قد تعمل الطريقة التي نفهم بها الاختلاف على تضييقه

(١) هيلم ستيرلين **Helm Stierlin** (١٩٢٦-٢٠٢١): طبيب نفسي ومحلل نفسي ألماني. (المترجم).

أو توسيعه. يساهم ما تقوله وطريقة استماعي إليه في مدى تقاربنا أو تباعدنا. تدرب الطبيب النفسي على الاعتقاد بأنه إذا اعتقد أنه يفكر ويشعر بطريقة تشبه كثيرًا طريقة من يشخصهم بأنهم ذهانيون، فإن هذا لا يعني أنهم ليسوا ذهانيين، لكنه يعني أنه ذهاني. هناك، بمعنى ما، اختلاف بين الطبيب النفسي الذي يقتنع بهذا والفصامي أكبر من الاختلاف بين إنسان طبيعي وفأر طبيعي.

الاختلافات بين الناس، وليس الناس هم «**المختلفون**».

- ٣ -

يعتقد الأطباء النفسيون الموضوعيون أن ما يسمونه نظرية المرض أفضل استراتيجية يمكن تبنيها للسيطرة على الخبرة والسلوك غير المرغوب فيهما بأقصى سرعة وبدون ألم وبتكلفة زهيدة قدر المستطاع. قد تكون الطريقة الأكثر فاعلية للنظر إلى الأحداث العقلية والعاطفية بهدف السيطرة عليها أو التخلص منها، في الوقت الحالي، النظر إليها وكأنها متلازمات.

يخبرنا وينج Wing (١٩٧٨) بأن الأطباء النفسيين في مدرسته

> يطرحون نظريات عن الأمراض تتعلق ببعض المتلازمات النفسية المحدودة ويطبقونها في حالات فردية حين يعتقدون أنهم يمكن أن يخففوا من المعاناة والإعاقة. إنهم يبذلون أقصى ما يستطيعون لاختبار هذه النظريات ومستعدون للتخلي عنها إذا لم تثبت فائدتها. ولا يعتقدون أن نظرية المرض تفسر مجمل شخصية المريض وسلوكه، بل جوانب خاصة ومحددة للغاية. وسوف يستخدمون أنواعًا أخرى كثيرة من «النماذج» بالإضافة إلى نموذج المرض (ص ٢٤٥).

أي إن الأطباء النفسيين الذين يقتنعون بهذا يعتبرون الحد من المعاناة والإعاقة جزءًا من تخصصهم. وبوضع هذه الغاية في الاعتبار، يطورون طرقًا لفحصنا، أفضل للحد من، أو إيقاف، ما نفكر فيه أو نشعر به أو نتخيله أو نتذكره أو نفعله، مما يتطلب، في رأيهم الإكلينيكي، تقليصه أو القضاء عليه.

على مسؤوليتهم ووفقًا لتقديرهم يضعون شخصًا ما تحت المراقبة. إنهم يراقبون هذا الشخص جسديًّا وعقليًّا بأكثر التقنيات المتاحة فعالية في التعامل مع الآخرين. إنهم يتلاعبون بهذه الآلة الجينية التالفة ويعملون عليها، بأي طريقة يهتمون بها، من تكييف السلوك إلى الجراحة النفسية، من العلاج النفسي إلى العلاج البيئي الشامل. كلنا براجماتيون هذه الأيام.

إنهم يخبروننا بأن نظرية المرض يقال إنها تخدم الغرض منها. إذا اعترض أحد عليها، يُسأَل ماذا نضع مكانها؟ إننا على يقين من أنه إذا قُدِّم نموذج آخر أكثر فاعلية، فسيتم التخلص من نظرية المرض بدون ندم. ولا شك في أنه ستظهر طرق أكثر فاعلية للتخلص من الخبرة التي لا نعتقد أن الناس يجب أن يتعرضوا لها، سواء اعتقدوا ذلك أم لا، وفي غضون ذلك، تستخدم نظرية المرض لأنها مفيدة.

إنها، نظريًّا، أكثر فائدة حين لا توجد عملية مرضية.

> ... قد يُفترض أن أنواعًا معينة من الهذيان والهلوسة أعراض لأنها تستند إلى خبرات نادرة، ويصعب تفسيرها من الناحية الاجتماعية، التي لا تتغير عمليًّا عبر مجموعة واسعة من البيئات الاجتماعية (ص ٣١).

الخبرات النادرة، التي يصعب تفسيرها اجتماعيًّا ولا تتغير عمليًّا عبر العالم، تحدث بالفعل، في القديسين والمذنبين والعباقرة والمجانين وحتى في الذين يبدون عاديين. لوضع حد لمثل هذه الأمور، من المفيد اعتبارها من علامات المرض، وتصنيفها على أنها هذاء وهلوسة، أو ما شابه. هذه

أسماء لأنواع مختلفة من الخبرة التي يشعر الأطباء النفسيون أننا سنكون أفضل بدونها، ويجب السماح بها بحذر، أو عدم السماح بها تمامًا.

بالإضافة إلى ذلك، قيل لنا بصراحة تنم عن الرضا تقريبًا إنه حيث تكون نظرية الفصام ناقصة تمامًا تكون في غياب صلة قوية بين المتلازمة الإكلينيكية وآلية الاستقرار الأساسية، التي تعادل تلك التي تتحكم في مرض السكري. بالطبع، من الواضح أن باثوفسيولوجي مرض السكري نفسه ليس مفهومًا بأي حال من الأحوال، ولكن إذا تمكنا من الوصول إلى هذا الحد مع الفصام، فستكون خطوة كبيرة جدًّا (ص ١٢٤).

نظرية المرض من النوع الذي يشرحه وينج «ناقصة تمامًا» حيث إنها لا ترتبط بروابط ثابتة مع الحقيقة البيولوجية الموضوعية. إنها تحاول استخدام العلم، لكن هذا لا يكفي لجعل استخدامها للعلم علميًّا، مهما كان «مفيدًا» بالرغم من ذلك.

للطبيب النفسي الحق في الاعتقاد بأن نظريته تتطابق مع الحقائق الموضوعية بقدر ما يصدق مريضه المفلس أنه مليونير. يبدو أن الخطأين المعرفيين متشابهان بشكل غريب، حيث يتردد صداهما عبر هوة الاختلاف بينهما.

إذا وجدت روابط قوية مع الحقائق الموضوعية، فقد يبدو الخطاب المفيد القائل بأن الخبرة التي يجب الحد منها متلازمة إكلينيكية يجب معالجتها أكثر صحة مما يبدو عليه الآن. ويحتاج الطب النفسي الموضوعي بشدة، حاليًّا، إلى البحث عن روابط قوية مع الحقائق الموضوعية، لكنه لا يحتاج إلى العثور عليها بشدة.

أي عدد من الحقائق الموضوعية لا يمكن أن يضيف إلى طريقة تفسيرنا لها. تستلزم الطريقة التي نفسر بها الحقائق الموضوعية مجموعة عمليات عقلية ليست حقائق موضوعية. لا يجد الأطباء النفسيون وحدهم صعوبة في إيجاد الروابط الوثيقة بين حياتنا العقلية والحقائق الموضوعية لعلم الأعصاب. ما دام الطبيب النفسي الموضوعي استطاع الاستمرار في عدم تركيزه على ذاته، فإنه يجنب نفسه حيرة إدراك أن الموضوعية التي ينسبها لنفسه تخترقها قيم ذاتية، وهو إدراك لا يمكن أن ينشأ إلا من تفكير نقدي.

يعتمد الطب النفسي الموضوعي على المعتقدات لا على علم الأحياء. علم الأحياء بحد ذاته مجرد ذريعة للطب النفسي الموضوعي. إنه يقدم نفسه باعتباره موضوعيًّا، أو على أنه موضوعي، فقط بقدر ما يكون من المفيد أن يفعل ذلك أو يكون كذلك، من أجل النهاية غير الموضوعية للسيطرة على الخبرة والسلوك غير المرغوب فيهما. والطب النفسي الموضوعي محاولة غير موضوعية للسيطرة على الأحداث غير الموضوعية إلى حد كبير بوسائل موضوعية. ربما توجد تطابقات موضوعية ذاتية أكثر دقة، وبعد ذلك تخضع لسيطرة أكثر دقة وشمولية مما هو ممكن حاليًّا. بقدر ما تقدمنا، إلا أننا ما زلنا في البداية. ومن المرجح جدًّا أنْ تُمكِّننا التصنيفات الأكثر دقة للنشاط العقلي والعاطفي غير المرغوب فيه مع التطورات في علم الأعصاب من إجراء روابط أكثر دقة بين الأحداث التجريبية والفسيولوجية التي تفتح حقبة جديدة من التحكم في العقل أكثر دقة مما تسمح به معرفتنا التكنولوجية المحدودة حاليًّا. وفي هذه البيئة، لا تبقى النظرية في شكل ما إلا إذا

بقيت مفيدة في تكنولوجيا التحكم في الأحداث العقلية والعاطفية. تبقى فقط ما دامت كانت الأصلح لهذا الغرض.

يدعي وينج، بصفته طبيبًا نفسيًّا يصف نفسه بأنه علمي، أنه يستخدم مصطلحات مثل الذهان والعصاب باعتبارها تسميات وصفية. يقول: «لا توجد نظرية معينة متضمنة في هذا الاستخدام». إنها «تُستخدم فقط لوصف حالة عقلية غير طبيعية بشكل فادح، تضطرب فيها بوضوح قدرة الشخص المصاب على إصدار أحكام مسؤولة» (ص ٤٧-٤٨). لكن مثل هذه المصطلحات لا يمكن أبدًا أن تكون أوصافًا، لأنها تشير بالفعل إلى نظرية وتعبر عنها. غالبًا ما أتمنى لو كان لدينا مفردات «وصفية» أكثر وفرة وأكثر ملاءمة للكثير من الأحداث العقلية والعاطفية، المعتادة وغير المعتادة، ولكن ربما يكون غيابها نعمة مقنَّعة.

لنفترض أن بعض الأحداث العقلية يبدو أنها حدثت بشكل خاطئ إلى حد ما. ما الأحداث الجسدية التي ترتبط بها هذه الأحداث العقلية؟ توجد أعقد الارتباطات بين الأحداث العقلية والجسدية. ومهما تكن هذه الارتباطات، فإن الحكم السابق بأن شيئًا ما قد حدث بشكل خاطئ، حكم عقلي. تدور النظريات عن المرض الجسدي الحقيقي حول الأحداث البيولوجية الفعلية التي يُتَّفق عمومًا على أنها تعوق الوظيفة أو تقصر العمر.

تشير كلمة «سرطان» مباشرة إلى عمليات بيولوجية فعلية، وإن كانت مفهومة جزئيًّا. يتوجه البحث إلى كيفية ظهور هذه العمليات البيولوجية غير المرغوب فيها، ومسارها، وكيف يمكن السيطرة عليها،

وإنهاؤها، أو تقليصها على الأقل، ومنعها إن أمكن. وقد جادل توماس ساس[1] وآخرون في هذه القضية، على ما أعتقد، بشكل مقنع للغاية.

في الطب النفسي، يتوجه البحث إلى **إيجاد** عملية بيولوجية مناسبة في المقام الأول لتتطابق مع الحالات **الذهنية** غير المرغوب فيها، مؤلمة أو مضطربة. إننا نواجه أسئلة لا تنشأ في الطب الجسدي. في الطب الحقيقي، نحدد أن أي عملية بيولوجية تكون عملية مرضية على أسس **بيولوجية**. سيكون هناك، في اعتقادي، اتفاقات عامة بأن

> الشرط الأول لنظرية المرض هو التعرف على مجموعة سمات أو خصائص غير مرغوب فيها تميل إلى الحدوث معًا؛ تُمنَح الصلابة لمثل هذه المجموعة إذا تمكنا من إثبات أنها تتمتع بدرجة من الاستقرار بمرور الوقت أيضًا. وفي هذه الحالة تكون لدينا مجموعة تميل إلى اقتراح مسار ونتائج معينة (ص ٢٢).

ويمكن أن نتفق على أن «لا شيء من هذا يؤدي بالضرورة إلى نشوء نظرية المرض» (ص ٢٢).

ومع ذلك، فإن العنصر الأساسي الثاني في أي نظرية مرضية يقترحها وينج أكثر تعقيدًا ووضوحًا إلى حد ما. إنه

> الفرضية القائلة بأن مجموعة السمات «أعراض» لبعض الاضطرابات البيولوجية الأساسية. كلما زادت أعراض هذه المتلازمة التي يمكن تحديدها من منظور غير اجتماعي، زادت احتمالية قدرتنا على اقتراح طبيعة الاضطراب الأساسي (ص ٢٢).

---

(١) توماس ساس **Thomas Szasz** (١٩٢٠-٢٠١٢): أكاديمي وطبيب نفسي مجري أمريكي. (المترجم).

أفترض أن أحد العناصر الأساسية في أي نظرية تقول بأن بعض الأحداث الذهنية والعاطفية سمات أو أعراض لمرض هو فرضية أن مثل هذه الأحداث العقلية والعاطفية سمات أو أعراض لمرض. ليست كل الاضطرابات البيولوجية أمراضًا، لكن كل الأمراض اضطرابات بيولوجية. لا اضطراب بيولوجي، لا مرض.

لندرسْ إذن الجهاز البيولوجي ونرَ ما إذا كنا نستطيع إيجاد أي شيء يرتبط بالتحولات في الخبرة.

لا يدرس عالم الأحياء الخبرات. لا يظهر في صورة الطب النفسي إلا لأن بعض الناس يعتقدون أنه يجب إنهاء بعض الخبرات. كل محاولات الإقناع الشخصي باءت بالفشل إذا تمت تجربتها. الآن نحتاج إلى ترخيص كامل للقيام بما نريد للآلات الجينية التي اعتدنا أن تكون أشخاصًا. تشير هذه الآلات بطريقة أو بأخرى إلى أنها تعاني من خبرات غير مرغوب فيها. الآن، من منظور الطب النفسي، أي اختلافات بيولوجية يمكن أن توجد مرتبطة بالتغيرات التجريبية ويحكم عليها بأنها باثولوجية تعتبر باثولوجية، لمجرد أن تلك **الخبرات** غير المرغوب فيها تسمى باثولوجية في المقام الأول. وبالتالي **يجب** اعتبار ارتباطاتها البيولوجية باثولوجية، سواء كانت، أو لم تكن، لأي سبب بيولوجي موضوعي.

من منظور بيولوجي، لا تعتبر الأحداث البيولوجية باثولوجية إلا على أسس بيولوجية. وهي الأسس الصالحة الوحيدة لإصدار حكم بيولوجي. ولكن في هذه الحالة لا يبدو أن الحكم البيولوجي يستند إلى

معايير بيولوجية. لأننا نعتبر بعض الخبرات بلا قيمة ومدمرة بحد ذاتها، نشعر أن العمليات البيولوجية المصاحبة لها يجب أن تكون باثولوجية. وهذا يعني أنه مهما كانت التغيرات البيولوجية التي يمكن التفكير فيها أو العثور عليها لتولد الخبرة أو تسببها أو ترافقها، فإن الحكم بأن التسلسل البيولوجي مختل وظيفيًّا، أو باثولوجيٌّ يعتمد على وجهة نظر ترى أن الخبرة مختلة وظيفيًّا أو سيكوباثولوجية. هل يجب أن يسعد علماء البيولوجي بهذا؟

يبدو أن البلاغة الطبية، مهما كانت صحتها المؤكدة علميًّا، تثبت صحة الممارسات التي يصعب على المرء تبريرها بأي مصطلحات أخرى.

للأصوليين من لاهوتيي الطب النفسي وجهة نظر حين يعترضون على الأطباء النفسيين والمحللين النفسيين وغيرهم، الذين يستخدمون لغة الأعراض، والمتلازمات والعلامات، والباثولوجي، والتشخيص، وعلم مسببات المرض، والعلاج، كما لو كانوا يقصدونها حرفيًّا، وهم يتنصلون من أنهم يفعلون ذلك. إنها بالطبع، كما يقولون، كلها استعارة (استعارة كل شيء)، لكنها أفضل ما لدينا للأغراض الحالية. ماذا يفعل كل هؤلاء الأطباء النفسيين الاستعاريين حرفيًّا في معالجة الأمراض الاستعارية؟

هناك طرق بسيطة ورخيصة للحد من الأفكار والمشاعر والأحاسيس غير المرغوب فيها أو إيقافها.

هناك قضايا حرجة تتعلق بالسلطة العميقة هنا، من يقرر من يوقف ماذا؟ ومن يفعل ماذا لمن؟

حاليًّا يتخذ هذه القرارات أطباء، في معظمهم، زملاء مدربون ينظرون إلى أفكارنا ومشاعرنا ومعتقداتنا ويتصرفون بالطريقة التي يمثلها وينج.

وإذا اعتقدوا أن الحياة العقلية والعاطفية لشخص ما **يجب** أن يتم تغييرها أو إيقافها، فهم مُرخصون (في أجزاء كثيرة من العالم) لاستخدام كل الوسائل المتاحة لهم تقريبًا للقيام بذلك.

يدعونا وينج للتفكير في حالة زوجة شابة فقدت زوجها في حادث سيارة.

> إنها عرضة لأن تصاب بالاكتئاب، وأن تبكي، وتفقد اهتمامها بوظائفها المعتادة، وتهمل مظهرها، وتشعر أن الطعام بلا طعم، وتفقد الوزن. قد تشعر بالذنب لأنها لم تفعل ما يكفي لزوجها حين كان على قيد الحياة. حتى إنها قد تتخيل، أحيانًا، وسط نشاط ما اعتادا أن يمارساه معًا، أنها تسمع صوته يقول شيئًا مألوفًا جدًّا، ربما اسمها. قد تجد أنها لا تستطيع التعامل مع عملها، وأنها مشغولة وبطيئة وغير فعالة. لا شيء من هذا غير متوقع، على الأقل لبضعة أسابيع (ص ٥٦).

ويتابع قائلًا: «ومع ذلك، فإن هذا رد فعل اكتئابي نموذجي». يُنظر إلى حزنها وحدادها على أنهما متلازمة باثولوجية. القرارات الأساسية قرارات نظام سياسي طبي. إلى متى نسمح لهذا الوضع بالاستمرار؟ متى نضعه تحت السيطرة أو نوقفه تمامًا؟ نعرف أنه لا حاجة إلى اتخاذ أي إجراء طبي، «ما دامت الأعراض خفيفة ومحددة ذاتيًّا» (ص ٥٦).

يا لها من سلطة عميقة! لن يكون هناك المزيد من العويل وتمزيق الشعر والضرب على الثدي والبكاء والنحيب والكز على الأسنان.

إذا اعتقد المرء أن أفكاره ليست أفكاره، وأنها تُقحَم أو تُسرَق أو تبث أو تراقب، يعتبر أنه يهذي، **لأن** مثل هذه الأمور تعتبر **مستحيلة**. وكثيرًا ما يكون الحكم على ما هو ممكن أو مستحيل حاسمًا في التشخيص في الطب النفسي. هل يمكن أن يكون هذا حكمًا بيولوجيًّا موضوعيًّا؟

لدينا جميعًا خطوط كفاف تفصل بين ما يصدق وما لا يصدق. لكن ما لا يصدق من الناحية الموضوعية يبدو واقعيًّا **غالبًا**. أقترح أن هذه هي الحالة الطبيعية.

تجاوز بعض الخطوط أكثر خطورة من غيرها.

إنها في عيادة مرة أخرى. صارت مفرطة في كل شيء مرة أخرى. إنها تتحدث أكثر من اللازم، وتأكل أكثر من اللازم، وتريد ممارسة الجنس أكثر من اللازم. تنام أقل من المطلوب. شخصت حالتها هوسًا خفيفًا مبدئيًّا. لكنها شُخصت بالفصام من قبل. تناولت مزيجًا من المهدئات لإخضاعها. تخضع للمراقبة المستمرة، وثلاثة أطباء نفسيين من الدرجة الأولى على استعداد لاتخاذ إجراءات فورية (أي، لإعطائها صدمات كهربائية)، في أول ظهور لأي أعراض من الدرجة الأولى لاضطراب التفكير الفصامي.

- ٤ -

كان الأطباء النفسيون من بين أشد منتقدي الطب النفسي.

وكان الطب النفسي الوجودي نقلة داخل الطب النفسي المؤسسي الأرثوذكسي في اتجاه استعادة إنسانية الإنسان، نظريًّا على الأقل، بعد فقدها في نظرية الطب النفسي وممارسته.

في عام ١٩٥٥ كتب مانفريد بلولر:

تحول الاهتمام السيكولوجي إلى حد كبير بعيدًا عن السيكوباثولوجي الوصفي الكلاسيكي نحو سيكولوجي يأخذ منحى تحليلًا ونحو مقاربات وجودية تحليلية تحاول فهم «العالم» الشخصي للمريض «ككل» (ص ٧٦).

و

... فتح التحليل الوجودي إمكانيات جديدة يمكن مقارنتها بالمحاولات الأولى في بورغوزلي[١] لفهم أعراض الفصام. وقد أثبتت هذه المحاولات المبكرة وجود صلة بين الأعراض الفردية وخبرات الحياة الفردية أو مساعيها. لكنها لم تدمج الأعراض الفردية وعلاقاتها المتبادلة في بنية، أو نظام، أو جشطالت، كما يفعل التحليل الوجودي الآن (ص ٤٤).

---

(١) بورغوزلي **Burghölzli**: مستشفى زيورخ الجامعي للطب النفسي. (المترجم).

كان يوجين ومانفريد بلولر، **الأب والابن**[1]، مؤثرَين مثل أي شخصين في نظرية الفصام في الطب النفسي. صاغ يوجين بلولر المصطلح وطور المفهوم، وواصل مانفريد بلولر خطى والده. وموقفه أكثر دقة بكثير من أي شكل خام من أشكال الطب النفسي البيولوجي.

إنه لا يعتقد أن الأسباب كانت أو ستكون أو **يمكن** أن توجد لعملية أولية لأنه توقف عن الاعتقاد بأن الفصام مرض جسدي. بالنسبة لمانفريد بلولر، الفصام مرض **عقلي** فقط.

> في رأيي، يحدث الفصام في عوالم العقل والعواطف، أي في المجالات العقلية الموجودة فقط في الإنسان. لا يمكن الوصول إلى التأثيرات المباشرة بالعمليات البدنية الأولية (١٩٧٨، ص ٥٠٠).

لكننا نبقى خبراء في التشخيص. كيف نشخص الأحداث الفصامية في تلك المجالات العقلية، التي يتعذر الوصول إليها بعكس الفحص البدني المباشر؟ يقدم بلولر تشخيص الفصام بحذر:

> ... يجب استخدام تشخيص الفصام، الموجز والمُصاغ بوضوح، فقط حين يتحدد أن الفصام ذهان فعلي، وليس حين يُشتبه فقط أنه ذهان كامن أو متطور أو حين «يظهر الفصام على شكل عصاب» (ص ١٥).

ولكن بمجرد إصدار هذا الحكم، لا تتغير الإدانة، بالرغم من احتمال تغير الأعراض.

---

(١) الأب والابن **père et fils**: بالفرنسية في الأصل، والاثنان من أبرز العلماء الألمان في تاريخ الطب النفسي. (المترجم).

... يكفي السماح بالتشخيص إذا كان المريض قد عانى في أي وقت من ذهان فصامي (ص ١٥).

قد تتجاوز المعاناة العقلية والعاطفية للشخص ما يمكن أن أتصوره أو أتخيله أو أحلم به أو أتماهى معه، أو أتعاطف معه، أو أفسره، أو أفهمه. قد تكون الوظائف العقلية والعاطفية بالفعل مضطربة بشدة.

لنحاولْ الحصول على فكرة أوضح عما يعتبره بلولر حدثًا فصاميًّا.

إنه يقصر هذا التشخيص، كما يخبرنا، على الاضطرابات العقلية التي تعتبر عمومًا أمراضًا عقلية. يجب أن يكون الاضطراب العقلي قد تطور بدرجة لا يمكن معها لأي شخص طبيعي وسليم، أن يعتمد حكمه على الخبرة مع نفسه ومع زملائه من الناس العاديين، إلا أن يعتبر شخصية المريض «غريبة تمامًا ومحيرة ولا يمكن تصورها، خارقة للمألوف، ويعتبره عاجزًا عن التعاطف، حتى إنه قد يكون شريرًا ومخيفًا» (ص ١٥). يخبرنا أن الناس العاديين يجدون أنه من المستحيل الاقتراب من مثل هذا المخلوق الذي لا يمكن تصور أنه ند.

خضعت الحياة العقلية والعاطفية لمريض الفصام لمثل هذا التغيير الكامل، بحيث يجد الشخص العادي أن الاقتراب منه مباشرة بعد الآن باعتباره ندًّا له مستحيل (المصدر السابق ص ٥٠٠).

ماذا يجب أن يفعل الناس العاديون مع هؤلاء، أو يفعلوه بهؤلاء الغرباء تمامًا، الذين لا يمكن تصوُّرهم، الخارقين، الأشرار، المخيفين؟ يرسلونهم إلى طبيب نفسي يعتبر تشخيصه، كما يقول بلولر بوضوح تام، انعكاسًا واستجابة للضغوط الاجتماعية أكثر مما هو تعبير عن أي

قناعة طبية دوجماتية. يود الاعتقاد بأن لهذا التشخيص وظيفة وقائية حميدة في الأساس. إنه قرار سياسي بامتياز. الأشخاص الذين أعلن أنهم «مرضى عقليون» بناءً على رأي الخبراء، وقبلتهم بهذا الشكل السلطات الإدارية في سياق القانون المدني أو الجنائي، ينبغي اتخاذ قرارات بشأنهم وفرضها عليهم.

إن إعلان الخبير بأن الأحداث الفصامية تحدث في المجالات العقلية يعني أن يحدد الآخرون، من الآن فصاعدًا، إن كان سيُسمح لمن تنتمي إليهم هذه المجالات العقلية، أو لن يُسمح لهم، بممارسة الجنس أو الزواج أو الطلاق، وحضانة الأطفال، والتصرف في شؤونهم الخاصة، والتصويت، وأن يكونوا طلقاء، إلخ، وبالإضافة إلى أنهم سيحصلون، سواء كانوا في حاجة إلى ذلك أم لا، على أفضل معاملة «قوية» رائجة، سواء رغبوا أم لا. لا يمكنهم فعل أي شيء لا يُسمح لهم بفعله.

يأمل بلولر أن يفيد مفهوم طبيعة مرضى الفصام الذي يقدمه في المقام الأول في «إحياء لهيب الحماس لعلاجهم» (ص ٥٠٢).

يسمي بلولر بعض من ينظر إليهم الأشخاص العاديون بازدراء وينبذونهم ويعتبرونهم معتلين عقليًّا فصاميين. لم يُنبذوا لأنهم ذهانيون. يُوصفون بأنهم ذهانيون لمعرفة مدى استحالة تصورهم، ولإعطاء تصريح طبي بحرمانهم.

يبدو الأمر أكثر إثارة للإعجاب حين أشخص، بصفتي طبيبًا نفسيًّا، مريضًا بأنه ذهاني بدل أن أصفه بالحماقة. في الظروف الحرجة، يُستثمَر مثل هذا التشخيص بقوة هائلة. ومع ذلك، آمل ألا يجادل أحد في أن

القوة الاجتماعية تثبت صحة فرضية علمية. التشخيص تعبير عن طريقة النظر إلى وضع نشأ في مجالات اجتماعية وجسدية وفي مجالات عقلية أيضًا. يعتبر كثير من الأطباء النفسيين، مثل بلولر، تشخيصهم، في هذه الظروف، وسيلة اجتماعية أكثر مما هو فرضية طبية علمية، ناهيك عن أن يكون تعبيرًا عن حقيقة موضوعية.

وأعتقدُ أن بلولر وهؤلاء الآخرين على حق في عدم اعتبار أنفسهم علماء موضوعيين أو حتى أطباء بالمعنى العادي، وهو ما يسعى بعض الأطباء النفسيين إلى تصديقه أو يطمحون أو يودون تصديقه.

ومع ذلك، يجب النظر إلى جميع الحالات الذهنية المحتملة بالطريقة نفسها لتشخيص أي حالة منها. الطبيعي تشخيص بقدر ما يكون غير الطبيعي تشخيصًا. والتطبيق المستمر والمتواصل لوجهة النظر هذه عامًا بعد عام له مخاطره بالنسبة للأطباء النفسيين.

من السهل جدًّا بالنسبة لشخص أن يشعر بالذهول من خطابه الخاص، بحيث يتعامل مع تشخيصه على أنه تفسير، وليس استراتيجية اجتماعية، أو ربما فرضية تأملية. وحين يحدث هذا تحجب الحقيقة بما يفترض أن ينيرها.

إنه أمر غير مفهوم، وبالتالي فهو خارق، وهو بالتالي ذهاني لأنه خارق لأنه ذهاني لأنه غير مفهوم.

– ٥ –

يشهد الأطباء النفسيون والمحللون النفسيون الأرثوذكس، مثل أي شخص آخر، أنه لا يمكنهم إجراء اتصال شخصي مهم مع بعض من يلتقون بهم.

يعتقد المحللون النفسيون عادة، منذ فرويد، أن هؤلاء الأشخاص «يتعذر فهمهم» لأنهم نرجسيون للغاية، وتفكيرهم مضطرب للغاية، وعواطفهم شديدة الارتباك.

ومع ذلك، فقد يبدؤون في جعلهم مفهومين إلى حد ما، إذا قمنا بتغيير ما يقولونه، وتقسيمه، وتفكيكه، وضم ما هو منفصل، وقلبه، رأسًا على عقب، ومن الداخل إلى الخارج، ومن الخلف إلى الأمام. ومن المثير للفضول أن المحللين النفسيين ينسبون هذه العمليات وغيرها، أي تموه الشخصية، والتشيؤ، والتجسد، والتعتيم، والتنصل، والإنكار، وعدم الفهم، وعدم الشفقة، وعدم التعاطف، والافتقار إلى الارتباط الوجداني، والإلغاء، والتكثيف، والإسقاط، والاستهلال، والانعكاس، إلخ، لمواضيع يوظفونها هم أنفسهم.

الذهان، مثل الحلم، مثل الدماغ، جاهز للإمساك به، للتدوير، والانعكاس، والتعديل، والتقطيع، والتقسيم، والتجاور، وتغيير الموضع.

بينما، في أول أيام التحليل النفسي، اعتُبرت عقيدة فرويد القائلة بأن مرضى الفصام لا يمكنهم حتى أن يشكلوا إحالة إلى المحلل بمثابة

إنجيل، فإن مقولة التحليل النفسي السائدة الآن هي أن مرضى الفصام ينقلون بالفعل خبرتهم من هناك ثم إلى هنا والآن -كما نفعل جميعًا- لكنهم يفعلون ذلك بدرجة تجعل هذه العمليات الذهانية تطمس الآخر، المحلل، بشكل كامل تقريبًا. وسواء كان هذا هو الحال أم لا، فإن العمليات النظرية التي يستخدمها المحلِّل بشكل كامل تقريبًا تطمس المريض.

بالإضافة إلى ذلك، فإن ما يحمله مرضى الفصام، كما هو مكتوب، مليء بالكراهية والجشع والحسد والضغينة والحقد. إنهم غالبًا أشخاص مزعجون يعاملون المحلل بشكل مميز بالعداء واللا مبالاة والازدراء ويحاولون جعل ثديها، أو قضيبه، الجميل والجيد والكبير والمفيد والقوي قبيحًا وسيئًا وفارغًا وعديم الفائدة وعنينًا. لا يحب المحللون النفسيون أكثر من مرضاهم أن يُجبروا على مقاومة الشعور بأنهم أشياء تافهة عديمة الفائدة. امنحهم (حتى يشعر المحللون النفسيون تجاه مرضاهم المصابين بجنون العظمة بما يشعر به مرضاهم المصابون بجنون العظمة تجاههم) بوصة، وسوف يأخذون ميلًا. أعطهم إصبعك الصغير، وسوف يلتهمونك تمامًا. يعتقد عموم المحللين النفسيين أن من الحكمة الحفاظ على مسافة آمنة خاصة بعيدًا عن الأشخاص الذين يشعرون بهذه الطريقة تجاههم.

يتحدث سبوتنيتز[1] (١٩٦٩) عن النظرة العامة للتحليل النفسي حين يلخصها على النحو التالي:

---

(١) سبوتنيتز **Spotnitz** (١٩٠٨-٢٠٠٨): طبيب نفسي ومحلل نفسي أمريكي. (المترجم).

إن تأثيرات الحب ضئيلة الأهمية في الفصام. وقد تم تحديد أن المشكلة الأساسية تتمثل في شحنة عاطفية سلبية (ص ٣٦).

قد يتحلى مريض الفصام بالعذوبة أو اللا مبالاة لكن الكراهية تحتها. يأتي ليكره المحلل ويعارض تأثيره (ص ٣٨).

وكما يقول سبوتنيتز، لهذا الرأي آثار بعيدة المدى على المنهج. يجب أن يعرف المحللون النفسيون بشكل أفضل الآن، إلا أن

بعض المحللين يوصون، حتى اليوم، بطريقة دافئة ومنفتحة لإقامة علاقة مع مريض الفصام (ص ١٨٠).

إلا أن ذلك محظور. على المرء أن يهتم اهتمامًا خاصًّا بالحفاظ على موقف متحفظ وحذر.

قد يرغب مثل هذا المريض، على سبيل المثال، في أن يساعده المحلل في ارتداء معطفه، أو مرافقته إلى الباب، لكن يجب أن يتذكر المحلل أن هؤلاء الأشخاص معرضون للانفجار إذا لم يحصلوا على ما يريدون، وبالتالي من الأفضل رسم الخط عاجلًا وليس آجلًا، والحفاظ على مسافة آمنة.

لكن من الصعب الحفاظ على مسافة آمنة مع ذهاني إذا كان المرء «يراه» يومًا بعد يوم في التحليل. إنه يحاول شق طريقه تحت الجلد. يحاول أن يشغل المرء، ويشغله. إنه مرتبك ومربك.

- ٦ -

يحظى ولفرد بيون بتقدير كبير من زملائه المحللين النفسيين لمساهمته الدقيقة في نظرية التحليل النفسي للفصام. لنلقِ نظرة على إحدى الصور التي يقدمها عن التفاعل بين مريض الفصام وبينه.

وهنا أريد أن ألقي نظرة على بيون وكذلك على المريض، وعلى التفاعل بينهما.

إليكم ما يسميه بيون (١٩٥٥) «العناصر الأساسية» لجلستين مع مريض فصام قضى معه خمس سنوات في التحليل. ويقول إن التفسيرات يجب أن تكون بلغة بسيطة ودقيقة وناضجة.

المريض: التقطت قطعة صغيرة من بشرتي من وجهي وأشعر بفراغ تام.

المحلل: القطعة الصغيرة من الجلد هي قضيبك، وقد مزقته، وكل ما بداخلك تمزق معه.

المريض: لا أفهم... القضيب... مجرد مقاطع والآن لا معنى له.

المحلل: قسمت كلمة «قضيب» التي نطقت بها إلى مقاطع والآن ليس لها معنى.

المريض: لا أعرف ماذا يعني ذلك، لكني أريد أن أقول، «إذا لم أستطع التهجئة لا أستطيع التفكير».

المحلل: قُسِّمت المقاطع الآن إلى أحرف. لا يمكنك التهجئة -وهذا يعني أنه لا يمكنك تجميع الأحرف معًا مرة أخرى لتكوين الكلمات، وبالتالي لا يمكنك التفكير الآن.

في الجلسة التالية سار الحوار على النحو التالي:

المريض: لا أجد أي طعام ممتع.

المحلل: تشعر أنه قد أُكِل كله.

المريض: لا أشعر أنني قادر على شراء أي ملابس جديدة وجواربي كتلة من الثقوب.

المحلل: باقتطاع القطعة الصغيرة من الجلد أمس، أصبت نفسك بشدة لدرجة أنك لا تستطيع حتى شراء ملابس؛ أنت فارغ وليس لديك ما تشتريها به.

المريض: بالرغم من أنها مليئة بالثقوب فإنها تضيق على قدمي.

المحلل: لم تمزق قضيبك فقط، بل وقضيبي أيضًا. وبالتالي لا يوجد اليوم طعام ممتع -فقط ثقب، جورب. لكن حتى هذا الجورب مصنوع من كتلة من الثقوب، التي صنعتها كلها والتي انضمت معًا لتضيق على قدمك، أو تبتلعها وتصيبها (ص ٢٢٩).

أكدت هاتان الجلستان والجلسات اللاحقة لبيون أن المريض شعر أنه أكل قضيب بيون، تاركًا ثقب اضطهاد عليه أن يشقه. لكن الفتحة المنقسمة شكلت كتلة من الثقوب تجمعت لتضيق على قدمه.

بعد عشرة أيام،

تدفقت دمعة من عينه وقال بمزيج من اليأس والتوبيخ: دموع تنزل من أذني الآن.

لا عجب في أن تنهمر الدموع من أذنيه بعد سماعه هذه «التفسيرات» التي لا تعرف الكلل، يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام.

لا أعرف ماذا يقصد المريض حين يقول إنه أخذ قطعة صغيرة من جلد وجهه وشعر بالفراغ. يبدو أن بيون يعتقد أنه يعرف. اقتراحه، على أي حال، أن المريض مزق قضيبه ومزق معه أحشاءه. لست مندهشًا من أن كلمة «قضيب» في مثل هذه الظروف لا تعني للمريض أكثر من المقاطع التي تتكون منها، جورب من الثقوب يضيق على قدميه feet (عمل فذ feat).

لا شيء في تصريحه بأنه لا يجد طعامًا ممتعًا يوحي بأنه يشعر أنه أُكِل كله.

من الصعب تخيل ما يمكن أن يقوله المريض ويمكن أن يخبر بيون بأي شيء لا يعتقد أنه يعرفه. يعتمد رأي بيون على طريقة بيون في الاستماع إلى ما يسمعه بأذنيه وينتج عنها. ما يفعله بما يسمعه، للوصول إلى تفسيراته يستلزم مجموعات معقدة للغاية من العمليات الشعورية، ناهيك عن العمليات اللا شعورية، التي وصفها بيون في موضع آخر. يمكن سماع أي شيء يقوله أي شخص ومعالجته بهذه الطريقة الغريبة جدًّا. ومن الصعب تخيل أي شيء قد يقوله أي شخص يمكن أن يكشف لبيون أن تفسيراته قد تكون خطأ، أو أنها آلة طحن تحوِّل أي معنى إلى محض هراء. من الصعب فهم الاختلاف بين فانتازيا التحليل النفسي عند بيون وما يسمى عادة بنظام الهذيان الذهاني.

إذا قرأ المرء المحادثات المذكورة أعلاه بدون معرفة المتحدث، لا يتضح بأي حال من الذي يُفترض أن يكون المنفصل عن الآخر، ومن الذي على اتصال بالواقع ومن ليس على اتصال به. غيِّرْ طريقة الاستماع إلى هذه المحادثات، ويبدو أن ملاحظات المحلل تخرج من فم شخص يمكن تشخيصه بأنه مريض فصام بارانويا ومضطرب إلى أقصى حد، يطارد إحدى ضحاياه المضطهِدين بدأب. ويُقسَّم شرف الجنون بالتساوي.

إذا قال لي شخص ما كنت «أراه» خمس مرات في الأسبوع لمدة خمس سنوات أن الدموع تنهمر من أذنيه، يمكن أن أتخيل تنهيدة. قد تدهشني موهبته لأنه قال الكثير بكلمات قليلة. قد أسعد لعدم وجود دموع في أذني أو عيني. لا يسعني إلا أن أشعر أن الدموع في أذنيه قد تخبرنا بإحساسه، ولا يسعني إلا أن أشاركه فيه، بشيء محزن، وربما مثير للشفقة، حول علاقتنا.

هناك حقًّا هوة بين هذين الرجلين. إنهما مرتبطان معًا في محادثة لا تمثل حوارًا ولا حديثين منفصلين تمامًا. يبدو أن كلًّا منهما بعيد عن الآخر بقدر بعد الآخر عنه.

- ٧ -

كنت أجلس، وأنا طبيب نفسي شاب، في جلسة علاج جماعي تحليلي، يديرها طبيب نفسي ذو توجه تحليلي نفسي لم يستفد، مع ذلك، من تدريب كامل على التحليل النفسي. كنا نجلس في دائرة على كراسي بدون أذرع جانبية لمدة ساعة وعشرين دقيقة مرة في الأسبوع. وكان التدخين ممنوعًا.

كان المرضى أربعة رجال وأربع نساء، غرباء عن بعضهم وعنه. التقى الجميع أول مرة في سياق المجموعة.

كان أسلوب الطبيب النفسي يقتصر على نقل التفسيرات. حد من حركاته وتعبيراته وإيماءاته إلى أقصى حد، ليتجنب أقل قدر ممكن من الإحالة المضادة.

في مرحلة ما، فسر جدالًا حول السياسة بين رجلين بأنه محاولة لعرض رغبتهما في ممارسة العادة السرية معًا وإخفائها، بالتبادل، ومعه.

التفت أحدهما إلى الطبيب النفسي، وسأله: «دكتور، هل تمارس العادة السرية؟».

كان الطبيب النفسي شابًّا مهذبًا. لم يكن محللًا نفسيًّا، لكنه كان طبيبًا نفسيًّا متمرسًا. تملص. شاهد الجميع وانتظروا. ابتسم.

«لم أعرف قَط شخصًا لم يمارسها».

خف التوتر. نسفه. هل تعرف السبب؟

- ٨ -

أصبح التحليل الوجودي مدرسة داخل الطب النفسي المؤسسي، ويبدو أنها تقدم طريقة لفهم الوضع الإنساني من منظور إنساني.

يعتبر تحليل لودفيج بينسوانجر الوجودي لإيلين ويست[١] (١٩٥٨) عمومًا عملًا معياريًّا في مجاله، ونموذجًا مثاليًّا من نوعه.

ومع ذلك، في هذه المحاولة للتحليل الوجودي، نرى التشخيصات النفسية تصل إلى أقصى حد، وأقصى حد من العبثية. للحفاظ على العبثية، يمكن للمرء أن يشخص جميع السمات المألوفة لمتلازمة الطب النفسي المتمثلة في التباعد، والانفصال، والتشيؤ، والتجسيد، والانقسام، والتحلل، إلخ. ومن المفارقات التراجيدية الكوميدية أن يكون تقرير بينسوانجر، لسنوات طويلة، مثالًا رائعًا لما يسعى إليه، لا ييأس بما يكفي، ولا يتأمل نفسه ويسخر منها بدرجة كافية، ليتجنبه، ويتركه وراءه.

إيلين ويست اسم مستعار لمريضة دخلت مصحة كروزلينجن، وكان بينسوانجر مشرفًا عليها، في ٣ يناير في سنة ما في الربع الأول من القرن العشرين. خرجت لرعاية زوجها وعائلتها في مارس من ذلك العام، بعد أن شخصها بينسوانجر ويوجين بلولر مريضة فصام بتطور يدعو لليأس. بعد ثلاثة أيام من عودتها إلى المنزل وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها، انتحرت كما توقعا.

---

(١) ويست West (١٨٨٨-١٩٢١): مريضة للدكتور لودفيج بينسوانجر تعاني من فقدان الشهية العصبي. أصبحت مثالًا شهيرًا للتحليل الوجودي. انتحرت بالسم. (المترجم).

لم يعرف بينسوانجر إيلين ويست قبل حجزها في كروزلينجن. خلال إقامتها هناك لثلاثة أشهر، أجرى معها مقابلة من حين لآخر. ويذكر أنه يعتبر افتقاره إلى المعرفة الشخصية أو الإكلينيكية المباشرة لإيلين ويست مزية لأغراض التحليل الوجودي.

إن حكايته عن إيلين، أو بالأحرى، على حد تعبيره، «عن الجشطالت الوجودي الذي أعطيناه اسم إيلين ويست» (ص ٢٩٢)، ليست مشتقة من إيلين شخصيًّا، ولكن من وثائق مكتوبة مختلفة: قصائد، مذكرات، رسائل، وتقرير من زوجها عن ذكرياتها عن حياتها، استخرجه تحت تأثير التنويم المغناطيسي بتحريض من بينسوانجر.

يجري تحليله الوجودي بعرض البيانات أمامه على «الجشطالت الوجودي الذي هو إيلين ويست». ثم ينتقل لمناقشة هذا الجشطالت تحت عناوين مختلفة: عالمها، موتها، زمنها، زمانية العالم الأثيري، زمانية عالم المقابر، زمانية عالم الإجراءات العملية، إلخ.

وصف ما فعله. ينشر أمامه تاريخ حياتها كله بأكبر قدر ممكن من التفاصيل. ويتجاهل، قدر الإمكان، جميع الأحكام الأخلاقية والجمالية والاجتماعية والطبية، وفي الواقع، جميع أنواع الأحكام المستمدة من وجهة نظر سابقة. غير مثقل بأحكام سابقة، يركز على الشكل النهائي لوجودها في العالم. إنه يشرِّح فراشة ميتة من نسج خياله، ولا يصور الحياة المثيرة للشفقة لشخص مهزوم.

يقول بينسوانجر إنه لا يعرف شيئًا عن طفولتها المبكرة، لكنه يخبرنا أن إيلين ويست كانت تمص إبهامها منذ فترة الرضاعة. في السادسة

عشرة تخلت عن ذلك فجأة، وعن ألعابها الصبيانية، في بداية «افتتان» استمر عامين.

لم نسمع شيئًا أكثر عن هذا «الافتتان» الخاص -افتتان ببينسوانجر، لكن ماذا عنها؟ يواصل. بدأت كتابة القصائد. يقدم لنا بينسوانجر الآن سردًا شبه موسمي لحياتها حتى وفاتها. في الثامنة عشرة، «تتطور علاقات الحب العاطفية الصغيرة الجديدة» (ص ٢٤٠) وتصبح رقيقة وحالمة مثل صديقاتها.

في التاسعة عشرة، تقوم «برحلة مع والديها عبر المحيط». ولن نعرف أبدًا إن كان لهذه الرحلة أي علاقة باعتراض والديها على «علاقاتها العاطفية الصغيرة».

في الرحلة، لا يمكن لإيلين أن تكون بمفردها أبدًا. بالرغم من أنها تقضي وقتًا ممتعًا في زيارة الأصدقاء، فإنها تتوسل إلى والديها لمعاودة الاتصال بهم (ص ٢٤١).

بعد أن عادت إلى أوروبا، بدأت ركوب الخيول بحماس شديد. ويمكن أن نشعر أن كل ما تفعله، أو فعلته أو ستفعله، كان وسيظل، بحكمة الإدراك المتأخر، نحسًا.

قيل لنا إنها قامت، في العشرين، برحلة ثانية إلى الخارج لرعاية شقيقها الأكبر وكان مريضًا جدًّا. استمتعت بالأكل والشرب للمرة الأخيرة. وكانت قد خطبت لأجنبي رومانسي، لكنها فضت الخطبة بتحريض من أبيها. من حكاية بينسوانجر، ليس من الواضح إن كان يستنتج بشكل صحيح، ومرة أخرى يتركنا إلى الأبد لنخمن ما يعنيه لها

أن تتخلى عن الرجل الذي أحبته. على أي حال، قد يكون لهذه الكارثة العاطفية علاقة بعيدة بفقدها الشهية، أو الإضراب عن الطعام، أو أي شيء آخر.

بعد ذلك نجدها في صقلية، حيث

تشعر بأنها صغيرة ومنبوذة تمامًا في عالم لا تستطيع فهمه (ص ٢٤٢).

انشغلتْ بالأكل أو كانت لا تأكل، وهذا الموضوع سيطر على حياتها.

في بداية إقامتها في صقلية كانت تتمتع بشهية هائلة، وصارت بدينة حتى إن صديقاتها ضايقنها. توقفت عن الأكل وكانت تسير لمسافات طويلة «بشكل مبالغ فيه». وصل هذا إلى حد أن إيلين كانت تستمر، حين يتوقف رفاقها في مكان جميل، في الدوران حولهم.

تعقدت الحبكة.

عادت من صقلية إلى إيطاليا، وفي خريف عامها الحادي والعشرين بدأت التخطيط لإنشاء غرف قراءة للأطفال على الطراز الأمريكي. تابعت هذا المشروع «بنشاط ونجاح» (ص ٢٤٤) خلال فصل الشتاء. ربما كان هذا مؤشرًا طفيفًا على «الهوس الخفيف» القادم.

في خريف العام نفسه، بدأت في التحضير لامتحان ماتورا (الامتحان النهائي في المدرسة الثانوية، الذي يؤهل للالتحاق بالجامعة)، بهدف دراسة الاقتصاد السياسي.

في خريف عامها الثالث والعشرين، «انهارت»، تقريبًا حين كانت «على علاقة حب مزعجة مع مدرس ركوب الخيل». يسأل المرء مرة

أخرى، مزعجة لمن؟ لزوجها الذي يستنبط هذه «المادة» تحت التنويم المغناطيسي؟

مثل افتتانها (في سن السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة)، علاقاتها العاطفية الصغيرة (في الثامنة عشرة)، خطبتها للأجنبي الرومانسي (في العشرين)، نعرف لمن لم تكن مشاعر الحب هذه مزعجة. ومع ذلك، أيًّا كان ما قد يعنيه ذلك لإيلين، مثل علاقاتها الأخرى التي قد تكون مهمة لها ودالة بقدر ما كانت تافهة وعديمة المعنى لمن كانت تحت سيطرتهم، وظلت تحت سيطرتهم حتى وفاتها، أو لأي شخص آخر، لم نسمع المزيد عن ذلك.

بعد مرور بعض الوقت، تحمست للدراسة وحياة التلمذة. تذهب مع آخرين في رحلات طويلة إلى الجبال، ومربيتها العجوز معها دائمًا.

تذهب في الرابعة والعشرين، إلى منتجع على شاطئ البحر، ويبدأ «اكتئاب» شديد تمامًا بعد خطوبتها، على ما يبدو بموافقة أسرتها، أو، على حد علمنا، بأمر من أسرتها.

وهي في الخامسة والعشرين، شخصت حالتها على أنها تعاني من متلازمة بايدو[1]. تنسج الحكاية اللاحقة عن «جشطالت إيلين ويست» تقارير عن حالتها الجسدية، التي اعتبرت إكلينيكيًّا اضطرابًا في الغدة الدرقية بشكل ما.

تُفسَخ خطوبتها. لا يقال لنا لماذا. بعد فترة وجيزة من وجودها في

(١) متلازمة بايدو **Basedow**: اضطراب يسبب زيادة إفراز الغدة الدرقية. ويعرف أيضًا بمرض جريفز **Graves**. (المترجم).

مصحة عامة، التحقت بمدرسة للبستنة. إنها مكتئبة، لكنها جسديًّا «تترك انطباعًا بأنها في صحة جيدة» (ص ٢٤٨).

يهتم بها ابن عمها اهتمامًا خاصًّا، وكانا صديقين منذ سنوات طويلة.

الآن وهي في السادسة والعشرين، تمشي هي وابن عمها مسافات طويلة معًا، غالبًا من ٢٠ إلى ٢٥ ميلًا في اليوم. ومع ذلك، «تبقى الخطبة المفسوخة مع الطالب جرحًا مفتوحًا». ومع ذلك، «تتطور علاقة الحب مع ابن العم». وهكذا نعلم

> أنها تخطط هي وابن عمها للزواج. لكنها تتأرجح لمدة عامين آخرين بين ابن عمها والطالب الذي استأنفت العلاقة معه. ولم تنفصل عن الطالب نهائيًّا حتى عامها الثامن والعشرين، بعد لقاء آخر معه، وتزوجت من ابن عمها (ص ٢٤٧).

تتزوج من ابن عمها في الربيع. في الصيف تتوقف دورتها الشهرية. في الخريف،

> وهي في نزهة مع زوجها في حي منعزل، تصاب بنزيف حاد في البطن، رغم أنها يجب أن تستمر في المشي عدة ساعات أخرى. يجري الطبيب عملية كحت ويكتشف حدوث إجهاض (ص ٢٤٨).

في الثلاثين تكون أكثر نشاطًا في مجال الرعاية الاجتماعية من أي وقت مضى، لكنها تضعف في الشتاء التالي (وهي في الحادية والثلاثين). تتخلى عن رحلتيها اليوميتين مع زوجها.

في يونيو تعرضت «لانهيار» آخر، وبعد فترة وجيزة بدأت أول تحليل نفسي (في الثانية والثلاثين والنصف). وخلاله تشتاق إلى أمها (ص ٢٤٩).

ينتهي التحليل الأول (استمر من فبراير إلى أغسطس، من سن ٣٢ إلى ٣٣) «لأسباب خارجية». يفحصها طبيب ويحولها إلى عيادة جامعية. بعد الفحص هناك، عادت إلى المنزل في بداية أكتوبر مع زوجها ومربيتها العجوز. وليس من الواضح إن كانت هذه المربية العجوز هي المربية العجوز المذكورة سابقًا. بدأت في التحليل الثاني.

في السادس من أكتوبر، تركها زوجها ضد رغبته، بناءً على طلب المحلل (ص ٢٥٢).

لا نعرف ما كانت تتمناه بهذا الشأن. في ٨ أكتوبر يتم الإبلاغ عن محاولة انتحار. زوجها معها باستمرار بعد ٦ نوفمبر. في ٧ نوفمبر تسجل محاولة انتحار أخرى، وأخرى في ٨ نوفمبر وفي ١٠ نوفمبر وفي ١١ نوفمبر. في أوائل ديسمبر، شخصها كريبلين حالة ملنخوليا، وبعد ذلك بوقت قصير نصح طبيب آخر بإنهاء تحليلها، وحجزت في كروزلينجن، حيث ظهر بينسوانجر في الصورة لأول مرة.

قائمة حالات الفصل القسري المسجلة مثيرة. أمرها والدها بفسخ خطوبتها الأولى. «فسخت خطوبتها الثانية مؤقتًا» بتحريض من أبيها وأمها. انتهى تحليلها الأول «لأسباب خارجية». أمر محللها الثاني زوجها بتركها. أمرها طبيب نفسي بإنهاء تحليلها الثاني.

فيما يلي بعض المقتطفات الممثلة من سجل الحالة في كروزلينجن.

في أثناء مقابلة الحجز في المصحة في ١٤ يناير، بعد بضع كلمات، تنفجر المريضة في نُواحٍ صاخب، ولا يمكن إيقافها لفترة طويلة، لكن التقارير تقطع بشكل مفاجئ ومتقطع أجزاء من تاريخ حالتها. تتبع زوجها بسهولة إلى غرفتها وهي سعيدة لأنها ستتاح لها الفرصة في الحال للحديث عن تفاصيل مرضها (ص ٢٦٢).

ولأن كل شيء يعتمد الآن على وصولنا إلى تشخيص نهائي، طلبْتُ من المريضة وزوجها تقريرًا طبيًّا دقيقًا عن تاريخها المرضي، وهي عملية تهدئ المريضة بشكل واضح (ص ٢٦٢-٣).

لأسباب علاجية لم يتم تحليل أحلامها (ص ٢٦٣).

من السهل جدًّا على زوجها إقامة علاقة معها، ليس فقط حين تكون نصف نائمة ولكن حين تكون نائمة تمامًا (ص ٢٦٤).

لا يستخدم بينسوانجر كلمة «علاقة rapport»

بالمعنى المعتاد للعلاقة الوثيقة والمتناغمة ولكن في حالة الاتصال الخاص بين المنوِّم المغناطيسي والمنوَّم. في علاقة التنويم المغناطيسي يستجيب المنوَّم بدون الاستيقاظ لأسئلة المنوِّم المغناطيسي وأوامره. يمكن استخدام المصطلح في هذه المرحلة للإشارة إلى مدى تأثير الزوج على إيلين (ص ٢٦٤).

حتى الآن كانت دورتها الشهرية مقطوعة لأربع سنوات ونصف. تم «إيقاف» الجماع ثلاث سنوات. قبل ذلك كان «طبيعيًّا». في أثناء

هذه الأحداث الدرامية المحبطة وبينها، قامت بثماني «إيماءات» انتحارية.

رتب بينسوانجر للاستشارة مع يوجين بلولر وطبيب نفسي آخر.

كانت خلفية هذه الاستشارة أنه نظرًا لخطر الانتحار، لم يُسمح لها بالدخول في عنبر مفتوح. وبالتالي عرض بينسوانجر على زوجها البديل: الإذن بنقل زوجته إلى عنبر مغلق؛ أو أن يغادر معها.

رأى الزوج العقلاني أن هذا الأمر رائع، لكنه قال إنه لا يمكنه منح الإذن إلا إذا وعده بعلاج أو على الأقل بتحسن بعيد المدى لزوجته.

ولأن تشخيص بينسوانجر كان ذهانًا فصاميًّا متطورًا (فصامًا بسيطًا)، لم يكن بإمكانه أن يقدم للزوج سوى أمل ضئيل.

إذا كان العلاج بالصدمة موجودًا في ذلك الوقت، لقدم طريقة مؤقتة للخروج من المعضلة... لكنه بالتأكيد لن يغير شيئًا في النتيجة النهائية، حيث كان من الواضح أن الخروج من المؤسسة يعني انتحارًا معينًا (ص ٢٦٦).

كان محللها الأول قد شك في هستيريا. وأعلن محللها الثاني أنها حالة عصابية وسواسية شديدة مع تذبذبات الهوس الاكتئابي. وكان كريبلين نفسه قد شخَّص ملنخوليا فقط. يمكن للطبيب النفسي الآخر أن يجد الوهن النفسي فقط. فقط بينسوانجر وبلولر مع رؤيتهما الرئيسية يمكنهما رؤية الحقيقة التي كشف عنها جشطالت المريضة: الفصام.

بالنسبة لبلولر، المرجع النهائي في التشخيص الذي ابتكره بنفسه، كان التشخيص غير قابل للشك. حسم الأمر.

ولأنها حالة ميؤوس منها تقريبًا على أي حال (قد تحدث المعجزات أحيانًا) فقد استجابوا لطلب المريضة بالخروج. «أخرجوها». شعرت المريضة بالارتياح وأعلنت أنها ستنتهي الآن، وبيدها، بالرغم من أنها لا تزال عاجزة عن السيطرة على معضلاتها بشأن الأكل.

ذهبت إلى البيت. لكنها لم تستطع التعامل مع الحياة. لم تخف التوترات.

أدى لم الشمل مع أقاربها إلى ظهور مرضها بشكل أوضح. بعد ثلاثة أيام في البيت، بدا وكأنها تغيرت. في وجبة الإفطار، أكلت الزبدة والسكر. عند الظهر أكلت ملء بطنها لأول مرة منذ ثلاثة عشر عامًا. بعد الظهر، شربت القهوة، وأكلت كريمة الشوكولاتة وبيض عيد الفصح. مشت مع زوجها. قرأت **قصائد** (هذا هو المكان الذي نشعر فيه أن المقطع الختامي يبدأ)، من تأليف ستورم وجوته وتنيسون. تستمتع بمارك توين. يبدو أن كل الهم يتراجع عنها. تكتب رسائل. في المساء تأخذ السم. في الصباح تكون ميتة. بدت وكأنها لم تنظر قَط إلى الحياة، هادئة وسعيدة ومسالمة.

يؤكد لنا بينسوانجر فيما لا يقل عن سبع عشرة مناسبة، في سياق دراسته، أن انتحارها لم يكن «حقيقيًّا» بالنسبة لها بل بالنسبة للجشطالت الوجودي لها.

يميز بينسوانجر بين ما أسماه طرق الحياة الفردية والجماعية. وهذان المصطلحان ليس لهما معنى إحصائي. إنهما يهدفان إلى وصف مختلف الطرق التي نتواصل بها مع أنفسنا ومع إخواننا من البشر. يجب

ألا يعتبر تحليل وجودنا في العالم الفرد الواحد الوحدة الأساسية. إنه لا يرضى بتحليل هايدجر في «الوجود والزمن». ويرى أن تفسير هايدجر للحالة الإنسانية كثيرًا ما يتناول الإنسان في صيغة المفرد أو الجمع ويصف الاحتمالات المسدودة للعزلة البطولية من جهة، أو في صيغة الجمع، نسيان الذات في التغافل عن الأرقام من الجهة الأخرى. على عكس كليهما، يجب أن تكون نقطة البداية الصحيحة ثنائية الحب. في الصداقة، أو الحب، يبدو العالم مختلفًا. لم يعد الفرد الواحد المفرد يواجه موته ببطولة. كما أنها ليست في الأساس لعبة ربح أو خسارة محصلتها صفر. في «صيغة الجمع»، يكون الآخر وسيلة لتحقيق غاية المرء. في الصيغة الثنائية، يكون الآخر مساويًا. في صيغة المفرد والجمع، يستولي المرء على الآخر أو يلتهمه أو ينبذه. ويقتصر اهتمام المرء على أجزاء منه أو منها أو منهم. علاقة المرء بنفسه ناقصة بالقدر نفسه. لا يوجد حب أو رعاية أو اهتمام حقيقي، لكن كل شيء مصدر قلق. حطام القرابة البشرية بصيغة المفرد والجمع نتيجة نهائية من الرعب والهلع العاري. وهذا الاحتمال الإنساني أساسًا هو عدم وجود أي رابطة ثنائية بين الذات والذات وبين الذات والآخر، والآخرين. لا أستطيع أن أساعد نفسي. لا أستطيع فهم شخص آخر. لا أحد يستطيع فهمي. لا أتخذ أي مواقف، ولا أشعر بما أنا عليه، ومن أين أتيت، ولا إلى أين أذهب. أخيرًا، لا توجد بنية تجنبني الرهبة البشعة، وهي رهبة بلا حدود ولا يمكن وصفها.

في ضوء هذه الانعكاسات النظرية، من المدهش أن يكتب بينسوانجر، في حالة إيلين ويست، أن الظروف كانت مواتية بشكل

خاص للتحليل الوجودي، لمجرد أنه لم يكن يعرفها شخصيًّا. أفضل من ذلك، تحت تصرفه مواد مكتوبة وفيرة. عادة، في مثل هذه الحالات من الفصام المتدهور، لا يمكن الحصول على المواد اللازمة للتحليل الوجودي إلا بالاستكشاف المستمر والمنتظم للمرضى على مدى شهور وسنوات. ومن الواضح أن محاولة إقامة علاقة «ثنائية» مع هؤلاء المرضى ليست إلا مضيعة للوقت. في حالتها، لديه صفحات وصفحات من المواد المفيدة. يمكن أن يفردها أمامه، دفعة واحدة، وينظر إليها. لا داعي لقضاء الوقت في وجود شخص يكون وجوده في العالم مؤسفًا وبائسًا تمامًا. الجشطالت الوجودي الذي هو إيلين ويست عاجز عن «الارتباط». تجسد دراسته بالضبط ما يهاجمه.

يتبين أن نظرته «الوجودية» مزيد من التعقيد للنظرة التشخيصية النفسية الموضوعية مموَّهة ومموِّهة الشخصية، التي يحاول أن يريح نفسه منها.

شعاره هو

> ... العودة من النظرية إلى ذلك الوصف الدقيق للظواهر التي صارت ممكنة اليوم بالوسائل العلمية المتاحة لنا (ص ٣٤٢).

ماذا يقصد بالوسائل العلمية المتاحة لنا؟ من المؤكد أن «الوجود Dasein»، وفقًا لتعليم معلمه هايدجر، آخر «شيء» على وجه الأرض يمكن أن يكون «موضوعًا» محتملًا.

عند الانجذاب إلى هذا الخطاب حول جثتها، قد ننسى تقريبًا أن نسأل عما عليها أن تقوله.

تكتب أن الخوف يقودها إلى الجنون. إنها تخشى أن تفقد القلب والشجاعة، والتمرد، وكل دافع للقيام بذلك. إنها تخشى أن تصبح مترهلة وجبانة ومتسولة مثل الآخرين.

تقول لنا إنها تجلس في كرة زجاجية. ترى الناس من خلالها. تصرخ، لكن لا أحد يسمعها.

إنها مقيدة

> ... بالسلاسل الحديدية للحياة العامة، والأعراف، والممتلكات، والراحة، والامتنان، والاهتمام والحب. نعم، إنه ما يقيدني، ويمنعني من الانتعاش العاصف، ومن الانغماس الكامل في عالم النضال والتضحية الذي تتوق إليه روحي كلها. يا الله، الرهبة تقودني للجنون! الرهبة مؤكدة تقريبًا! الوعي بأنني في النهاية سأفقد كل شيء: كل شجاعة، كل تمرد، كل دافع للفعل؛ هذا هو -عالمي الصغير- سيجعلني مترهلة، مترهلة وجبانة ومتسولة، مثلهم (ص ٢٤٣).

يا له من أمر غريب وشرير! يا له من أمر لا يمكن تصوره! إن بينسوانجر وغيره من الخبراء في الأشخاص الذين لا يمكن تصورهم، يستمرون في التمتع بسلطة دفنهم أحياء والصراخ في قبر كلماتهم. الصراخ ليس سوى أعراض الهستيريا. الهلع علامة على جنون العظمة. تكشف هزيمتهم عن افتقارهم الجيني للألياف الأخلاقية. ضعفهم وهن نفسي. يظهر الجشطالت الوجودي، مثل برجك في الاتجاه المعاكس، الكشف عن علة فصامية كان مقدرًا لها تدميرها. الفتاة الصغيرة الثرية المسكينة.

الفصل الرابع

احتمال الخبرة

- ١ -

الإدراك لا يحترم حدود المصداقية العلمية. أقل ما يمكن موضوعيًّا قد يكون حقيقيًّا تمامًا من منظور الذاتية. إذا كان الشخص برأيين، فهو يعاني أزمة نفسية. لا توجد أزمة من هذا القبيل ما دام أن المرء بقي غير مقتنع بأي شيء ليس حقيقة موضوعية، أو، من الناحية الأخرى، ليس لديه مشكلة في التخلص من أي حقائق موضوعية لا تتناسب مع ما يشعر به أو يرغب في الشعور به.

حين نعود إلى أذهاننا العادية بإدراك مستمد من حالة ذهنية معدلة ومتحولة، نحكم على عمليات إدراك التحولات والتعديلات في الحالة المتغيرة، بقدر ما نذكرها الآن بشكل ناقص، بالتسلسل الهرمي العادي للمصداقية. ومع ذلك، أحيانًا يستمر **تحويل** المصداقية، وهو ما يحدث غالبًا في الحالة المتغيرة، إلى الحالة العادية بدون ذلك. ثم هناك الصراع بين قناعتين متعارضتين.

ولكن حتى الخبرة اليومية العادية تتخطى حدودنا بين الممكن/ المستحيل، الواقعي/ غير الواقعي، الداخلي/ الخارجي، هنا/ هناك،

الآن/ حينذاك، الفاعل/ المفعول، الوهم/ الواقع، طول الوقت. غالبًا ما نضطر إلى الاعتراف بأن ما لا يمكن أن يكون، يجب أن يكون، فقط لأنه كائن.

نجد أنفسنا جميعًا في عالم نضم بداخله تقديرنا له، وما يشير إليه، وما يدل عليه وما نعتبره مصدره. إننا نؤول ونفسر ما نحن عليه في ضوء النور أو الظلام الذي نحن فيه، والذي لا يمكننا الخروج منه أبدًا.

كل عوالمنا تضمنا. العالم الذي أعيش فيه يضمني، بما في ذلك المعنى أو الافتقار إلى المعنى الذي يحمله لي أو أحمله له.

كنا جميعًا بويضات ملقحة وأجنة ورضعًا وأطفالًا. كلنا ذاهبون، بطريقة أو بأخرى. هل نعيش في عوالم لا نهاية لها داخل أجسام بشرية وخارجها؟ أم أننا موجودون فقط بين الولادة والموت، بعض الوقت، إذا كنا محظوظين؟

- ٢ -

لنفترض أننا نحصر أنفسنا في تلك الجوانب من العالم التي ليس لها وجود موضوعي، وهي خارج نطاق علم موضوعي. بدون الاستفادة من التحقق الموضوعي، نكون عرضة مع ذلك للرغبة في تقرير ما إذا كان، أيًّا كان

مرغوبًا فيه	أو	غير مرغوب فيه
حقيقيًّا	أو	زائفًا
ينبغي تكراره	أو	لا ينبغي تكراره
صوابًا	أو	خطأً
جيدًا	أو	سيئًا
جميلا	أو	مقرفًا
كاشفًا	أو	مخبئًا
مفيدًا	أو	عديم الفائدة
صالحًا	أو	غير صالح
وظيفيًّا	أو	مختل الوظيفة
يجعل المرء يشعر بتحسن	أو	يجعل المرء يشعر بسوء
مفيدًا	أو	ضارًّا
نعمة	أو	مصيبة
بركة	أو	نقمة
جادًّا	أو	تافهًا
يستحق العناء	أو	مضيعة للوقت
شريفًا	أو	حقيرًا
يستحق الترحيب	أو	بغيضًا
محتملا	أو	لا يطاق
مواسيًا	أو	مفزعًا
مشجعًا	أو	محبطا
حكاية تروى	أو	تحفظ سرًّا

لا توجد طريقة لمعرفة ما هو معتاد أو غير عادي باستثناء استمتاع الناس. لا توجد بيانات معيارية عن الهلوسة أو الرؤى أو النقل أو أي شيء من هذا القبيل. انطباعي الخاص أنه لا يكاد يوجد أي شخص أعرفه لم يشم على الأقل نفحة من الهلوسة. لكن لا يفترض أن تكون الهلوسة طبيعية هذه الأيام، ويريد معظم الناس أن يكونوا طبيعيين، أو على الأقل أن يظهروا كذلك، لذا فإن معظم الناس (بحق، من وجهة نظر الحكمة الاجتماعية) يكشفون هذه الأمور بأكبر قدر من التكتم.

سننظر في الأشكال والتحولات، والأنماط والتعديلات والنكوص والتقدم والتراجع والانعكاسات والتجاوزات والتكثيف، التي قد يظهر أي منها (معًا أو منفصلًا) في أي مجموعة.

من المعروف أن التحولات التجريبية تحدث تحت تأثير بعض المخدرات وأدوية التخدير، وفي الحمى والتسمم وأمراض الجهاز العصبي، وفي بيئات الحرمان الحسي، والتأمل، وتحت الضغط الشديد، والأكثر شيوعًا، في أكثر الظروف العادية ظاهريًّا، من دون سبب مؤكد.

- ٣ -

يستثني العلم الموضوعي وتفرعاته وهجينه في الطب والطب النفسي والتكنولوجيا عمومًا كل هذا من بؤرة اهتمامه. بقدر ما تمضي هذه الاستراتيجية بحد ذاتها، لدينا الكثير مما نمتن له. ستنهار طريقة حياتنا كلها بدونها. في الوقت نفسه، قد تنهار معها. إذا حدثت الخبرة عمليًّا، فيجب أن تكون ممكنة نظريًّا.

أي شيء يتعدى حدود مجموعة من الاحتمالات مستحيل بحكم الواقع. يجب تفسيره بأنه مستحيل، واعتباره مستحيلًا من داخل المجموعة، ومن خارج المجموعة أيضًا. يمكن أن يكون الوضع الوحيد لوجوده مجرد إسقاط. من المستحيلات اللا نهائية أن نعتقد أن أحدها قد يدمر العالم. هناك روابط بيننا، وأحداث كثيرة، نلمحها بالكاد، وهناك عدد لا يحصى من الروابط الأخرى التي لم يكن لدينا أدنى فكرة عنها.

حتى بأبسط المصطلحات، ترتبط حياتنا وأحداثنا بعدد لا نعرفه من الطرق وأنواع الطرق التي لا نعرفها. نكون في ظلمة أشد حين يتعلق الأمر بالتحديق في كيفية ارتباط هذه **الأنواع** المختلفة من الارتباطات. هناك ارتباطات موضوعية لا نربطها بالارتباطات التي ندركها والعكس صحيح. في الحالتين **يجب** أن تكون مرتبطة لأنها مرتبطة. هناك أوجه تشابه داخل الاختلافات لا يمكن أن تكون عشوائية، ومع ذلك لا يمكن تفسيرها حتى الآن.

سواء كنا نتحدث عن ارتباطات عارضة أو ذات مغزى أو ارتباطات إحصائية، بشكل حدسي، نعلم أن جميع الارتباطات وأنواع الارتباطات متشابكة كلها في النسيج الديناميكي لكون واحد. لكن تفكيرنا عاجز عن سد الهوة بينه وبين حدسنا. ربما تكون هذه الهوة وهذا العجز هما اللذان قد يولِّدان فينا تواضعًا صحيًّا. تتأثر عقولنا حين نفكر في التناقض الهائل والمدهش والرائع بين ما يحدث فينا وبيننا وحولنا وقدرتنا على تصوره. إننا نتعثر بحثًا عن استعارات ونماذج أقل تشابهًا مع عمليات الواقع من الكلب النابح الذي يشبه نجم الكلب[1]، أو عواء ذئب يشبه القمر.

كان كل شيء آلة بالأمس. إنه شيء ما يشبه صورة مجسمة اليوم. من يدري أي حشرجة فكرية نهزها غدًا لكومة هلعنا من الفراغ في فهمنا لتفسيرات علاقاتنا التي لا معنى لها؟

النبضات الكونية، والإيقاعات الحيوية، والتناغم المتزامن لكل ذلك، والمراسلات المحيرة أو حتى هوية الأشكال الأساسية في الرياضيات والمادة، وما إلى ذلك، تذكِّرنا بأننا لا يمكن أن نتوقع القبض على ما يبقينا في قبضته.

لا نحتاج إلى الذهاب إلى الذرات والنجوم لنرتبك. إن الأحداث العادية جدًّا في العالم الإنساني العادي تتجاوز فهمنا. يمكن أن نرى أن أقدارنا الفردية تتشابك وتتداخل، وأن الآخرين يظهرون في أحلامنا وأعمالنا الدرامية ونحن نلعب أدوارنا التي ربما لا يمكن التعرف عليها

(١) نجم الكلب **dog star**: لقب الشعرى اليمانية. (المترجم).

في أحلام ودراما من تختلط حيواتنا معهم. من يجرؤ على الادعاء بفهم ألغاز «تولد الأحداث وتشابهها»؟ قد نشعر أن كل الأعمال الدرامية جزء من دراما واحدة. لكن لماذا يكون هذا بهذا الشكل، وكيف؟ أو، إذا لم يكن كذلك، فلماذا وكيف ينشأ هذا الوهم؟ أسئلة يمكن أن نطرحها، لكن لا يمكن أن نجيب عليها. إن تصور الإجابات التي يمكن تصورها أبعد من أبعد حدود تخيلنا.

تظهر أنماط مماثلة على جوانب مختلفة من خلجان عالمنا وهواته. لا يبدو أننا قادرون على تفسير الإيقاعات المتزامنة وغير المتزامنة المستمرة للأشكال النشطة القابلة للمقارنة، وإن كانت غير متصلة على ما يبدو. يشهد هذا الترابط والتماسك والتعايش الذي لا يمكن تفسيره، بالنسبة للبعض، على ضرورة افتراض وجود تماسك أعمق وراء الكون الظاهر.

ويدل، بالنسبة لآخرين، على عكس ذلك تمامًا. يبدو أن طبيعة طبيعتنا، بقدر ما ندرك أنفسنا بشكل خافت، شرط كافٍ لاستحالة قدرتنا على التكهن بحالة إمكانيتنا وحدودها وبإمكانيتنا عمومًا. هل هذا هو الاعتراف البسيط بمكاننا في المخطط العام، رؤية صوفية، خرافة عميقة؟ هل الإرث المشترك الأصلي والنهائي مفترض بالضرورة في نظرية متماسكة للكون؟

إن انقسامنا الحالي والمفاوضات المشتركة بين الذاتية والموضوعية تتولد عن عمليات لا يمكن فهم أي منها. هذه العمليات ليست أحداثًا ذاتية أو موضوعية. إن مصدر الروابط التي نبتكرها بين الذات والآخر،

والانطباعات والأفكار، والحدس والعقول، والأشياء الداخلية والخارجية، والأحداث التي تحدث بين أيٍّ منها أو بينها كلها، لا تُعطى مباشرةً فيما نعرفه من أشكال ومحتوى. وذلك حيث لا يمكن العثور على محتوى أنظمة الشكل، بقدر ما يمكن أن أتخيل، في المحتوى الشكلي الذي تولَّد. ولكن، بدءًا من النمط الذي نواجهه، يمكن أن نتخيل وظيفة تولد أنماطًا، مع تعبيرات في كل جانب من جوانب وجودنا: الجينات، والأجنة، والأدمغة، والنفس، من الحمل عبر الولادة والموت.

العمليات التي تولِّد الأشكال التي نجدها بالتساوي خارج أنفسنا وداخلها تتجاوز الفروق التي تولِّدها. وهذا التجاوز من جوهر الواقع، وهو تجاوز مستمر للعلم والخبرة، والفروق التي نفرضها بالرأس أو القلب. ألقينا شباكنا على المياه لكننا لا نتوقع أن تصطاد البحر. الشبكة ليست البحر، الخريطة ليست المقاطعة، وقائمة الطعام ليست الوجبة، إلخ.

- ٤ -

لا يقتصر الأمر على أن بعض الخبرات الغريبة، الذهانية، العابرة للشخصية، الخارقة، الناكصة regressive، التناسخية، التي تحدث في غير موضعها[١] تتجاوز حدود الإمكانية العلمية. غالبًا ما يفضح العلم خبرتنا، والخبرة نفسها فضيحة علمية. كل منهما يخالف كل قواعد الآخر! لن نتجاهل أي حقائق موضوعية ولن نتجاهل العالم الإنساني العادي باعتباره أمرًا شاذًّا، كما يعاش في صورة ما أو شكل ما في جميع أنحاء العالم. لا يقدِّم أي من هذه البدائل طريقة للتوفيق بين عالم الحس والإحساس الصادق، والقيمة والجودة والتصميم والرغبات والأفراح والمحن، وبين العالم المجرد، الذي تَطهَّر من كل الحواس.

لم يسلم العقل الموضوعي بعدُ بأي تفسير علمي لأي خبرة من أي نوع أو خبرة بهذا الشكل. وجودها بحد ذاته يهزم فهمنا.

تحدث أحداث كثيرة، وروابط بين الأحداث، في خبرتنا، حيث لا يوجد ارتباط موضوعي لمثل هذه الأحداث، أو الروابط بينها، وربما حتى لا يبحث عنها. وربما لا يمكن تخيل مثل هذه الروابط أو إمكانية وجودها أو تصورها في توجه موضوعي مطلق.

---

(١) أعني الخبرات التي يذكر أنها تحدث في أوقات وأماكن، وتكون مستحيلة من وجهة النظر العلمية الموضوعية. وتتضمن الخبرات التي في غير موضعها التي نتناولها في هذا الكتاب الخبرات المزعومة في عصور أخرى، بين الحياة قبل الولادة، تحت التخدير العميق، والوفاة.

وعلينا ببساطة أن نعترف أحيانًا، بطريقة ما، أن ما لا نستطيع تفسيره أو فهمه لا يكف بالتأكيد عن الوجود، لأننا لا نستطيع أن نفهم كيف يوجد أو لماذا ينبغي أن يوجد.

قد لا يكون للوجود معنى موضوعي، لكنه لا يعني العدم، وإلا فإن المعنى لا يعني شيئًا. ولا الخبرة تعني شيئًا.

من المستحيل احتواء ما يحتوينا. ولا يمكن أن نتجاوز ما يتجاوزنا. لكن من الممكن أن نتعلم قبول وجود ما لا يمكن أن نفسره أو نفهمه أو حتى نصدقه.

أبسط الحركات، التسلسل المتماسك والمنظم لأبسط تصرف عقلي أو عاطفي أو جسدي يتحدى التصوير أو الوصف المناسب. من الغريب أن يكون الأقرب إلينا غير مألوف وصعب النقل إلى هذا الحد.

هذا العالم الغريب والمألوف يغلفنا جميعًا. سواء كنا علماء أو شعراء أو حالمين أو غير ذلك، لا يمكننا منعه من تقديم نفسه لنا باستمرار، وإرباكنا بإلهامه العادي الذي لا يُكشَف خلال الإلهام الاستثنائي للرياضيات أو الحالات الصوفية أو الرؤى أو الفيزياء. يجد العلم وقتًا لعالمنا العادي فقط لإيجاد طرق أكثر دقة وفعالية لاستبعاده. لم تُسمَع شهادته في خطاب العلم.

العالم العادي مربك علميًّا بما يكفي، بدون تحولاته وتعديلاته، حين يتغير الشكل والمضمون بعيدًا عن كل إدراك، بدون كل تلك الرؤى التي لا تصدق، ذكريات التناسخ، وأوقات قبل الولادة وبعد الموت. الإدراك الذي لا يمكن أن يكون صحيحًا، الذي لا يغير شيئًا،

بشكل موضوعي، ولا يتغير أي شيء موضوعي، يغير حياتنا -حتى بشكل موضوعي.

وهكذا، فإن الخبرة العادية، بجانب أكثر الخبرات التي خضعت للتعديل والتحويل بشكل غريب (عبر الشخصية، إدراك ما يتجاوز الحسي، عند الموت، بعد الموت، عند الولادة، قبل الولادة، في أشكال التجسيد السابقة وبينها، وحشود من البهجة، والنشوة، والإضاءات، والأصوات، والزيارات، والانتقالات، وكل العوالم الأخرى، تغير هذا العالم)، ألقاها العلم في سلة المهملات.

– ٥ –

في تصوير بعض هذه التحولات ووصفها، أود تمهيد الطريق للحديث عن شكلها ووظيفتها.

إن انتظام عالمنا الحي وتقلبه وقوانين الفيزياء التي نستخلصها من كثافة واقعه تتداخل إلى حد ما. ويبدو أن ما تخبرنا به الحياة أو تعلمنا إياه لا علاقة له غالبًا بما تكشفه العلوم الطبيعية.

من وجهة النظر العلمية، يصعب تخيل وظيفة يجب نسبتها لقدر كبير من الخبرة. ويصعب جدًّا رؤية أي فائدة في خبرات كثيرة، ناهيك عن رؤية أي فائدة في أنواع التكوين والتشكيل الارتدادية المتنحية المكثفة المتجاوزة التي نراجعها هنا. ومع ذلك، فهي ليست مجرد رقصات دائرية بحد ذاتها، ولكنها قد تبدو حاسمة في مجمل حياة شخص ما.

بقدر ما نعلم، أحيط الجنس البشري دائمًا بنسخ لعوالم لا نعيش فيها الآن. العالم البدائي الروحاني السحري الذي ننسبه غالبًا للأطفال والمجانين والهمج وأسلافنا (ويميل الرجال إلى إلصاقه بالنساء) نتاج أذهاننا أكثر من أي شيء، إنه إسقاط لخيالنا. وقد يكون خيالنا صحيحًا. أساطيرنا غامضة بالنسبة لنا لأننا في وسطها. إنها تغلفنا. إننا محاصرون، كما كان الحال مع أسلافنا، في دراما لا يمكننا الخروج منها للنظر إليها أو تجاوزها. هنا، ليس لدينا أدوات لتجاوز حدود إمكانياتنا. يبدو أن عالم البشر يسكنه وسكنه في كل مكان ودائمًا شياطين وأرواح أكثر مما يسكنه بشر من لحم ودم. هل لهذه الأوهام والهلوسة قيمة لبقائنا أحياء؟

- ٦ -

يبدو أن الجنس البشري قادر على ترتيب الكون بطرق متنوعة لا يمكن تحديدها.

وقد شيد عوالم عديدة وعاش فيها.

يمكن أن نتخيل أحيانًا أن كل عوالمنا اختلافات في تيمة، مشتركة بين الجميع، لكنها تكمن في تنوعاتها ولا يمكن سماعها إلا من خلال تنوعاتها، وعالمنا المعاصر أحد هذه العوالم.

وقد طور جوليان جينز[١] (١٩٧٦) فكرة أن نظامنا العصبي، من حيث الشكل والوظيفة، خضع للارتباط الشرطي في وقت أقدم وأعمق مما كان يُفترض عمومًا. يقترح أن التاريخ التطوري المبكر لنا يؤثر على كيفية تنظيم الدماغ. ويشير إلى أن مثل هذه الفكرة بدت بعيدة إلى أن أدى «المد المتزايد للبحث... إلى تآكل أي مفهوم جامد للدماغ» (ص ١٢٤).

ويعتقد أن الأسلوب الحالي في هيمنة اليد اليمنى والنصف الأيسر من الدماغ لم يكن كذلك، من الإنسان الميزوليتي[٢]، إلى هوميروس والعهد القديم.

---

(١) جينز **Jaynes** (١٩٢٠-١٩٩٧): باحث أمريكي في علم النفس بجامعة ييل وبرينستون لما يقرب من ٢٥ عامًا. (المترجم).

(٢) الميزوليتي **Mesolithic**: نسبة للجزء الأوسط من العصر الحجري، بين العصر الحجري القديم والحجري الحديث. (المترجم).

تأملْ، من نصوصنا الأولى، مسألة سماع الأصوات. يبدو أن المعتاد كان سماع أصوات من وقت لآخر. هناك علاقة مبدئية بين النصف الأيمن من المخ والهلوسات السمعية.

هل يمكن أن تساعدنا خبرة الفصام المعاصرة في فهم الإنسان الميزوليتي؟

يقترح جينز أن «الهلوسات الفصامية تشبه إرشادات الآلهة في العصور القديمة» وأن «الإجهاد مثيرها الفسيولوجي المشترك» (ص ٩٩).

> وهكذا يهلوس أخيل، الذي صده أجاممنون، تحت ضغوط البحر الرمادي لاتخاذ القرار، بأن ثيتيس تخرج من الضباب. وهكذا يهلوس هيكتور في المعاناة من ضغوط اتخاذ قرار بالخروج من أسوار طروادة لمحاربة أخيل أو البقاء بداخلها، بالصوت الذي يخبره بالخروج. ينهي الصوت الإلهي ضغوط القرار قبل أن يصل إلى مستوى كبير. لو كان أخيل أو هيكتور مديرين تنفيذيين حديثين، ويعيشان في ثقافة قمعت آلهتهما التي تخفف من التوتر، لكانا أيضًا قد جمعا نصيبهما من أمراضنا الجسدية النفسية (ص ٩٤).

هل كان أخيل وهيكتور يسمعان أصواتًا من منطقة فرنيك في النصف الأيمن من المخ؟ يمكن أن يكون للنصف الأيمن من المخ وظيفة «دمج الخبرة التحذيرية»، وقد تكون إثارة منطقة فرنيك في النصف الأيمن من المخ سببًا «لأصوات الآلهة».

إنه يتخيل مجتمعات تحكمها أوامر توارد أفكار من أصوات هلوسة. ويطلب منا الآن من يرغبون في التخلص من مثل هذه الأمور المربكة مرة واحدة إلى الأبد، أن نستشير أدمغتنا باعتبارها وَحْينا.

- ٧ -

افترض أن أدمغتنا تنظم عقولنا. دعنا ننظم ما ينظمنا. الدماغ الذي نرغب في تنظيمه ينظم الفكرة والقدرة على التنظيم. أدمغة من تنظم أدمغة من؟ عقول من تنظمها أدمغة من وتحدد أي الأدمغة هي الأفضل وأيها الأسوأ؟ أدمغة من تتحكم في عقول من؟

بشكل موضوعي، يُدفَع المرء إلى استنتاج أن الأدمغة المختلفة تقدم قصصًا مختلفة، بما في ذلك قصة أدمغتنا. تنقل أدمغتنا مفاهيمنا عن الأدمغة. ومع ذلك، فإن حكمنا ليس نسيجًا عصبيًّا، وهو يُمنَح لحكمنا، وليس نسيجنا العصبي، بطريقة لا يمكن علاجها، للحكم على أدمغة تنقل لنا أفضل الأحكام. حتى لو رأينا أن حكمنا يتطلب أحداثًا فيزيائية عصبية، فإن هذه الأحداث الفيزيائية العصبية لا يمكن أن تخبرنا بحد ذاتها بما إن كان هذا الحكم صحيحًا، أو إن كان لنا الحق في التحكم في الأدمغة التي يسيطر عليها النصف الأيمن من المخ أو تدميره جزئيًّا، الذي يولد الانطباعات والأفكار، وبالتالي، تتراجع عقولنا التي يهيمن عليها النصف الأيسر من المخ عن الشر بشكل لا يمكن تصوره.

من العبث التعامل مع الأدمغة على أنها الحقائق الموضوعية الوحيدة في العالم الذي يفترض أنها استحضرته، لأن الأدمغة التي ننظر إليها ونلمسها ونفحصها ونطبقها، هي نفسها أجزاء من العالم الذي يفترض أنها استحضرته. ومع ذلك، هناك ميل مستمر للتعامل مع

الأدمغة على أساس المبادئ الموضوعية، والعالم الذي يقال إنها تولده بناءً على المبادئ الذاتية (Whitehead, 1967).

يبقى الوضع الآن بشكل أساسي كما ذكره أدريان قبل أكثر من خمسين عامًا في عام ١٩٢٧ (Adrian, 1949):

> ... إن مشكلة العلاقة بين الدماغ والعقل تحير عالم وظائف الأعضاء بقدر ما تحير الفيلسوف. وربما تفسر مراجعة متطرفة لأنظمتنا المعرفية كيف يمكن لنمط من النبضات العصبية أن يتسبب في فكرة، أو يُظهر أن الحدثين هما في الحقيقة شيء واحد نُظِر إليه من منظور مختلف. إذا تمت مثل هذه المراجعة، لا يسعني إلا أن أتمنى أن أتمكن من فهمها (ص ٦).

- ٨ -

المستحيل لا يمكن أن يتحقق. ليس من الممكن دائمًا التأكد مما هو مستحيل. ومعظم معرفة المستحيل مستحيلة غالبًا.

ما حدود ما يمكن أن نختبره؟ ما الذي يمكن أو لا يمكن أن يَختبِر أو يُختبَر؟ وإذا كان لا يمكن، فلماذا؟ متى تكون الخبرة ممكنة؟ عند الموت، بعد الموت، قبل التجسد، عند التجسد، قبل الولادة، عند الولادة؟ متى نكون بلا وعي بعمق؟ ما الشروط اللازمة للخبرة؟ حين تكون الخبرة غير عادية أو غريبة الشكل أو المحتوى، أسميها ميتانويد[1]. وحين تحدث فيما تعتبره ثقافتنا عمومًا في غير محله (على سبيل المثال، قبل الولادة بوقت طويل، وبعد الموت، تحت تأثير التخدير) أسميها في غير موضعها. وحين تتجاوز الحدود الموضوعية الحالية للإمكانية (على سبيل المثال، ما وراء الشخصية، في غير موضعها) أسميها متجاوِزة transgressive**. وهناك خبرات كثيرة تمثل الثلاثة كلها.**

أين يمكن للمرء أن يرسم الخط الفاصل بين الممكن والمستحيل، إن وجد؟ لماذا يرسم المرء هذا الخط، أو يتغاضى عن رسمه؟ متى يخطر ببالنا أنه يجب اتخاذ قرار بشأنه؟

قد تبدو الاحتمالية بعيدة بحيث تكون، كما يقول المرء، «مستحيلة عمليًّا».

---

(١) ميتانويد **metanoid**: من ميتانويا **metanoia**، وتعني التغيير في طريقة حياة المرء نتيجة التوبة أو الهداية. (المترجم).

كل احتمالية معقولة إلى حد ما، ومحتملة إلى حد ما. ربما يكون المرء قد فعلها، ربما حدثت أو لم تحدث، لكن من **الممكن** أن تكون قد حدثت، في أي موضع على منحنى مزدوج متقارب يمتد من الكل لكنه يتأكد في أبعد نقطة. بمجرد أن يصبح الشيء مستحيلًا تمامًا، تُمحَى كل معقولية واحتمال. لم يكن من الممكن أن يفعلوه، ولا يمكن أن يكون قد حدث. المستحيل أبعد من غير المعقول أو غير المحتمل. هناك أشياء كثيرة محتملة للغاية ومعقولة للغاية، لمجرد أنها ممكنة.

لا يمكن أن يحدث. ولذا لم يحدث. ولذا لا يمكن أن يحدث. ولذا لا يحدث.

هل يمكن أن تحدث الخبرات عند الموت وبعده، قبل الولادة وعندها؟ هل يمكن أن تتواصل الأمهات مع الأجنة، والأجنة مع الأجنة بالتخاطر؟ هل نعرف مقدمًا، a priori، أن هذا الشيء مستحيل؟ هل نعلم **بعد ذلك** من الخبرة أنه مستحيل؟ هل النسيج العصبي هو الشكل الوحيد للمادة التي تمارس الخبرة؟ هل هو شرط لا غنى عنه لأي شكل من أشكال الخبرة البشرية؟ هل الخبرة ممكنة بدون دماغ؟ إذا كان الأمر كذلك، فما وظيفة الدماغ؟

- ٩ -

في الخبرة ارتباطات كثيرة تطرح مشكلات عند نقطة الفحص بين الاحتمال والاستحالة. على سبيل المثال، تقول سيدة إنها حلمت بحلم جنينها وهو ابن ثلاثة أسابيع. هل هذا محتمل تمامًا؟ هل هو مستحيل تمامًا؟ وإذا كان، فلماذا؟ وإذا لم يكن، فلماذا لا يكون؟ هل من **الممكن** أن تحلم حلم طفلها، أم أنها **تمكنت** فقط من «تخيل» أنها حلمته؟

أو تحت التخدير؟ كيف يمكن أن نعرف إن كان يمحو كل الخبرات، أو إن كان يؤدي إلى فقدان الذاكرة، وهو ما لا يمنعنا من الشعور بالألم، لكنه يخلصنا منه، ميلي ثانية بعد ميلي ثانية؟ هل يمكن الشعور بما يسمى التخدير، وتسجيله، ومحوه، واستدعاؤه أحيانًا، كما يقول بعض الناس من خبرتهم الخاصة في التذكر؟ هل الاقتناع بصحة مثل هذا التذكر للخبرة تحت تأثير التخدير بالضرورة مزيج من الهذيان والهلوسة وفقدان الذاكرة؟ أم عند الموت؟ إنه ميت. إنه ليس هناك. هذه جثته. لاحقًا، أخبرنا أنه كان ينظر إلينا. هل هذا محتمل أم مستحيل؟

إن حصر رحلة الروح في بضع سنوات بين الولادة والموت فكرة غير عادية تمامًا. لا يزال الناس يعيشون في رحلات تأخذهم إلى حيوات أخرى وعوالم أخرى. ويزهو العلم بأنه يشعر بالقدرة على أن يقول: هذا كله **مستحيل**. إن الصدام بين ما يبدو أنه كذلك وما يبدو أنه لا يمكن أن يكون كذلك مشكلة قديمة صعبة على عقل الإنسان. وجهة النظر المادية في علم الأعصاب أن الحياة النفسية كلها تقتصر على مرحلة من

دورة حياة الإنسان يكون للإنسان فيها نظام عصبي يعمل بشكل كافٍ لتوليد حياة. بالضبط حين يعتبر ذلك بداية أو نهاية، يمكن ترك نقطة خلافية بدون زعزعة المقولة. لا يهم أساسًا إن كان يُعتقد أن الجهاز العصبي قد تطور بشكل كافٍ لدعم نوع ما من العمليات العقلية في ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر أو ثلاث سنوات. المبدأ ليس على المحك.

يروي كل الخبرات أشخاص أدمغتهم سليمة بما يكفي لروايتها: وهم سلماء بدرجة كافية لروايتها لأنهم رووها، وهو أمر يثير الفضول بدرجة كافية. يروي الأشخاص الذين لديهم مثل هذه الأدمغة خبرات يقولون إنهم مروا بها حين توقفت أدمغتهم عن العمل (كما هو الحال عند الموت) أو كانت تعمل بشكل ضئيل جدًّا (كما هو الحال تحت التخدير)، أو حين لم يكن هناك دماغ (كما هو الحال في شكل من أشكال الانتقال خارج الجسم): يحكون أحيانًا عن اتصالات مع مخلوقات ذكية أخرى بلا دماغ وبلا جسد، إلخ.

لا بد أن تتمسك نظرية الخبرة العصبية بأنه لا يمكن أن تحدث أي خبرة بدون نسيج عصبي. لا عقل، لا نفس. من ناحية أخرى، هناك قصص كثيرة تُروى عن مغامرات لأرواح تبدو بلا عقل في ساعات عمل الدماغ بشكل عادي. حتى الروح الغربية الحديثة لا تزال أحيانًا «تتذكر» التجسد والتناسخ، عوالم ما بعد الموت وما قبل الرحم.

- ١٠ -

وفقًا للفرضية العصبية عن العقل والنفس والروح، يكون الدماغ، وهو ينضج، بعد أسابيع قليلة من الحمل، عرضة لدرجة غير محددة للارتباط الشرطي بشكل لا شعوري. في مرحلة الرضاعة والطفولة، يصبح الدماغ ناضجًا ومبرمجًا بشكل كافٍ لتوليد الخبرة النفسية وتسجيلها واسترجاعها وإحيائها. أن ننسب أي خبرة نفسية لمخلوق، أو أي شيء، غير مجهز بدماغ يعمل بشكل كافٍ أمر عبثي لأنه مستحيل.

هناك جثة مستلقية لشخص. مات منذ ثلاثين دقيقة. يبدأ التنفس. ويبدأ القلب في الخفقان. تتحرك العينان. **يتطلع**. في النهاية، أفاد أنه حين استلقى هناك، ترك جسده، وقد عاد الآن.

ومن المؤكد أن التفكير في احتمال حدوث الرؤى أو الانتقالات حين لا يعمل الدماغ لا يمكن أن يكون فرضية علمية. إنه يسحب المصداقية الكاملة من عقيدة استحالتها. ويهتز استقرار النظرة العامة إلى العالم. وإذا كنا على يقين من أننا وخبرتنا نتاج أدمغتنا، فعلينا أن نقاوم المداهنات التي تحملها أي حكايات عجيبة تساعدنا على نسيان استحالتها السابقة.

لنتأمل أكثر في بعض ما يترتب على ذلك حين نكون عند نقطة استراتيجية من نقاط فحص الاحتمال.

هل نتجسد في أجسادنا كلها أم في بعض الأعضاء وبعض الأنسجة فقط؟ هل يقتصر تجسدنا على جزء صغير فقط من النسيج العصبي وحده؟

إذا أُلغِي حق النقض ضد الاحتمالية في أي نقطة فحص استراتيجية، فإنه يُلغَى، من حيث المبدأ، في جميع النقاط الأخرى، وتكون الحدود مفتوحة أمام مجموعة احتمالات من كل نوع في كل مراحل دورتنا البيولوجية، من الحمل حتى الموت، سواء كانت أدمغتنا تعمل أو لا تعمل، ومن الموت إلى الحمل حين لا توجد أدمغتنا.

يبدو لي أنه من المستحيل تمامًا أن نعرف، من ملاحظة شخص يحتضر، ما إن كان العقل ينطفئ أو النفس أو الروح مع موت الدماغ، أو ما إن كان هو، أو هي، أو هم يتخلون عن الدماغ والجسد. لا يتعارض أي من التفسيرين مع الحقائق الموضوعية.

إنه مستحيل، وبالتالي لا يمكن. ولا يمكن، لأنه مستحيل. إنه ممكن، وبالتالي فهو محتمل. وإذا كان ممكنًا، فلا يمكن أن يكون مستحيلًا.

ولكن. إنه ممكن، لكنه مستحيل. إنه محتمل، لكن لا يمكن أن يكون. إنه مستحيل، لكن يجب أن يكون كذلك. سيكون مستحيلًا، لو لم يكن كذلك.

الرأي العلمي السائد أن الرؤى عند الموت وبعده لا تحدث، لأنها لا يمكن أن تحدث. ذكريات ما قبل الولادة، وذكريات ما بين الحيوات وذكريات الحيوات الأخرى زائفة، لأنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

ربما يمكن تحمل بعض هذه الخبرات المستحيلة، إذا كان لا يمكن تجنبها أو منعها أو إيقافها، ويسمح للبعض الآخر بالكاد، ولا يمكن تحمل البعض الآخر إلى أي حد.

على أي حال، مهما كان موقفنا من قصص الخبرات التي ما زلنا نعتبرها مستحيلة فإنها تستمر في الارتفاع من أعماق أنفسنا! إننا مستحيلون.

- ١١ -

«وَيَكُونُ بَعْدَ ذلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَحْلَمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلَامًا، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى» (سفر يوئيل ٢: ٢٨)[١].

يروي جيلكريست[٢] (١٩٤٥) قصة وليم بليك ويقول إنه

قد حدث في بيكهام راي (بالقرب من دولويتش هيل)، كما قال بعد سنوات، أنه رأى وهو طفل، ربما في الثامنة أو العاشرة، رؤياه **الأولى**. وهو صبي يتجول، نظر ورأى شجرة مليئة بالملائكة، وأجنحة ملائكية براقة تتشابك في كل غصن مثل النجوم. عاد إلى البيت وروى الحادث، وفقط من خلال شفاعة والدته نجا من علقة ساخنة من والده الصادق، لأنه كذب (ص ٦).

إن الأطفال اليوم، سواء كانوا يكذبون أم لا، معرضون للعلاج، إن لم يكن لعلقة ساخنة، لأقل من قول إنهم رأوا ملائكة على الأشجار. قد يُسمح للطفل الصغير بالهلوسة مرة أو اثنتين إذا بدا طبيعيًّا بخلاف ذلك، ولكن قد يشير المزيد إلى الحاجة إلى الملاحظة على الأقل.

اليوم، أعتقد أن رؤية بليك تُكذَّب على الأرجح أكثر مما تُصدَّق. ربما يمكن تحملها. لا يسمح بها إن تكن محظورة. الملائكة غير

---

(١) الترجمة عن الترجمة العربية للكتاب المقدس. (المترجم).

(٢) ألكسندر جيلكريست **Gilchrist** (١٨٢٨-١٨٦١): كاتب إنجليزي ومؤلف كتاب حياة وليم بليك. (المترجم).

موجودة، **وبالتالي** من **الممكن** أن يكون كاذبًا. من **الممكن** أن يهلوس. من **الممكن** أن تكون الملائكة مجرد هلوسات على أي حال، إذا كانت أي شيء. ربما كان يعاني من شيء ما. أفلا ينبغي لنا إذن أن ننظر إليه، ونفحصه، وننظر فيه؟ هل يمكن ألا تكون هناك تغييرات في مخطط كهربية الدماغ؟

تتجاوز الملائكة حدود العالم الموضوعي. العالم الموضوعي هو تعليب الأشياء الموضوعية والأحداث الموضوعية. في هذا العالم الموضوعي، تكون الملائكة في الحقيقة، **بحكم الواقع، وبشكل أساسي**، مستحيلة، وبالتالي غير موجودة. من وجهة النظر البيولوجية الموضوعية، يمكن للمرء أن يسأل فقط السؤال الأساسي. هل للملائكة فائدة بيولوجية؟ هل للملائكة، لهذه الهلوسات، قيمة للبقاء على قيد الحياة؟ هل هي علامات باثولوجية؟ هل تختفي تلقائيًّا؟ هل تتحسن؟ هل نسمح بها؟

- ١٢ -

أروي القصص الست التالية ببعض التعليقات. أقدمها لأنها كلها تتحدى الإحساس بواقع الكثير من الرجال والنساء الغربيين الأذكياء في نقطة أو أخرى أحاول طرحها للنقاش. ستكون هناك بضع دوائر يتفق فيها الجميع بشأن طريقة التصرف معها كلها.

أول قصتين لتوضيح الاختلاف الشديد بين النظر إلى الموت من الخارج، ومواجهته من الداخل، مهما تكن غير محتملة. وتشمل القصص الأخرى كلها قضايا إمكانية أو استحالة الخبرات عبر الشخصية والأحداث التي تتجاوز الحسي من كل نوع.

آمل أن نواجه كثيرًا السؤال: لماذا يكون هذا ممكنًا أو مستحيلًا لك وليس لي؟ يمكن متابعة هذا السؤال من خلال علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والبيولوجيا والفيزياء، حتى نصل في النهاية، كما ينبغي، إلى الميتافيزيقا والأنطولوجيا واللاهوت.

١ - أخبرني رئيس وحدة يموت فيها الناس من جميع الأعمار يوميًّا أنه لم يخبر أحدًا منهم على مدى أكثر من خمسة عشر عامًا أنه سيموت. وهذا يزعجهم كثيرًا.

سياسته روتينية في الكثير من المراكز الطبية في جميع أنحاء العالم.

لا يستطيع أن يرى كيف، من وجهة نظر علم الأحياء الاجتماعي العلمي الموضوعي، أن خبرة موتنا يمكن أن تقدم أي وظيفة بيولوجية مفيدة. ما القيمة التي يمكن أن تكون لخبرة الموت في المساعدة على

البقاء؟ ما الخدمة التي يقدمها لأي شخص بالسماح له بالتعرض بلا جدوى لقلق وألم غير ضروريين؟

٢- ينظر إلى يده. أمام عينيه تصبح متجعدة وفاسدة وقديمة. يدرك أنها يد سيدة عجوز على فراش الموت. يتذكر. كان هو تلك السيدة العجوز. إنه يتحول إليها. تموت. نعم، يتذكر الآن، يصمم، هكذا مات آخر مرة.

إنه عالِم متميز. شرب ١٠٠ ملجم من عقار الهلوسة LSD قبل ساعة. بعدها، لا يزال مقتنعًا بأنه استرجع موته الأخير. هذه القناعة قوية بما يكفي لنقض ادعاءات اقتناعه العلمي بأن رؤيته بالضرورة وهم عميق ناتج عن تأثير عامل كيميائي على جهازه العصبي. يمكن أن يستمر يقين التحقق الذاتي في الخبرة نفسها بعد ذلك للقضاء على كل ولاء لحالات عدم الأهلية من قبل.

قبل أن يكتسب الخبرة، لم يرَ أي صدق في هذا الصدد، مما منحها شرعية بشروطها الخاصة. لم تقدم أي مشكلة أساسية. ولن تحظى بأي اهتمام خاص. يستطيع أن يرى نفسه الآن، يستطيع فقط أن يرى أنه سمح لنفسه بأن يرتبك. ليعرف كيف يمكن أن يحدث هذا لا بدَّ أن ينتظر المزيد من البحث.

خبرته (والكثير من الخبرات الأخرى مثلها) ممكنة ومعقولة وجديرة بالثقة ومرغوبة وقيمة ومفيدة وصالحة في نظر الكثير من الأذكياء، وهراء مطلق (بصرف النظر عن القيمة الرمزية التي قد تكون لها) في نظر الكثير من الآخرين.

مدخل إلى السحر والتنجيم؟ عقل جيد آخر فقد قدرته؟

٣- يقف على رصيف محطة مترو، مع ابنته، ابنة الثالثة، ممسكًا بيدها، في انتظار القطار.

بدأ يشعر بخوف غير مبرر: إحساس مألوف -خوف شديد يتصاعد بسرعة قبل أن يمر القطار عبر النفق. تسارع قلبه. يكاد يغمى عليه.

في ذهنه ومضات كانت صورة عبثية وغريبة بالنسبة له أن القطار الذي على وشك أن يخرج هو نفسه على وشك أن يولد، وأنه مع ابنته، في المحطة، هو نفسه مع مشيمته في الرحم خائفًا من أن يدخل قضيب الأب من المهبل إلى حيث كانا.

مسح هذه الصورة الفكرية على الفور لأنه لم يكن يريد لابنته أن تصاب بصدمة كهربية من صدمات التخاطر، ربما من خلال أذرعهما، وقد شكلا بأيديهما المتشابكة في تلك اللحظة حبلًا سُريًّا من نوع ما.

٤ - يشعر بتوعك. لا يعرف لماذا. يذهب إلى الأطباء بلا جدوى. يستشير معالجًا روحيًّا. يخبره أن زوجته تحاول قتله بالسحر الأسود. يعرض، مقابل أجر متواضع، ترتيب تأثير سحر أبيض يرد كيدها حتى تعود رغبات زوجته بشكل طبيعي وغير مزعج إليها. لن يكون قتلًا. لن تموت بنيَّتها القاتلة. لم يستطع قبول العرض، لكنه لم يكن متهورًا بحيث لا يتركها فورًا. شعر بتحسن في الحال.

٥- حضرتْ محاضرة لمعلم التأمل. وهي تستمع إليه، باستغراق، تلاقت أعينهما. سمعت نقرة، وعرفت أن عقلها مقترن بعقله.

صارت تلميذته. مارست التأمل لساعات طويلة في مركزه للتأمل.

أخبرت زوجها وآخرين أنه جاء إليها وشعرت معه بأورجازم لم تحلم به. ولم يكن من الواضح إن كانت زيارات فعلية أم تجسيدًا أم هلوسة أم تخيلات. كانت جميع الاحتمالات الأربعة ممتعة حقًّا.

أقسم معلمها إنه لم تحدث علاقة حب فعلية، ولم يبد أنه قادر على تحقيقها. وخلص إلى أنها تهلوس، لا تفبرك، أو تكذب، وطلب منها البقاء في البيت والتوقف عن التأمل. وأكد مع ذلك أنه قد اقترن بها بالتخاطر.

بدت أحيانًا وكأنها تتحرك وتتحدث بنشوة. أصبحت دائرة أصدقائها مقتنعة بأنها بالفعل تحت سيطرة المعلم بالتخاطر.

رفض فك الاقتران بها. ذات ليلة، ذهب أكثر من عشرين شخصًا في أماكن مختلفة إلى التأمل العميق، في الوقت نفسه، لمحاولة قطع رابط التخاطر. لكن بلا جدوى.

بدأت في الدوران ولم تتوقف حتى تعرضت لصدمات كهربائية قليلة في مستشفى الأمراض العقلية حيث كان عليها أن تذهب.

٦- في السادسة والثلاثين أدرك فجأة أنه إنسان. أدرك في تلك اللحظة أنه، حتى تلك اللحظة، لم يخطر بباله مطلقًا أن يتساءل إن كان إنسانًا، ولم يخطر بباله مطلقًا أن يتصور نفسه إنسانًا. ذرف دموع ارتياح وذهول وامتنان وفرح. وغيرت تلك اللحظة حياته.

الرؤية الموضوعية رؤية بين رؤى أخرى. هل في داخلنا قاضي استئناف لا يستأنِف؟

حين نقارن ونحدد نطاق نوع صلاحيتها وحدودها ونقيمها مقارنة بالرؤى الأخرى للعالم، لا يمكننا السماح لها بأن تكون الحكم النهائي لمكانه في المخطط العام.

وبالمثل، فإن إحساسنا بصحة أي لحظة أو حالة مزاجية أو إدراك من الداخل قد يختلف تمامًا عن الصحة أو الأهمية أو المصداقية التي نمنحها لها ذات مرة من خارجها، إذا نظرنا إلى الوراء، وتذكرناها.

هناك شيء واحد مؤكد. لا تزال الشمس تشرق وتغرب من وجهة نظر معينة، بالرغم من أنها ليست كذلك من وجهة نظر أخرى. بمجرد أن ندرك نسبية الملاحظتين الموضوعيتين المتباينتين ظاهريًّا، يمكن التوفيق بينهما ضمن منظور يشمل الاثنتين. مشكلتنا من نوع مختلف. إنها الطريقة التي يمكن بها تنسيق أنواع مختلفة من المنظور أو دمجها، إذا كان ذلك ممكنًا.

حقيقة أننا لا نفكر فقط في أشكال الهذاء الخاص الذي لا يمكن تصوره عن التوحد الذي لا يمكن تصوره لعقول مجنونة مفردة قد تعني أن المزيد من الإنسانية المتحضرة لا تزال منغمسة في ظلام أعمق مما نود تصديقه. ومن الناحية الأخرى، لا يمكن افتراض، أو توقع، الحصول على قوانين ما يجري خارج عالمنا المعيش داخل العالم الذي نعيش فيه بالفعل. خبرتنا البشرية مرتبطة شرطيًّا ونسبية ومحدودة. في هذا المجال الشرطي، النسبي المحدود، كما هو الحال دائمًا، لا يمكننا تحديد نطاق شرطيته ونسبيته وحدوده دون قيد أو شرط. وهو ما نسميه **مبدأ عدم القدرة على اتخاذ القرار**.

الفصل الخامس

الولادة وما قبلها

- ١ -

هناك من يبدو لهم السؤال «هل من الممكن أن يشعر الطفل بذلك؟» غريبًا بقدر غرابة السؤال «هل من الممكن ألا يشعر الطفل بذلك؟» لآخرين. وهذا الاختلاف في الحدس الفوري هو ما أريد إلقاء نظرة عليه.

النظر فيما يشعر به المولود وهو يُولَد غريب في تلك السياقات التي لا يُنظَر فيها حتى في خبرة الأم نفسها. ولأن المشاعر المحتملة للأم والمشاعر المستحيلة للطفل ليست حقائق موضوعية، فلا يمكن تخيل إمكانية وجود أي رابط للشعور بينهما بشكل موضوعي.

إن الولادة بالطريقة القديمة، بعد إلغائها فعليًّا بطرق التوليد التي تهيمن عليها التكنولوجيا، قد تكون في طريقها للعودة. ومع ذلك، لم نعد نرى الولادة في بعض وحدات التوليد. إن الشبه بين ما يحدث هناك والولادة ليس أكثر من الشبه بين التلقيح الصناعي والجماع، أو التغذية بالأنابيب والأكل.

إن محو الولادة يأخذ مكانه بجانب محو العقل والموت، كحاشية للإلغاء العلمي لعالمنا ولأنفسنا.

أنجبت طفلها بأمان في البيت.

يسألها طبيب التوليد ومستشارها وصديقها: «لكن لماذا؟ لم يكن عليكِ أن تمري بهذا كله! كان من الممكن أن تأتي إلى عيادتي وتقرئي جريدة في أثناء ذلك. ولم تكوني في حاجة إلى معرفة أي شيء حتى أقدم لكِ الطفل».

فأجابت بحيرة: «لكني أردت أن أمر بهذا كله!».

لم يفهم كيف يمكن أن يكون لمثل هذا الشعور قيمة. من الواضح أنه شم رائحة بدعة هستيرية مازوشية.

الميلاد: أُلغي بوصفه خبرة شخصية نشطة.

المرأة: تحولت من شخصية نشطة إلى مريضة سلبية.

الخبرة: ذابت في النسيان. تحولت المرأة من شخص يشعر إلى كائن مخدر.

خضعت العملية الفسيولوجية لبرنامج جراحي كيميائي. والنتيجة النهائية: اختفى فعل الولادة، الحدث والخبرة المتماسكة.

وبدلًا من ولادة طفل، نقوم بعملية لانتزاعه جراحيًّا.

أنا في محادثة مع أستاذ الطب النفسي.

إننا نناقش الجدل الدائر حول الولادة بين الأطباء النفسيين وأطباء التوليد، بما في ذلك أسئلة مثل: هل يشعر الطفل بذلك عمومًا؟ هل يمكن؟ وإذا كان يشعر، فهل هذا مهم؟ وإذا كان مهمًّا، فبأي طرق؟

كيف يمكن أن نعرف؟ هل يوجد دليل موضوعي؟

أسأله: «هل تعتقد أن الطفل يشعر بذلك؟».

أجاب الأستاذ دون تردد: آسف. لا أستطيع حتى أن أتخيل إمكانية حدوث مثل هذه الأمور. وتوقف للتحقق من ملاحظته، ثم هز رأسه، وضم شفتيه، وقلبهما على الجانبين، مع بعض الأسف وبعض الراحة، وبتواضع كامل أضاف:

«في الطريق تفسيرات أساسية كثيرة».

كان الأستاذ دقيقًا. قال إنه لا يستطيع، أن يبدأ، أن **يتخيل، احتمال** أن تكون الولادة خبرة. ولم يكن من المعقول أو المحتمل بالنسبة له أن تسجل أنظمتنا ولادتنا وتوثقها وتخزنها بطريقة ما، بالرغم من عدم شعورنا بها بوعي هناك وحينها. لم يفكر في أي شيء في طب التوليد العلمي أو الطب النفسي يمكن أن يدعم الرأي القائل بوجود خبرة الولادة، ناهيك عن أن إمكانية أن تلعب الخبرة غير الموجودة للولادة أي دور في المساهمة في الخبرة والسلوك فيما بعد.

لم يستطع أن يبدأ **تخيل** مثل هذه الأمور، لأنه لم يستطع تخيل كيف يمكن أن تبدأ مثل هذه الأمور. الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تكون ممكنة هي القضاء على البيولوجيا العصبية التنموية، كما فهمها.

لم يكن يحتاج إلى تذكيرنا بأن رأيه يتفق مع رأي معظم زملائه الطبيين والعلميين.

هذا النوع من العقل يتجاهل ما يعتبره الآخر الدليل الأكثر وضوحًا، والعكس صحيح.

بالنسبة لرأي فريدريك ليبوير[1] (١٩٧٧)، الولادة عذاب الأبرياء.

يجب أن يكون المرء ساذجًا حقًّا ليصدق أن كارثة كبيرة لن تترك بصمتها.

آثارها في كل مكان. على الجلد، في عظامه، في المعدة، في الظهر، في كل حماقاتنا البشرية، في جنوننا، في عذاباتنا، سجوننا، في الخرافات والملاحم والأساطير. من المؤكد أن الكتب المقدسة نفسها ليست سوى قصة هذا الويل البغيض (ص ٢٨).

الدليل أمامنا. تلك العيون المرتعشة، تلك الحواجب الملتوية، ذلك الفم الصارخ، هذا الرأس المعلق، تلك الأصابع المتلهفة، أصابع القدمين اليائسة، تلكما الركبتان الملتويتان.

يكتب لنا ليبوير أنه لم تكن هناك قَط أي استغاثة أكثر تمزيقًا للقلب. لكن من الواضح أنها استغاثة لا تمزق قلوب من يستغيث. أريد التركيز على هذا التشعب.

ليس كل من يرى طفلًا ويسمعه يتلوى ويصيح، باشتهاء، يشعر حتى بأدنى رجفة لوتر في القلب.

تقول عينا المولود الجديد لبعضنا إن الطفل كائن روحي وذكي يشعر ويعي. ولا تنقلان مثل هذه الرسالة لآخرين.

نظرية تكذِّب احتمالًا، وخبرة احتمال تُكذَّب، **لا يمكن أن يتوافقا**. إذا كانت النظرية صحيحة، تكون الخبرة خاطئة. إذا كانت الخبرة صحيحة، تكون النظرية خاطئة.

---

(١) ليبوير **Leboyer** (١٩١٨-٢٠١٧): طبيب توليد فرنسي. (المترجم).

إذا كانت النظرية صحيحة، فإن الخبرة **لا بد** أن تكون وهمًا. يمكن للمرء أن يقبلها لأي سبب إلا لصحتها نظريًّا. إذا لم تكن الخبرة وهمًا، فإن أي نظرية تقول إنها لا بد أن تكون وهمًا تكون نظرية خاطئة.

قد تتنافس النظرية والشعور معًا في شخص واحد. قد تواجه حكمَنا العقلاني النقدي خبرةٌ توفر وقتًا قصيرًا لنظريتنا بقدر ما توفر نظريتنا وقتًا قصيرًا لها.

- ٢ -

لنعلقْ اعتبارات علم الأعصاب حاليًّا وننظر مباشرة إلى الطفل. هل يسأل المرء، ما شعورك؟ أو هل هو حساس؟

للأسئلة المختلفة إجابات مختلفة. سواء كانت الإجابة بنعم أو لا، نادرًا ما تكون مؤقتة. بطريقة أو بأخرى تميل إلى أن تكون من نوعية التحقق الذاتي الفوري، سواء كانت متنافرة أو متوافقة مع التفسيرات المشتقة مما نراه تحت مجهر الأدمغة الميتة للأجنة والأطفال، والتخطيط الكهربي للأدمغة الحية، أو مفروضة عليها. حتى لو تمكنا من تعليق تحيزاتنا بما يكفي لاستشارة الأطفال مباشرة، فإن الطريقة التي نفسر بها ما نشعر أن الأطفال يشعرون به تتأثر حتمًا بما نعتقد أن الأطفال قد يشعرون به. يشعر بعضنا أن الأطفال يشعرون. لكن هذا لا يحمل أي قناعة لكثير من الناس الذين يعتقدون أنهم لا يمكن أن يشعروا، وبالتالي فهم لا يشعرون. الدليل المقنع الوحيد بأن الأطفال يشعرون يأتي من مشاعرنا حول ما يشعرون به حين نكون معهم، ومن افتراض أنهم يشعرون كما نشعر أننا كنا نشعر ونحن أطفال. هذه القناعة لا تحمل أي قناعة لمن لا يقتنعون بها. يستبعد كل جانب أدلة الطرف الآخر ومعاييره وقناعاته باعتبارها غير ذات صلة. لا توجد معايير متفق عليها للاستدلال المقبول من الدليل نفسه. ولا يوجد اتفاق على طبيعة الدليل المقبول.

ما نراه أو نسمعه عن الطفل، الآثار على شاشة الجنين، مخطط كهربية الدماغ، كلها ارتباطات موضوعية لما نشعر، مهما يكن، بأن الأطفال يشعرون به أو لا يشعرون به.

إذا كان المرء لا يشعر بأن الطفل يشعر، تكون النتيجة الحتمية تقريبًا أن الشعور بأن الطفل يشعر وهم. وإذا كان المرء يشعر بمشاعر طفل، فسيجد صعوبة في عدم استنتاج أن من لا يشعرون يعانون من فقدان الإحساس بشكل أكثر جذرية من فقدان إحدى الحواس.

هل المغالطة هنا مغالطة مثيرة للشفقة أم أنها مغالطة تنم عن التبلد؟

- ٣ -

يبني بعض الناس استنتاجهم بأن الطفل كائن حساس على مشاعرهم فقط بوجود كائن حساس، سواء وجد أو لم يوجد، بدون استشارة علم الأعصاب، في الحالتين. من الناحية الأخرى، من موقع الهيمنة الموضوعية، البيانات الموضوعية وحدها هي الدليل. ومع ذلك، من المستحيل منع الخبرة من تقديم دليل على خبرتنا، مهما كانت الارتباطات الموضوعية.

أخبرني أطباء التوليد المتشددون كيف أن عيون الأطفال حديثي الولادة لفتت انتباههم فجأة. في لمح البصر، ينظرون في عيون مخلوق آخر ينظر إليهم. اهتزوا بشدة. هذا مستحيل.

أصوات العقل الموضوعي تقول: نحن لا ننكر أنك تشعر بالنظر إليك من إنسان يقظ ومدرك وواعٍ وحساس، لكننا ننكر أن هناك مخلوقًا واعيًا كما تشعر ينظر في عينيك ويبتسم. شعورك يعترف بتفسير منطقي. نعترف بذلك، ويمكن أن نعرف السبب، خبرتك ممكنة، لكننا لا نصدقها. قد **نشارك** خبرتك حتى بدون أن نصدقها أو نصدق أي وهم من أوهام الإدراك الكثيرة التي نخضع لها جميعًا.

قد تكون هناك قيمة عالية للبقاء في الرابطة العاطفية القوية بين الأم والطفل قبل الولادة وفي أثنائها وبعدها. ما المخلوق الأكثر عرضة للخطر من طفل في مثل هذا الوقت؟ أي استراتيجية جينية أكثر فاعلية من ترتيب، إذا جاز التعبير، ارتباط شديد لتنشئة الطفل، تشغله الفروق

الدقيقة الرائعة في الرؤية والصوت واللمس والشم. أحد جوانب جهاز الترابط الجيني النفسي البيولوجي، الذي لم يكن قد اكتُشِف علميًّا حتى وقت قريب، بالرغم من توثيقه جيدًا في الفولكلور، شعور الأم حين تكون مع طفل يستمتع بأنه معها. ويقال إن تعبيرات الطفل المبرمجة جينيًّا قد «تشد انتباه» أي شخص راشد بالطريقة نفسها.

مثل هذه المشاعر الأمومية (التي لا تشترك فيها كل الأمهات) لا تقدم أي دليل للعقل العلمي على وجود المضغ والأجنة والأطفال، من جانبهم، كما يشعرن. إنه نوع آخر من أنواع المغالطة المثيرة للشفقة، وهو خداع ربما يكون ذا فائدة بيولوجية. قد تكون قيمة البقاء بالكذب أو الوهم متناسبة عكسيًّا مع قيمة الحقيقة.

- ٤ -

يروي فرويد قصة في كتابه **محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي**، في ١٩١٦، وكان في الستين، عن وجوده في مقهى قبل أربعين عامًا مع بعض زملائه من طلاب الطب. كانوا يضحكون على قابلة في فترة دراستها، وكانت مخلوقة متواضعة من طبقات الفلاحين، رسبت في امتحان لأنها حين سُئلت عن سبب تبرز الأطفال غالبًا عند ولادتهم، أجابت لأنهم خائفون. يعترف بأنه ضحك معهم، لكن سرًّا، كما قال، ووقف إلى جانبها، لأنها «وضعت إصبعها على علاقة مهمة».

والعلاقة المهمة التي رآها فرويد في إجابة القابلة نتيجة الجهل ليست واضحة كما قد تبدو لنا للوهلة الأولى.

يوضح فرويد أن جوهر الشعور تكرار خبرة معينة مهمة. ومع ذلك، فإن خبرة الانطباعات المبكرة جدًّا يمكن أن تكون ذات طبيعة عامة جدًّا، وتقع في عصور ما قبل التاريخ، وليست فردية، لكنها خاصة بالجنس البشري (Standard Edn, Vol. XVI, p.396).

لم يتخلَّ فرويد قَط عن العلاقة بين جوهر الوجدان والانطباعات ذات الطبيعة العامة جدًّا الموجودة في ماضي ما قبل تاريخ الجنس البشري، وليس الفرد، بالرغم من الفيتو البيولوجي آنذاك والآن ضد هذه البدعة اللاماركية[١] الصارخة. من الصعب أن نفهم لماذا وجد

(١) اللاماركية: نسبة إلى عالم الطبيعة الفرنسي جان بابتيست دي لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩). (المترجم).

فرويد أن نظرية النشوء والتطور هذه معقولة للغاية بينما انزعج دائمًا من أن تصبح نظرية جينية قديمة جدًّا، ورفض في النهاية ذكرى الولادة باعتبارها مستحيلة. إن الفكرة القائلة بأن الأحداث في ذلك الوقت، في الماضي البعيد للجنس البشري، التي تتكرر غالبًا، ولكنها لم تكن شعورية أكثر مما هي عليه الآن، أثرت على الجينوم بحيث تولِّد، بطريقة ما، أنماطًا في الخبرة الشعورية للراشدين الآن، فكرة بعيدة المنال. إنها على الأقل بعيدة الاحتمال مثل أي نظرية من نظريات تناسخ الأرواح.

اضطر فرويد صراحة، بصفته ماديًّا، إلى الاختيار بين نظريتين، لم تعجبه أي منهما، لأنه لم يستطع التفكير في نظرية ثالثة، مدركًا تمامًا كيف نظرت معظم العقول المدربة علميًّا في عصره إلى نظرية التطور.

يتجاهل النظرية القائلة بأن قلق الراشدين يتشكل على نمط خبرات الولادة الفعلية من هذه الحياة، على أساس أننا برغم علمنا بموضوعية أن عملية الولادة تنطوي على خطر حقيقي على الحياة، فإن ذلك

> ... لا يخبرنا بأي شيء بالمعنى النفسي. خطر الولادة ليس له حتى الآن مضمون نفسي. لا يمكن أن نفترض أن الجنين يعرف بأي شكل بإمكانية تدمير حياته (المرجع السابق، ص ١٣٥).

يجب أن تفترض النظرية القائلة بوجود علاقة بين مشاعر ما بعد الولادة وانطباعات ما حول الولادة أننا نسجِّل ونوثِّق انطباعات البصر والصوت ورد فعلنا تجاهها. إنه افتراض، كما يقول، «لا أساس له من الصحة تمامًا، وغير محتمل تمامًا ولا يصدق» أن

... الطفل يجب أن يحتفظ بأي أحاسيس لمسية وعامة متعلقة بعملية الولادة (ص ١٣٦).

لقد أدرك، في وقت سابق لعصره، ما هو الآن بديهي للكثيرين ومدعوم بمجموعة كبيرة متنامية من الأبحاث التفصيلية، بأن

هناك استمرارية أكبر بكثير بين الحياة داخل الرحم والطفولة المبكرة أكثر من الانقطاع[1] الرائع لعملية الولادة الذي نعتقده (ص ١٣٨).

لكنه يخبرنا على الفور أنه يجب ألا ننسى أبدًا أن الأم، خلال الحياة داخل الرحم، ليست **موضوعًا** بالنسبة لنا، وبالتالي عند الولادة لا يمكن أن يكون هناك أي خبرة لفقدان أي موضوع. وبالتالي،

من الواضح أنه لا يوجد في هذا المخطط العام مكان لاستعادة صدمة الولادة (ص ١٣٨).

لا يقول فرويد لماذا لا يمكن أن نفترض بالضبط أن للولادة أهمية في حينها، وأنه لا أساس لذلك تمامًا ومن غير المحتمل تمامًا ولا يصدق أن نحتفظ من الولادة بأكثر من الأحاسيس اللمسية والعامة. وبالتالي لم يكن هناك ما يدعو إلى الإسهاب في الحديث عن انقطاع الولادة من الجانب التجريبي. لأنه نظر إلى إمكانية تأثير الخبرات التي تمر بها أمهاتنا على شعورنا بأي شيء نشعر به نحن أنفسنا في علاقة أو منزل أو غرفة أو وظيفة، أو موقف، أو بلد، أو عالم، ورفض هذه الإمكانية.

---

(١) يوجد ملخص مفيد لمواقف فرويد من خبرة الولادة في المقدمة الافتتاحية للمثبطات والأعراض والقلق (Standard Edn, Vol. XX). وانظر أيضًا MacAlpine and Hunter (١٩٥٥) لمناقشة نظرية فرويد في الإنجاب وأوهام الحمل.

ربما لم يكن متسقًا تمامًا. في كتابه **محاضرات تمهيدية** (١٩١٦) يسرد أحاسيس التواجد في السائل الأمنيوسي على أنها ذات دلالة رمزية، ويمكن استعادتها من الذاكرة اللا شعورية. هنا يبدو أنه يقترب من الرأي الذي يدينه ويعتبره عبثيًّا في أعمال أوتو رانك وآخرين. لاحقًا في كتابه **الحضارة وسخطها** (Standard Edn، Vol. XXI) يفسر الإحساس بالوحدة في الكون على أنه استعادة ذكريات ما بعد الولادة لما بدا عليه الأمر **بالفعل** في السائل الأمنيوسي قبل الولادة.

لكنه كان متسقًا في الأساس. كان مستعدًّا للذهاب بعيدًا لدرجة أن ينسب للجنين والطفل عند الولادة، أمورًا كَمِّية لا معنى لها ولا تترك أي أثر. إن الأهمية التي نمنحها للولادة لا تنبع من الولادة نفسها، بل تنبع من إسقاطات ما بعد الولادة عليها. ويبقى أن تأثير أي دراما أسطورية أو شخصية تحدث في روح المضغة أو الجنين أو الطفل أقل بكثير.

عند الولادة، يحدث اضطراب فوار هائل في الليبيدو النرجسي، لا يدل على شيء. حين يكتب أن القلق يحدث عند الولادة، يشير بصعوبة إلى أن لديه في العقل رد فعل فسيولوجي بحت، وليس رد فعل نفسي. رد الفعل هذا رد فعل نسبي ورثه بطريقة لا يعلمها إلا الله، نمنحه معنى شخصيًّا حين يبدأ المحتوى **النفسي** الأول في إثارة القلق. وهذا غير ممكن قبل أن يكون هناك أنا ego وكائن object. حين يكون «الكائن» (أي الأم) موجودًا بالنسبة له، لكنه غاضب منه، يصبح خطر فقدان حب الكائن، وفقًا لفرويد، الخطر النفسي الأساسي الدائم.

– ٥ –

لنفحصْ بمزيد من التفصيل بعض القضايا الرئيسية المتضمنة في هذه الاعتبارات بالنسبة لفرويد، وبالنسبة لنا أيضًا. وهي قضايا لم يتم حل أي منها.

في **تفسير الأحلام**، يلاحظ فرويد أن عددًا كبيرًا من أحلام قلق

> المرور عبر مساحات ضيقة أو التواجد في الماء، يتأسس على فانتازيا الحياة داخل الرحم، والوجود في الرحم وعملية الولادة (ص ٤٠١).

إنه دقيق في الكتابة هنا عن فانتازيا الحياة داخل الرحم، وليس الذكريات. الأحلام تتأسس على الفانتازيا. وعلى أي شيء تتأسس الفانتازيا؟

انجذب فرويد إلى النظرية القائلة بأن الانطباعات المبكرة في هيئة ما أو شكل ما تؤثر على الفانتازيا الحالية. لكنه قاوم عيوب هذه النظرية حين تتطرق إلى فانتازيا ماضي ما قبل الولادة. إنها لا تتأسس على ذكريات ما قبل الولادة، لأنها لا يمكن أن تتأسس عليها. إنها تعبر عن التوق للهروب من الصراعات والمحن والمصائب الحالية إلى زمن ما قبل كل ذلك. ومع ذلك، فقد أشار إلى الارتباط المهم الذي وضعت القابلة الجاهلة إصبعها عليه بدون قصد، أي أن أنماط القلق العاطفية والفسيولوجية (السحق، والاختناق، وسرعة ضربات القلب، والتبرز على النفس) تشبه ردود الفعل الفسيولوجية عند الولادة البيولوجية.

إذا كان من العبث استنباط مجموعة من الأخرى، فهل يمكن أن تكون المجموعتان نتيجة بصمات تطورية موروثة؟

تواجه هذه التكهنات على الفور بالسؤال: كيف يمكن تسجيل مجموعة من الأحداث الفسيولوجية غير المحسوسة، ونقلها واستدعاؤها من فترات الحياة الأخرى حين لا يمكن حتى نقلها عبر بضع سنوات من هذا العمر؟

في عام ١٩٠٩، كتب فرويد:

> لم ينقضِ وقت طويل حتى تعلمت تقدير أهمية الفانتازيا والأفكار اللا شعورية عن الحياة في الرحم. إنها تحتوي على تفسير للرهبة اللافتة التي يشعر بها كثير من الناس من دفنهم أحياء؛ كما أنها توفر أعمق أساس لا شعوري للإيمان بالبقاء بعد الموت، وهو يمثل مجرد إسقاط على مستقبل هذه الحياة الغريبة قبل الولادة (ص ٤٠٢).

في هذا المقطع الغامض إلى حد ما، يقول فرويد إن حياتنا الغريبة قبل الولادة أعمق أساس لا شعوري للإيمان بالحياة بعد الموت. يبدو أن هذا يعني أن الحياة الغريبة الفعلية قبل الولادة أساس فانتازيا الحياة الغريبة قبل الولادة والفانتازيا والمعتقدات التي يتم إسقاطها على الحياة بعد الموت.

ومع ذلك، ربما افترض أن أي شخص عاقل يسلم بأنه يجد أي نظرية تقول بأن أي خبرة للحياة قبل الولادة يمكن أن تؤثر علينا الآن، أو على معتقداتنا بشأن الآخرة، نظرية لا أساس لها وغير محتملة ولا تصدق.

حين ينظر فرويد في خبرة **ديجا فو**[1] يقترب أكثر من صدام مفتوح مع مقولته بأنه لا يمكن الاحتفاظ بأي انطباعات، عن الولادة أو ما قبلها، تؤثر لاحقًا على المزاج الداخلي ونسيج التصورات الخارجية، مما يؤدي إلى التحولات التجريبية والتغيرات والهلوسات.

> في بعض أحلام المناظر الطبيعية أو الأماكن الأخرى، يتم التركيز في الحلم نفسه على شعور مقنع بالتواجد هنا من قبل. لحدوث «ديجا فو» في الأحلام معنى خاص. هذه الأماكن هي الأعضاء التناسلية لأم الحالم دائمًا؛ لا يوجد مكان في الواقع يمكن للمرء أن يؤكد فيه بهذا الاقتناع أنه كان هناك من قبل (Standard Edn, Vol. V, p.399).

ومع ذلك، يبدو أنه يستبعد الاحتمال النظري بإمكانية وجود صدى داخلي مع عالم الرحم المفقود. في مخططه العام لا يمكن أن يكون هناك مثل هذا الصدى، لأنه قال إن وجود أي خبرة لنا حين كنا بالفعل داخل الرحم أمر لا يصدق. ويمكن لتلك الحقبة أن تقدم فقط مادة رمزية كانطباع هائل وغامض عن السائل الأمنيوسي، لكنها لا تقدم نموذجًا ديناميكيًّا للاقتناع، أو صدى للشعور، حتى بدون مثل هذا النموذج الديناميكي المطبوع الذي يعتبر ضوء النهار ذكرى شعورية.

ومع ذلك، لا توجد تفسيرات لطريقة إدراك أن هناك استمرارية بيولوجية قبل الانقطاع الدرامي للولادة وفي أثنائها وبعدها، بالرغم من أن فكرة الاستمرارية النفسية مستحيلة بالنسبة له. حين بدأ أوتو رانك وفيرينزي وآخرون الانتباه إلى التعاليم التقليدية والأرثوذكسية

---

(١) ديجا فو **deja vu**: شعور المرء بأنه مر بخبرة ما من قبل. (المترجم).

والأفلاطونية والمسيحية والحاخامية، التي أنكرها التنوير العلمي وبقيت الآن بشكل ضئيل في خرافات النساء والهمج وهذاء المجانين، رأوا أن هناك استمرارية نفسية تمتد حتى الولادة، بل حتى الحمل، وقبل ذلك، لم يكن يبدو أن فرويد احتج بشدة في البداية.

جاء رانك في النهاية باقتراح يبدو وكأنه ترجمة إلى رطانة التحليل النفسي من أساطير أسترالية للسكان الأصليين عن عالم الأحلام قبل الولادة. اقترح أن جوهر اللا شعور يتأسس على علاقاتنا في الرحم وبها؛ وليس بالولادة وحدها أو في المقام الأول الولادة ولكن بحقبة ما قبل الولادة كلها من الحمل إلى الولادة تُلخَّص من البداية إلى نهاية التحليل النفسي. اهتم فرويد بهذه الفكرة، بتسامح نسبي، وربما حتى بتعاطف، في البداية، ربما لأن المدى الكامل لتحديها حدود الاحتمال المبني على أسس علمية أو عقلانية، استغرق بضع سنوات لاستيعابه تمامًا.

عند نشر رانك كتاب **صدمة الميلاد**، كتب إلى إرنست جونز وكان يأمل

> أن تصبح الأفكار التي استحضرها رانك موضوعًا لمناقشات كثيرة مثمرة. علينا ألا نتعامل هنا مع تمرد أو ثورة على معرفتنا المؤكدة أو تناقض معها، ولكن مع إضافة مهمة يجب أن ندرك قيمتها نحن والمحللين الآخرين (١٩٥٧).

ومع ذلك، اقتنع حقًّا بمزيد من التأمل، وليس فقط سياسات التحليل النفسي، بأنه لا يوجد مجال لمثل هذه الإضافات المهمة في نسخته من

المخطط العلمي الموضوعي العام. تتكون الولادة من أحاسيس كمية عابرة بلا أهمية حينها. لا تحدث دراما نفسية بين الحمل والولادة. لا يُفقَد أي عالَم عند الولادة. يمكن للمرء إدراك الظواهر التي تستند إليها نظرية الوجود النفسي ما قبل الولادة، وإدراك البيانات الموضوعية عن نشاط ما قبل الولادة وارتباطاته الشرطية، بدون أن تحمل نظرية رانك أي إقناع. غالبًا ما ينشأ شعور مقْنع يُقْنع شخصًا ما بأنه يستعيد جزءًا من حياة ما قبل الولادة. قد يشعر المرء بتحسن للمرور بها، كما يقولون، مرة أخرى. كان فرويد حذرًا جدًّا بشأن السماح لنفسه بالاقتناع بمشاعر مقْنعة غير مشاعره. وفي هذه الحالة شعر بالاقتناع بأننا لا نترك عالمًا حين نغادر الرحم.

يبتعد معظم المحللين النفسيين قليلًا من فرويد، لكن ليس بقدر ما يبتعد رانك والمتطرفون الآخرون. أصبحت قابلية استعادة الذكريات الجيدة داخل الرحم جزءًا مقبولًا بشكل عام في نظرية التحليل النفسي، بالرغم من ندرة ذكر إمكانية استعادة الخبرات السيئة داخل الرحم. في أدبيات التحليل النفسي اتجاه للمساواة بين عالم الرحم والفردوس، جنة عدن. وإذا كانت استعادة الخبرات «الجيدة» داخل الرحم ممكنة، فعندئذٍ، وبنفس الطريقة، مهما يكن، يجب أن تكون استعادة الخبرات «السيئة» داخل الرحم ممكنة. بمجرد التسليم مبدئيًّا بإمكانية حدوث أي نوع من الخبرات داخل الرحم، وإمكانية استعادتها، أين تكمن نقطة الفحص التالية للمصداقية؟

عَبَر بلطف بعض من المحللين النفسيين، غير مهتمين باللعنة المخيفة للبدعة العلمية، التضاريس المذهلة طول الطريق إلى الحمل،

وهم لا يزالون يحتفظون بهالة من الأرثوذكسية.

يعتقد وينيكوت (١٩٥٨)، على سبيل المثال، بوجود حياة نفسية قبل الولادة. كتب أنه «بالاتفاق مع محللين آخرين»، يعتقد أن «الخبرة الشخصية للولادة مهمة، وتحتفظ بها الذاكرة» (ص ١٧٧). صبي في الخامسة من عمره «يدخل في معطفي [كذا] وينقلب رأسًا على عقب وينزلق على الأرض بين ساقي: وقد كرر هذا مرات كثيرة». هذا التصرف وتصرفات مماثلة في اللعب ودراما الأطفال والراشدين التي اتخذها لإعادة تمثيل الولادة الفعلية «يعرف جسد الطفل أنه وُلِد» (ص ١٨٠).

أكد أننا نستطيع

أن نفترض بالتأكيد أنه من الحمل فصاعدًا، يتطور الجسم والنفس معًا، مندمجين في البداية ويتميز أحدهما عن الآخر تدريجيًّا. ومن المؤكد أنه يمكن الحديث قبل الولادة عن نفس (منفصلة عن الجسد) لها مسار شخصي، بجانب استمرارية الخبرة. وهذه الاستمرارية، التي يمكن تسميتها بدايات الذات، تنقطع بشكل دوري بمراحل من رد الفعل على الارتطام[١]. تبدأ الذات في تضمين ذكريات المراحل المحدودة التي يؤدي فيها رد الفعل تجاه الارتطام إلى تعكير صفو الاستمرارية. بحلول وقت الولادة، يكون الطفل مستعدًّا لمثل هذه

(١) الارتطام **impingement**: في نظرية المحلل النفسي البريطاني وينيكوت (١٨٩٦-١٩٧١)، خبرة في بيئة الأم للرضيع يشعر أنها مزعجة. يُفترض أن تؤدي هذه الخبرات إلى تطوير الذات الزائفة لأن الرضيع قد يتطور من خلال سلسلة من ردود الفعل على الارتطام بدلًا من إدراك ميوله وقدراته الحقيقية باكتشاف البيئة وفقًا لشروطه الخاصة. (المترجم).

المراحل، واقتراحي أنه في حالة الولادة غير المزعجة، لا يتجاوز رد الفعل على الارتطام الذي تستلزمه الولادة الاستجابة التي يكون الجنين مستعدًّا لها بالفعل.

وهناك الآن مجموعة تقارير تتنامى بسرعة، بشكل رئيسي من علاج الأطفال والراشدين المضطربين، بواسطة المعالجين والمحللين الذين يبدو أن قراءتهم لخبراتهم السريرية أبطلت تمامًا تحفظاتهم حول إمكانية وجود عالم متطور داخل الرحم، منذ البداية[١].

تقدم جروف[٢] (١٩٧٥) عددًا من الروايات المسجلة بعناية عن الخبرات التي حدثت تحت تأثير عقار الهلوسة من نوع يبدو أنه يدعونا إلى الاعتقاد بأن الذكريات الحقيقية من العالم داخل الرحم وراءها أو ضمنها.

تنسب جروف الفضل إلى الواقع التاريخي لبعض هذه الخبرات. في إحداها، على سبيل المثال، شعر رجل بأنه مغمور في سائل جنيني ومثبت في المشيمة بالحبل السري. تدفق الغذاء إلى جسده من منطقة السرة وشعر بوحدة تكافلية مع أمه. بدت السوائل التي دارت بينهما وكأنها رابط سحري بينه وبينها. كانت هناك مجموعتان من أصوات القلب بترددات مختلفة اندمجت في نمط صوتي واحد متموج. كانت هناك أصوات صاخبة جوفاء أتت من حركات أمعاء أمه. كان يستطيع

---

(١) see Fodor (1949), Mott (1900), Peerbolte (1975), Lake (1978), Grof (1975). Also reviews by deMausc (1949), Verney (1981), Ploye (19 77).

(٢) كريستينا جروف Grof (١٩٤١-٢٠١٤): مؤلفة ومعلمة وفنانة ومعالجة نفسية أمريكية. (المترجم).

سماع أصوات غريبة من العالم الخارجي، وكان صداها مدويًا كما لو كانت تأتي عبر طبقة من الماء.

كثير من الناس لديهم خبرات مماثلة للخبرات تحت تأثير عقار الهلوسة، في خزانات الغمر، وبدون إثارة معروفة. في الجزء الثاني من هذه الدراسة نتناول بعض هذه الحالات بمزيد من التفصيل.

قد يذكر الناس تفاصيل واقعية جدًّا عن الوجود الجنيني. هل يمكن لمثل هذه المشاعر بأنك مضغة، وبدرجات الأزمة والتوتر والانزعاج وأشكالها داخل الرحم، أن تكون ذكريات حقيقية؟ يبدو أن الخصوصية الفردية لبعض هذه الخبرات تبدو بالنسبة لجروف أنها تؤيد احتمال أن تكون في الواقع عبارة عن خبرات معادة، كما يشعر بها الفرد ويفهمها في حينها.

وبرغم السهولة التي يعود بها وينيكوت وجروف وآخرون إلى ما وراء الولادة، فإنها تظل نقطة فحص استراتيجية للمصداقية. وفقًا لرأي وينيكوت، يمكننا أن «نفترض بالتأكيد» استمرارية نفسية جسدية ترجع إلى الحمل. وحين يتعلق الأمر بالسحق، فإن الحجة الأخيرة ضد مثل هذه النظرية هي التأكيد المضاد بأننا لا نستطيع افتراضه بالتأكيد. إنه أمر لا يصدق في المخطط العام عند فرويد. من الواضح أنه لا مكان له في هذا المخطط، لأن هذا المخطط لا مكان له. لذلك لا مكان له في هذا المخطط العام، بوضوح.

- ٦ -

يمكننا توسيع نطاق الاحتمالات في الخيال، يمكننا تعديل أو تأهيل خط حدودنا، وتقديم القليل أو أخذ القليل، بدون تهديد المخطط الموضوعي كله.

المذهل للبعض حقيقة إنجيلية للآخرين، ممن أمامهم البيانات الموضوعية المعقدة نفسها عن سلوك المُضَغ والأجنة والأطفال عند الولادة وبعد الولادة. تبقى البدعة بدعة، بالرغم من أن الموقف من مثل هذه البدع أصبح أكثر ليبرالية إلى حد ما. ينحاز بعض أطباء التوليد الآن إلى قابلة فرويد من الصفوف المتواضعة التي لم تحصِّل بشكل صحيح تعليمًا علميًّا، ويمكن للقابلات وأطباء التوليد وأطباء الأطفال وكذلك الأمهات والآباء وغيرهم أن يقولوا إنهم على يقين من أن الأطفال يشعرون بالولادة، بدون أن يُعتبَروا بالضرورة جهلة أو أغبياء أو معتوهين. إنها وجهة نظر تُناقَش وتؤخذ على محمل الجد.

كل مرحلة في نمو الإنسان من الحمل إلى الولادة قابلة للتأثر ببيئة ما قبل الولادة. قد تغير حساسية الجنين الواضحة تجاه الظروف في الرحم الأساس الحقيقي لوجوده. لا تؤثر التأثيرات السابقة للولادة على أنماط السلوك الظرفية فحسب، بل تؤثر أيضًا بشكل عميق ودائم على جميع الخصائص البيولوجية مثل معدل النمو الأولي، وكفاءة استخدام الغذاء، والبنى التشريحية، والصفات الفسيولوجية، والاستجابة للمثيرات، والتعبير الظاهري للراشد والكثير من آثار مثل

هذه التأثيرات المبكرة لا رجعة فيها (Kugelmass, in Ferreira, 1969, p. viii).

في هذه الملاحظات، المأخوذة من وجهة نظر موضوعية بحتة، لا يوجد انقطاع نظري في التأمل الموضوعي بين الجنين والراشد. وهي، مع ذلك، استمرارية موضوعية تمامًا[1]. إدراك الاستمرارية الموضوعية لأجهزتنا العضوية الفردية من بدايتها إلى نهايتها، من الحمل إلى الموت، وحتى إلى أكثر من ذلك، لاستمرارية نظامنا الجيني بقدر ما يمكن أن ننظر إلى الخلف، لا تزال غير متطابقة، أو منعكسة أو متأملة في النظرية النفسية، باستثناءات قليلة.

يتحدث الفيزيائيون والكيميائيون عن كيفية تعديل السلوك اللاحق لنظام مادي من خلال «الخبرات» الفيزيائية.

تعرُّض زيت بذر الكتان للضوء يحوله إلى صمغ.

---

(١) هذه الاستمرارية الموضوعية العلمية صرخة بعيدة عن السهل ومتحضرة للغاية نلمحها كثيرًا في إشارة عابرة. يقدم لنا آرثر ويلي قصة الصين القديمة، يكتب باو بو تزو (القرن الرابع الميلادي، Nei P›ien VIII)، «... اعتاد شقيق جدي كلما يكون مخمورًا جدًّا أو الطقس حارًّا بشكل مزعج، القفز في البركة والبقاء في القاع يومًا كاملًا. ما مكنه من القيام بذلك مجرد إتقانه لفن إغلاق التنفس وتنفس الرحم» (Waley, 1965, p.119). ويمضي ليخبرنا باختراع تقنية محددة لإنتاج هذه الحالة من النشوة. كانت السمة الرئيسية لهذه التقنية، كما هو الحال في الهند، معالجة التنفس ببراعة -يجب أن يكون التنفس رقيقًا وخفيفًا مثل تنفس الرضيع، أو كما قال أتباع مذهب الطمأنينة لاحقًا، طفل في الرحم (ص ٤٤). يجب أن يكون تنفس الحكيم، كما نقرأ في مقاطع كثيرة، مثل تنفس الرضيع. يذهب الكُتَّاب الطاويون اللاحقون إلى أبعد من ذلك، قائلين إنه يجب أن يكون مثل طفل في الرحم. إن «تنفس الرحم جوهر التحكم في التنفس»... (ص ١١٨).

قد لا يسبب التعرض لفترة قصيرة أي تغير يمكن ملاحظته. ولكن عند تعرض الزيت للضوء مرة أخرى، يتغير أسرع مما لو لم يكن قد تعرض للإضاءة بالفعل. «يتذكر» الزيت خبرته السابقة ويتصرف بشكل مختلف بسببها. تتكون ذاكرته من حقيقة أن الضوء يُنتِج، ضمن أشياء أخرى، مواد تساعد الأكسدة التي يسببها الضوء وتجعله صمغيًّا (Gerard, 1953, p.126).

إذا كانت الولادة وما قبلها حقبة قبل نفسية، فقد نكون أكثر انفتاحًا على التأثيرات البيئية الدائمة والارتباط الشرطي. حينها لا يكون لدينا نفسية **للدفاع** عنا ضد ما قد يحدث لنا.

تتفق فرايز Fries (١٩٧٧) مع فرويد وآخرين على أن الولادة وما وراءها قبل نفسية، على الأسس القديمة التي يجب أن تكون بسبب عدم اكتمال تطور الجهاز العصبي عند الولادة. إنها تأخذ هذا للإشارة إلى أننا في هذه الحقبة قبل النفسية أكثر حساسية وقابلية للتأثر والارتباط الشرطي من أي وقت لاحق. لا يتمتع الطفل عند الولادة وقبل ذلك بجهاز عصبي ناضج بما يكفي لتزويدنا بالمزايا الدفاعية لنفسية فعالة.

يبدو لنا [Fries and Woolf. 1953] أن الخبرات السلبية قبل النفسية في هذه الفترة من الحمل وحتى الأسبوع الثالث أو الرابع من الحياة تشكل الحالة الأصلية، التي تميل إلى التكرار بنشاط (ص ١١٩).

... الخبرات التي حدثت في فترة ما قبل تكون مادة الميالين لها تأثير مشابه للتأثيرات الوراثية... (ص ١٢٥).

يمكن للمرء أن يعطي القليل ويأخذ القليل بدون أن «يصعد التل».
يعتقد بعض علماء الأعصاب أن الطفل يكون له جهاز عصبي عند الولادة لإجراء عمليات عقلية أكثر تعقيدًا مما يفترض الآخرون أنه ممكن. لدى الطفل عند الولادة الكثير من خلايا الدماغ التي لدينا، وربما أكثر؛ قد يفقد القليل في هذه العملية. من يدري ما يمكن لدماغ الطفل أن يفعله؟ بالنظر في تحيزاتنا التي تتمحور حول الراشدين، لن نرى إلا دماغًا قد يكون دماغًا غبيًّا يترنح، إذا كان دماغ راشد أو حتى طفل. وهذه هي الطريقة التي ما زال كثيرون يرون بها الأطفال، باعتبارهم نوعًا من الأغبياء المترنحين.

يظهر النسيج العصبي بعد ثلاثة أسابيع من الحمل. ماذا عن الأسابيع السابقة؟ هناك قناعات قوية بإحياء عهود الخبرة البيولوجية وخبرات الروح خلال عدد لا يحصى من التجسيد، بالرغم من أن الأولى لم تمنح أي صلاحية للتالية.

لا ركيزة عضوية: لا نشاط عقلي. لولا صوت العقل العلمي، لما كان لدينا عقل، على ما أعتقد، لا يصدق رؤية مقنعة لتلك العهود، بيولوجية أو نفسية. لا يجب تفسير الرؤية الجنينية بأنها ذاكرة سراب، ذاكرة خاطئة، رؤية حالية، تصوير لشكل الحالة الراهنة، مع إسقاطها على الماضي. إذا كان لخبرتي أن تُصدَّق، في حياتي وأنا راشد، فقد تذكرت خبرات قبل الولادة بفترة طويلة وأعدت تمثيلها وواصلت إعادة تمثيلها. مثل آخرين كثيرين، شعرت في حالة من الوضوح الذاتي الكامل واليقين بأحداث ودراما من قبل الولادة، وقبل الحمل وقبل التجسد. تبدو هذه الخبرة، مقيَّمة بمصطلحاتها، كما هي بالضبط. لكن

العقل العلمي لا يقبل هذه المصطلحات، وبالتالي لا يمكن أن يبدأ منح كائن حي جنيني حالات صوفية ورؤى ودراما ومغامرات كونية.

هل يمكن أن يتعايش هذان التسلسلان الهرميان للمصداقية، مع أنهما يبدوان متنافرين؟

إذا انفجر سد عدم التصديق عند الولادة، فإن الانحدار التجريبي يتدفق في الأنسجة العصبية الجنينية ومن خلالها، إلى الكيسة الأريمية[1]، إلى الحمل. هناك سد أخير من عدم التصديق عند الحمل، ولكن إذا وصل الفيضان إلى الحمل، فمن المرجح أن يستمر... إذا استوعب المرء بالفعل إمكانية أن يلعب الوعي الكوني في زيجوت، فإنه يكون أبعد جزء من الجسد عن الموت والقيامة.

إلى أي مدى يكون المرء مستعدًّا للذهاب؟

يتكهن جون ليلي (١٩٧٢) بأنه،

> يبدو أن لبعض أنواع المواد التي تُستحضر من التخزين خاصية الانتقال في الزمن إلى ما وراء بداية هذا الدماغ إلى الأدمغة السابقة (ص ١٢).

إذا كان هذا ممكنًا، فإن المخزون المحمول الذي قد تستحضر منه «بعض أنواع المواد» ينبغي أن يُحمَل بين الأدمغة عبر الماضي قبل العصبي لحيواتنا.

إذا سلمنا بإمكانية حدوث الخبرة في وقت الولادة الفعلية، فإن الاستحالة التالية التي تواجهنا هي الاستحالة الأكثر فظاعة للارتباط بين السيتوبلازم والخبرة، قبل ظهور النسيج العصبي.

---

(١) الكيسة الأريمية **blastocyst**: البويضة الملحقة بداية من اليوم السادس في الحمل. (المترجم).

لماذا تأخذ هذه القضية هذه الأهمية؟

نحن مخلوقات بعيدة الاحتمال بمعنى الكلمة من مادة واعية أو عقل مادي يمكن أن نراهن على من هو أكثر استحالة منا، مادة طائشة أو عقل غير مادي. لا يتطلب الأمر إلا دفعة ضعيفة لفتح باب إمكانية الخبرة غير المجسدة. بدأ الضوء في الفجر، أو بدأ العفن بالفعل.

أحد الأسئلة الأربعة عشر التي عُرف عن بوذا أنه رد عليها بالصمت السؤال عما إن كانت هناك حياة قبل هذه الحياة أو بعدها. ولا نعرف أنه ذكر سبب الصمت. من يعرف من يعرف؟

القضايا التي أثيرت من خلال معارضة خبرات التناسخ وعدم التجسد والذاكرة البيولوجية والحقائق الموضوعية تجذب العقل إلى متاهة من التكهن قد يبدأ المرء في وسطها في الشك في إمكانية وجود مخرج. ومع ذلك، فقد دخل المرء فيها بدايةً.

الإيمان بدورة التناسخ منتشر في كل أرجاء العالم. سيطر على حضارات بأكملها. لا أستطيع أن أتخيل كيف نشأ الاعتقاد بدون الخبرة. لم أتخيل الخبرة بدون الخبرة. السؤال هو: هل يؤمن المرء بالخبرة؟ إن ثقافتنا الغربية، في أديانها وعلومها وفلسفتها وحسها اليومي، تستثني هذه الحلقة من اختصاصاتها. ومع ذلك، فإن خبرة التكرار تستمر في التكرار.

في كل أرجاء العالم قصص واقعية كثيرة عن الحيوات الماضية، وعدد قليل من المحاولات الموضوعية الرصينة حقًّا لربط الذكريات المشهورة بالواقع التاريخي الموضوعي، وبلا شك، تمت بعض

الارتباطات التفصيلية للغاية، ويبقى بدون تفسير إن كانت تقنع أو لا تقنع غير المؤمن بها أو المشكك فيها.

يكاد يكون من المستحيل تصديق أن مثل هذه الخبرة بلا وظيفة. لا يمكن بأي حال من الأحوال تفسيرها برفضها باعتبارها هذاء وهلوسات عقل عاجز عن الوصول إلى ملاذ التخلص من الأوهام العلمية.

لا تفترض المناقشة الحالية تقديم إجابة على هذه الأسئلة المحيرة. أقنع بأن أتذكر هنا وجود مثل هذه الخبرات الإشكالية، وأطرح السؤال عن نوع الصلاحية، إن وجدت، التي يمكن التسليم بها موضوعيًّا أو رمزيًّا أو علاجيًّا أو تاريخيًّا أو اجتماعيًّا أو وجوديًّا أو روحيًّا. إلى جانب مسألة ما إذا كنا «نصدقها» أم لا، هناك حقيقة موضوعية بأنها أشكال وأنماط عالمية ومتكررة تلقائيًّا لخبرة الوجود البشري. يجب إعطاء هذه الحقيقة أكثر من مجرد نظرة خاطفة.

مهما تكن ارتباطاتها الموضوعية، فإن تذكر الحيوات الماضية تدريب أساسي في بعض مدارس البوذية والتخصصات الروحية الأخرى. وهو عنصر أساسي في الكثير من العبادات الباطنية. وليس غير مألوف في الخبرات التي تجلبها المخدرات. هناك معالجون متخصصون في تناسخ الأرواح «يستخدمون» الموت و«أساسيات» الباردو[1]. من المضحك أنه حتى في الممارسات المعاصرة في

(١) الباردو **Bardo**: في بوذية التبت، حالة من الوجود بين الموت والبعث، تختلف في الطول وفقًا لسلوك الشخص في الحياة وطريقة موته وعمره عند الموت. (المترجم).

ثيرافادا[1] وزن، وليس لدى أي منهما وقت لمثل هذه الأمور أكثر من أي أرثوذكسية غربية، يقع الرهبان في التأمل بلا قيود في مراحل دورة من دورات هذا النكوص.

النكوص في الخبر بلا نهاية. يعود النكوص إلى الولادة والحياة داخل الرحم والحياة قبل الرحم. ظاهريًّا، قد يتبع هذا النكوص جيناتنا مرة أخرى عبر استمراريتها البيولوجية، أو يتبع مسار دورة التناسخ. قد تكون الفترات بين حياة وأخرى أي عدد من السنوات. قبل أن نفرض نظرية ثانوية على هذه الدورات البيولوجية وتناسخ الأرواح التي تحدث في الخبرة البشرية، علينا أن نسمح لها بالظهور (Weil, 1977).

ليس على المرء أن يواجه أي خبرة ليصدق أنها صحيحة أو خاطئة. إذا اعتقد المرء أنها خاطئة، من الخارج، فلا يمكن للمرء أن يعرف إن كانت الخبرة، إذا دخلها أحد، قد لا تحول المرء إلى الإيمان بها. قد يتطلب هذا تشكيلًا متحركًا لرؤية كونية[2] كاملة. لا توجد طريقة لمعرفة إن كان مثل هذا التغيير قد لا يكون وقوعًا في الهذاء. لا يستطيع المبتدئ أن يعرف يقينًا أنه يعرف يقينًا. ولا يستطيع غير المبتدئ أن يعرف يقينًا أن المبتدئ يهذي.

---

(١) ثيرافادا **Theravada**: التقليد الأكثر تحفظًا بين التقليدين الرئيسيين للبوذية. يُمارس بشكل رئيسي في سريلانكا وميانمار وتايلاند وكمبوديا ولاوس. (المترجم).

(٢) رؤية كونية **Weltanschauung**: بالألمانية في الأصل. (المترجم).

- ٧ -

لدى يونج وقت أطول مما لدى فرويد لفينومينولوجيا نكوص ما قبل الولادة، سواء أكان فرديًّا أم تطوريًّا أم تناسخيًّا. ومع ذلك، فهو يرفض الصلاحية الموضوعية للثلاثة كلها.

ويوضح موقفه من مثل هذه الأمور في تعليقه النفسي على ترجمة إيفان وينتز كتاب **الموتى التبتي**[١]:

> بدلًا من ذلك، يتمنى المرء لو أن التحليل النفسي الفرويدي استطاع أن يتابع بسعادة ما يسمى بالخبرات داخل الرحم التي لا تزال ترجع إلى الوراء؛ لو نجح في هذه المهمة الجريئة، لكان بالتأكيد قد خرج إلى ما وراء سيدبا باردو وتوغل من الخلف إلى الروافد السفلية لشونيد باردو[٢]. صحيح أنه مع أدوات أفكارنا البيولوجية الحالية لم يكن مثل هذا المشروع ليتوج بالنجاح. كان سيحتاج إلى نوع من الإعداد الفلسفي يختلف تمامًا عن ذلك القائم على الافتراضات العلمية الحالية. لكن، لو تمت متابعة الرحلة باستمرار، لأدى ذلك بلا

---

(١) كتاب الموتى التبتي **The Tibetan Book of the Dead**: كتاب التبت للموتى هو نموذج للنثر الأدبي التبتي وتعليق مقنع على الخبرة العالمية للموت والموت من منظور بوذي. منذ نشره باللغة الإنجليزية لأول مرة في عام ١٩٢٧، تبين أنه الكتاب الأكثر شعبية عن البوذية التبتية في العالم الغربي. (المترجم).

(٢) سيدبا باردو **Sidpa Bardo**: حالة هلوسة موصوفة في كتاب الموتى التبتي حيث يعد وعي الميت، متأثرًا بالكارما ومحتلًّا جسدًا مشعًّا، للقيام برحلة إلى عوالم الوجود الستة. والتحضير للبعث. شونيد باردو **Chonyid Bardo**: أو باردو خبرة الواقع، يتميز بخبرة رؤى لأشكال بوذا المختلفة، أو أقرب تقريب يمكن للمرء القيام به. (المترجم).

شك إلى افتراض وجود قبل الرحم، حياة باردو حقيقية، لو كان من الممكن فقط العثور على أثر لموضوع الخبرة. ولأن المحلل النفسي لم يتجاوز قَط الآثار التخمينية البحتة للخبرات داخل الرحم، وحتى «صدمة الولادة» الشهيرة ظلت حقيقة بديهية لدرجة أنها لم تعد قادرة على تفسير أي شيء، أكثر مما تستطيع فرضية أن الحياة مرض يتدهور لأن نتيجته مميتة دائمًا (p. xiv).

ومع ذلك، فبقدر ما تاق أحيانًا بعد أن استفاد من الاختيارين (وهو عمل لطيف إذا استطاع المرء أن يفعله)، ظل حكمه النقدي ملتزمًا بالعلوم الغربية أساسًا. وحين تأمل التشعب الراسخ المتأصل في الواقع النفسي والواقع الموضوعي، أخذ هذه الثنائية الفينومينولوجية ليعكس تشعبًا أساسيًّا في الواقع من النوع الذي حذرَنا منه وايتهيد.

في نبرة يونج في المقطع السابق نكهة عقائدية ساخرة أكثر مما فيها من مذاق التهكم التأملي الذاتي. يفقد هو وفرويد وكثيرون غيرهما حس الفكاهة في مشهد العقل الغربي في تراجع كامل عبر عالم الفانتازيا الجنسية الطفولية إلى الرحم، حيث يصل العقل الغربي، كما يقول، إلى حدوده، وربما إلى ما بعدها. ويشعران كلاهما بأنهما مدعوان إلى لعنة البدع العلمية التي تميل مثل هذه الخبرات إلى جعلها تتكاثر.

ومن المفارقات إلى حد ما أن يونج يحتقر التكهنات الغربية التي لا تكون تقريبًا مخزية علميًّا بقدر ما يكون النص الذي يتعامل معه بمثل هذا الاحترام. وهذا الاحترام لا يمكن إلا أن يلطفه السماح الذي عليه تقديمه للغياب الرقيق لاختراعنا الغربي للتمييز بين الواقع النفسي والموضوعي.

الفصل السادس

رابطة ما قبل الولادة

- ١ -

سمعت العذراء مريم أنها حبلت بالروح القدس من رئيس الملائكة جبرائيل. تتلقى نساء كثيرات خبر أنهن حوامل من المختبر. ويبدو أحيانًا أن الأخبار تأتي بشكل أكثر مباشرة.

تلاحظ امرأة في كتاب أحلامها حلمًا لم يكن له معنى في حينها، ولم تكن تتذكره. بعد مرور عام، وهي الآن أم لطفل عمره ثلاثة أشهر، تقلب الصفحات في كتاب أحلامها، وتصادف الحلم التالي:

«قطعة من اللبان تسير على سلم كهربائي إلى جراج».

افترضت أن هذا الحلم حدث بعد ثلاثة أو أربعة أيام من الحمل. لم تكن تعرف بوعي تشريح الأعضاء التناسلية الداخلية، ولا علم وظائف الأعضاء التناسلية، ومع ذلك، من يدري، ربما نظرت في رسوم توضيحية وقمعت انطباعاتها. قطعة من اللبان، وسلم كهربائي، وجراج، أمور بعيدة في ذاتها. تُجمَع معًا من خلال ما يجمعها معًا، أي ما ترمز إليه.

وحدة الحالة الجنينية وحدها تجمع قطعة من اللبان، وسلمًا كهربائيًّا، وجراجًا، باعتبارها عناصر قصة متماسكة. قطعة اللبان الكيسة الأريمية، والسلم الكهربائي قناة المبيض، والجراج الرحم.

يقدم لها حلمها سيكولوجم[١]، وهو في الواقع صورة رمزية للحالة في إحدى قنوات الرحم، وكل ذلك بدون علم أناها الشعورية.

ويمكن أن نقول بأمان إننا لا نعرف كيف يُترجَم الحدث البيولوجي المجهري الخفي لنزول بلاستولا[٢] عبر قناة الرحم إلى الرحم في جسدها إلى قطعة لبان تنزل على سلم كهربائي إلى جراج في حلمها.

يتم ربط حالة بيولوجية غير مسجلة بوعي، بطرق ووسائل لا نعرفها، بالحلم ومن خلاله، وبالعقل اليقظ. يجب أن تكون هناك عملية وساطة، مسار ما بين النمط في الجنين[٣] والحلم.

---

(١) سيكولوجم **psychologem**: عند يونج، بنية نفسية نموذجية من العصور القديمة. (المترجم)

(٢) بلاستولا **blastula**: إحدى المراحل المبكرة في تطور الجنين في الرحم. (المترجم).

(٣) ليس من المنطقي تفسير حلم الدخول هذا على أنه انعكاس لحلم الخروج، على طريقة فرويد وجونز ورانك وفودور وروهايم ووينيكوت وآخرين.

- ٢ -

كتب شنايدر (١٩٥٦)، وهو طبيب قلب وطبيب نفسي عصبي، أن الحلم يمكن أن يكون «... مؤشرًا معصومًا من الخطأ عمليًّا للحمل ولجنين قابل للحياة».

تذكر امرأة شابة متزوجة تأخرت دورتها حلمًا بوجود صندوق حذاء مفتوح. قفزت قطة صغيرة نابضة بالحياة بشريط وردي حول رقبتها في الصندوق.

> بدأت جوانب صندوق الحذاء على الفور تُطوَى وحدها ثم طورت على ما يبدو سوستة تغلق تلقائيًّا صندوق الحذاء بإحكام وشعرْتُ بالقطة الخائفة تضرب في الصندوق وعلى جوانبه (ص ٣٧).

كان تفسيره للحلم أنها حامل، وقد تأكد ذلك.

يعتبر شنايدر أحلام الدخول هذه، في مثل هذه الظروف، أحلام غرس فعلية. في هذه الحالة، يتذكر تطور القلب الجنيني ويقترح أن السوستة التلقائية وصف لبشارة القلب. «كل سن صغيرة من السوستة» تمثل «النبضات السريعة جدًّا للشريانين الجنينيين المتجاورين، كل منهما على جانب من خط الوسط» و«التأسيس الفعلي لعملية الحركة الأساسية (منظم ضربات القلب والجهاز التنفسي) التي تندمج بواسطتها الشرايين النابضة في النهاية وتصبح أكثر سماكة وتلتف وتنزل من عنق الجنين لتصبح القلب» (ص ٣٨).

يتحدى تفسير شنايدر نقطة فحص استراتيجية محتملة. إنه يطلب منا أن نصدق إمكانية أن تحلم المرأة حلمًا لا يصور فقط العمليات الجسدية الجنينية المعقدة الدقيقة، ليس لديها أي فكرة واعية عنها، في جنين عمره ثلاثة أسابيع في رحمها، لكنه يصور أيضًا مشاعر جنينية. إذا سلمنا بإمكانية مثل هذا الانتقال، فإن هذا كله يقع بالضبط في المكان الذي يحدده له شنايدر. لكن في الخطاب الموضوعي، من الصعب جدًّا البدء في تخيل مثل هذا الاحتمال بدايةً. وإذا كان من الممكن تصور ذلك، تكون فرضية شنايدر محتملة على الفور بطريقة لا يمكن مقاومتها تقريبًا. وإذا كانت ممكنة، فمن الصعب البدء في تخيل تفسير أكثر معقولية. هل يمكن أن يكون الحلم صائبًا؟ هل يمكن أن نشعر بالفعل وعمرنا ثلاثة أسابيع؟ هل يمكن أن تخاف قطتها في صندوقها المشيمي؟ فكر في عدد المفاهيم الأساسية التي يجب التضحية بها للتسليم بمثل هذا الاحتمال! إذا كان من الممكن أن يخاف جنين عمره ثلاثة أسابيع، فهل يمكن أن يشعر كيس الأريمية؟ الزيجوت؟ مرة أخرى، أين ينتهي؟

هل من الممكن أن تتواصل الأم والجنين بطريقة ما من طرق توارد الخواطر عبر الشخصية؟

العالم مليء بالقصص التي يتواصلان فيها. لماذا، حين يكون الأمر شائعًا جدًّا، يعتبر خارقًا جدًّا؟ يمكن الاعتراف بأن الخطاب الموضوعي قصة. بالنسبة للبعض، الاعتراف بإمكانية أن يكون الأمر حقيقة قد يدمر الواقع، بقدر ما يكون إنكار إمكانية وجوده تدميرًا للواقع بالنسبة لآخرين.

إنه يتثقف خارج الواقع الثقافي الذي يدمره واقعه.

يكتب إهرنوالد[1] (١٩٧٨): «الإنسان الغربي وثقافته مبرمجان بطريقة تمنع عودة... التخاطر والظواهر ذات الصلة، وإذا لزم الأمر، يعاقب عليها بكل وسائل الرفض والنبذ الاجتماعي... أصبح رفض عامل التخاطر من أوقات ما قبل الولادة وإنكاره إلزاميًّا في ثقافتنا» (ص ٢٥).

ما دمنا بهذه الصورة، فربما يكون من العدل أيضًا أن نستمر في رفض هذه الظواهر وإنكارها. وإذا أهملناها تمامًا فسيكون ذلك أفضل من معاقبتها ونبذها بكل الوسائل في توجهنا الإكلينيكي. ومع ذلك، حتى العقاب والنبذ يمكن أن يكونا خيارين أكثر ليونة من الأساليب الأكثر تطورًا للتحكم والتلاعب، التي تمثل الاحتمال الوحيد إذا بدأ العلم الموضوعي في تناول هذا النوع من «الهراء» بجدية.

بعض أحلام الدخول وفانتازيا الدخول في الأدبيات حول أحداث في أثناء الحمل تأتي في الواقع من الحوامل. ومع ذلك، يقول شنايدر (١٩٥٦) إن أحلام الدخول في خبرته الإكلينيكية تبشر بالحمل عادة.

تشير مثل هذه الأحلام التي حلمت بها النساء بعد فترة وجيزة من الإخصاب إلى أننا قادرون على أن نحلم بأحداث لم نكن لنحلم بأننا نستطيع أن نحلم بها. بقدر ما أعرف، لا توجد مجموعة من أحلام ما بعد الحمل موثوقة ومؤرخة بدقة. لكن حين يدخل الفأر حفرة في المنام، أو

(١) جان إهرنوالد **Ehrenwald** (١٩٠٠-١٩٨٨): طبيب نفسي تشيكي أمريكي اشتهر بعمله في البارا سيكولوجي. (المترجم).

يدخل غرفة ما، فمن المغرض أن نفترض، كما يفترض رانك، وفودور، وبيربولت، وآخرون، أننا في ظل فانتازيا العودة إلى الرحم، ناهيك عن ذكرى ما قبل الولادة.

ومع ذلك، لنتخيلْ لحظةً نوعَ الاحتمال الذي يظهر في اللحظة التي نفتح فيها، ولو بشكل طفيف، غطاء صندوق باندورا للاحتمالات. نسجل كل ما يحدث لنا ونشعر به بطريقة تستحق أن تسمى نفسية. تتواصل المُضَغ مع الأمهات بالتخاطر. وعادة ما يتلاشى هذا الاتصال بعد الولادة. تُحفَظ استمرارية نظام دعم الحياة في الرحم السري في نمط الرابطة المتصلة بين الطفل والأم، الآن من خلال العينين مع العينين والبشرة مع البشرة، والصدر والحلمة والفم. المسألة إذن ليست إقامة رابطة قوية بعد الولادة، بل عدم فقدان خيط الاستمرارية منذ ما قبل الولادة.

يمكن أن يكون الحبل السري المقطوع رمزًا لاستحالة استعادة وحدة مزدوجة، يرمز إليها بدوره الحبل السري الذي كان يعمل بسعادة. القطع غير قابل للعلاج.

يبقى الجزء المنفصل من الحبل السري المقطوع والدورة الدموية. وهو شيء يمكن الخلط بينه وبين الإخصاء. قد يخف الإحساس بالانقطاع إلى الأبد مؤقتًا إلى حد ما بترسيخ شعور سُرِّي عبر القضيب في المهبل. مرة أخرى نكون واحدًا. كل شيء على ما يرام رغم كل شيء.

* * *

الجزء الثاني

البهجة الجميلة التي اعتقدها الآباء؛ الحافز
القوي، الحياة ووخز مثل لهب أنبوب النفخ،
يتنفس مرة، ويخمد أسرع مما جاء،
يترك العقل أمًّا لأغنية خالدة.
تسعة أشهر بعد ذلك، لا سنين، تسع سنوات طويلة
داخلها ترتدي، تتحمل، وترعى وتتشكل بالقوالب نفسها:
فقدت أرملة البصيرة حياتها، بهدف
وقد عرفت الآن واليد الخبيرة لا تخطئ أبدًا.
نار حلوة يا مولاي، روحي تحتاج إليها؛
أريد نشوة الإلهام الوحيدة.
ثم إذا فاتتك في الصفوف المتأخرة
اللفة، الصعود، الترانيم، الخلق،
عالمي الشتوي، الذي بالكاد يتنفس ذلك النعيم
الآن نقدم لك تفسيرنا، ببعض التنهدات.

جيرارد مانلي هوبكنز

الفصل السابع

أنماط علم الأجنة وعلم النفس والأساطير

- ١ -

إننا نقسم الواقع إلى شرائح نفسية داخلية وموضوعية خارجية، ولا نأمل إلا في أن يتوافق الواقع بلطف مع تقسيمنا له. يحدث العكس. لا تلتزم الأجزاء الذاتية أو الموضوعية بالمجالات المنفصلة التي نخصصها لها. كل منهما مستحيل دائمًا بدون الآخر وبالنسبة للآخر. يجب أن يكون شرط إمكانية وجود الاثنين سابقًا على كل منهما، وبينهما، وخلفهما، وما بعدهما.

نلقي نظرة على الأنماط التي تحدث في علم الأجنة، وفي علم النفس، والأساطير.

ننظر في أنماط علم الأجنة وعلم النفس والأساطير. وأضع أمامك بعض الأنماط في هذه المجموعات المختلفة، التي يبدو أن التعبير عنها يتم في أجسادنا وعقولنا وفي الطقوس الأسطورية.

في كل حالة، يكون النمط الموجود في الأنماط، النمط المشترك، التيمة داخل الاختلافات، بلا اسم خاص به.

الأنماط التي نتناولها ليست غامضة، إنها كلها مواضع شائعة ومعروفة جيدًا في علم الأجنة وعلم النفس وأنثروبولوجيا الأساطير والطقوس.

لا يزال من غير المألوف التعرف على التشابه الشكلي بين تسلسل جنيني معروف للأنماط، على سبيل المثال تحولات علاقة المضغة والأرومة الغذائية[1] بالتسلسل النفسي والأسطوري. ونحاول التركيز على بعض الأشكال أو العوامل الشكلية الشائعة في كل مجال.

لن تصل مناقشتنا إلى المطلوب ما لم نتفق على أن النمط المطروح موجود في كل مجال. وقد قصرت نماذجي على تلك التي آمل أن أجد فيها اتفاقًا عامًّا على أن النمط **موجود** بالفعل، وبطريقة منطقية عادية، وليس كإسقاط على بقعة حبر.

وسنجد أنفسنا مرتبكين لعدم وجود أسماء للنمط المشترك في مختلف المجالات، بالرغم من أن لدينا أسماء للتكوينات المنفصلة في هذه المجالات المختلفة. هناك نمط سُرِّي ونمط الصولجان. لدينا اسم لكل منهما ولكن ليس لدينا اسم لما يظهر من خلال كل منهما. قد يكون هذا الاسم للنمط الشائع هو نفسه اسم أحد الأنماط. يُعير أحد أعضاء مجموعة بيولوجية أو نفسية أو أسطورية اسمه لفئة أخرى. وتبدو وسيلة جائزة ما دمنا نتذكر أن هذا هو الوضع.

---

(١) الأرومة الغذائية **trophoblast**: طبقة من الأنسجة على السطح الخارجي من الثدييات الأريمية، تزود الجنين بالتغذية وتشكل لاحقًا الجزء الأكبر من المشيمة. (المترجم).

قد تأخذ المجموعة اسمها من أحد أعضائها. لكنها تبسط الحياة حتى لا نضطر إلى تسمية اللون لونًا.

قد يظهر نمط جزيئي في حلم. قد يكون نمط في حلم كنمط فسيولوجي شكليًّا. قد يكون نمط فسيولوجي مماثلًا جدًّا لنمط اجتماعي.

يمكن أن يطلق رينيه ثوم على الانقطاع الرياضي كارثة سُرِّية أو كارثة الفراشة[1] بدون الإشارة إلى أن الحبال السرِّية أو الفراشات نماذج أولية للنمط الذي يوضحه كل منهما.

في مقارنة الأشكال المتباينة والمترابطة، التحولات والتسلسلات في علم الأجنة، الخبرة الحالية وغيرها، لا يسعنا إلا أن نتساءل عن كيفية حساب أوجه التشابه بينها.

سنستخدم أحيانًا مفردات علم الأجنة لأنماط الأحداث في مجالات علم الأساطير وعلم النفس، ونأمل أن نتجنب إغراء افتراض وجود صلة مباشرة بين الأحداث الجنينية والنفسية والأسطورية لمجرد أنها تظهر أحيانًا أنماطًا متشابهة، وربما الأكثر وضوحًا، لأنه يجب رؤية **تسلسلات** تحول الأنماط نفسها قبل الولادة وبعد الولادة، جسديًّا وذهنيًّا.

درسنا بالفعل بعض المقترحات المقدمة في هذا المنعطف وبعض الطرق التي تم بها تناول القضايا. ونأمل أيضًا في مقاومة الإغراء الآخر باتخاذ قرار باقتناع تام بأنه لا **يمكن** وجود مثل هذه الروابط بين هذه المجالات.

---

(١) ثوم **Thom** (١٩٢٣-٢٠٠٢): عالم رياضيات وفيلسوف فرنسي. كارثة الفراشة **butterfly catastrophe**: كارثة يمكن أن تحدث لأربعة عوامل تحكم ومحور سلوك واحد. (المترجم).

- ٢ -

واجه أناس كثيرون ولاحظوا أشكالًا ومحتوى وتسلسلات جنينية وداخل الرحم في الحياة النفسية والأساطير.

وكان لأوجه التشابه المذكورة في معظمها طبيعة عامة، لترتيب الرحم مثل عالم والعالم مثل رحم، إلخ، لم تؤثر بعد بشكل خطير على الميل السائد لإهمال الحقيقة البيولوجية بأن حياتنا تبدأ من الحمل، تمامًا كما يجب تصوُّر الفكرةِ قبل ولادتها.

تحدث الخبرة والسلوك اللذان يظهران في أشكال ما قبل الولادة بين الناس المعاصرين العاديين، بشكل فردي وجماعي، ليس فقط بين من يمرون بمرحلة خاصة من النكوص إلى داخل الرحم وتُعتبر خبراتهم غالبًا إحياء فعليًّا للحالة الفعلية قبل الولادة. أكرر: تُستخدم مصطلحات ما قبل الولادة لمشاعر بعد الولادة، وفانتازيا ما بعد الولادة، وسلوك ما بعد الولادة، بدون التحيز لارتباطها شرطيًّا بأحداث فعلية قبل الولادة أم عدم ارتباطها. القناعة، أو التفسير، بأن تلك الأوصاف التصويرية لم تؤيدها. إن كان للمرء أن يحيي فعليًّا ما عاشه حقًّا وفعليًّا قبل أن يولد يظل سؤالًا مفتوحًا.

تحدث أنماط ما قبل الولادة في حياة ما بعد الولادة. تتكرر أنماط ما قبل الولادة كثيرًا في الأحلام والفانتازيا والمشاعر، في مخطط الجسد وصورته، في الرؤى، وفي أكثر حالات العقل ألفة.

وبالرغم من أن بعض الناس أدركوا انتشار هذه الأنماط في كل مكان، فإنها لم تُعرض عليهم حتى الآن في أي نظرية حديثة منهجية عن أنفسنا.

هناك مفردات متناثرة للغاية لهذه الأنماط كما في علم النفس والأساطير. ومع ذلك، فإن الأشكال والتسلسلات الجنينية المتماثلة للغاية موصوفة بالفعل بطريقة متماسكة ومنظمة ومنهجية، بالمصطلحات المقبولة في جميع أنحاء العالم، التي تبدو مستقرة ووجدت لتبقى. يبدو أنها قادرة على تزويدنا باستعارة جاهزة وممتدة.

ذواتنا الجنينية استعارة من استعاراتنا.

أفضل أن يكون أحد مجالات وجودنا استعارة لمجال آخر بدل الاضطرار إلى اللجوء إلى إعادة صياغة أنظمة مثل الخيمياء من أجل المصطلحات الضرورية أو ابتكار رطانة أخرى بمصطلحات جديدة طنانة.

عند استدعاء بعض أنماط علم النفس بأسماء متشابهة شكليًّا إلى حد ما مع أنماط من علم الأجنة، يجب أن نحرص على ألا نربك أنفسنا بمهارة وبشكل جذري، وألا نتعرض للخداع، بالاعتقاد بأن التشابه الشكلي بحد ذاته رابط ديناميكي حقيقي وفعلي بين الواقع الجنيني والواقع النفسي للراشدين، حيث يمكن، بطريقة أو بأخرى، أن تُحدث الأنماط النفسية وتتأثر بأحداث جنينية حقيقية، بالرغم من أن وجود التطابقات النفسية الجنينية ذاتها يدفع إلى اقتراح أن الأحداث الجنينية الحقيقية في حيواتنا تقدم مساهمة ضرورية لحدوثها.

لا نقترح أنه حين يتكرر نمط لكوكب في المادة وفي العقل، فإن النمط في أحد الكواكب يصمم النمط في الآخر، لكن حياتنا وحدها، حاليًّا، وحدة، من الحمل إلى الموت، تضم اختلافات كثيرة في تيمة تشملها. ولا يوجد سبب يمنع حدوث أنماط مماثلة في أي جانب من جوانب تلك الوحدة، الجنينية، والنفسية، والجسدية، والروحية.

* * *

الفصل الثامن

الوحدة المزدوجة

- ١ -

تتكرر أنماط ما قبل الولادة في حياة ما بعد الولادة باختلافات كثيرة، وتبرز بأشكال مختلفة.

في خمسينيات القرن العشرين، كان من الممكن أن أرى شخصًا في زنزانة مبطنة، مكوَّمًا على الأرض، عاريًا، يرتعش من المنبهات، غير مبالٍ بالطعام، يتغذى بأنبوب، ويتبول على نفسه. المقارنة بجنين في الرحم، تكتمل بالحبل السري (الأنبوب) والمشيمة (القُمْع)، لا تُقاوَم لدرجة أن النكوص إلى داخل الرحم يُستخدَم مصطلحًا وصفيًّا عمليًّا لتمييز هذا النمط. لكن ماذا يعني ذلك؟ سؤال لم يُجب عليه أحد حتى الآن، على الأقل بشكل يرضي أي شخص آخر تمامًا.

هنا أريد أن أتناول بعض أشكال الرحم المشيمية الجنينية هذه كما تظهر في الأساطير القديمة والخبرات الحديثة، غالبًا بدون نكوص درامي في السلوك اليومي.

كانت الآلهة الجنينية موضوعًا شائعًا في أساطير العصور القديمة (Briffault, 1927, Needham, 1975).

في مراجعة النمط الأسطوري للجنين الذهبي[١] والمواضيع ذات الصلة، كتب هكسلي (١٩٧٩): «من المؤكد أننا نتعامل مع رؤية للحياة الجنينية هنا» (ص ٢٨، ٢٩).

التطابق البيولوجي والأسطوري قوي لدرجة أنهما يلتحمان تقريبًا. تندمج بيئة الرحم مع أرض الذرية حيث تنمو شجرة مشيمة سرية يملكها خمبابا[٢]، الجنين اللورد لغابة الأرز.

> قضى جلجامش ورفيقه إنكيدو عليه بقطع أكبر شجرة له، التي لا بد أنه كان يعيش فيها. ومع ذلك، فإن المثير للفضول بشأنه أنه كان يسمى أيضًا حصن الأمعاء - وهو لقب يمكن أن يُمنح بسهولة لفارونا[٣] - وكان وجهه مصنوعًا منها. بالإضافة إلى ذلك، حدد البعض خمبابا بأنه كلب الماء للنجم بورسين الكلب الأصغر. يمكن فهم كل هذا إلى حد ما من أساطير أمريكا الوسطى والجنوبية التي تتحدث عن شجرة ماء أصيلة تحمل بذور كل أشكال الحياة على أغصانها وعند قطعها ينهمر الطوفان على الأرض. ويوحي هذا بأن شجرة الماء التي تنمو في حصن الأمعاء لها شكل الحبل السري مع جنين ذهبي في أحد طرفيه وورقة لوتس المشيمة في الطرف الآخر (ص ٢٢).

---

(١) الجنين الذهبي **Golden Embryo**: ترجمة للمصطلح السنسكريتي **Hiranyagarbha** ويُترجم إلى «الجنين الذهبي» أو «الرحم الذهبي» أو «البيضة الذهبية». وهو أيضًا اسم مؤسس اليوجا. (المترجم).

(٢) خمبابا: ولقبه الرهيب، عملاق وحشي وكان حارس غابة الأرز، حيث تعيش الآلهة. (المترجم)

(٣) فارونا **Varuna**: إله المحيطات. (المترجم).

لم يكن في علم الأجنة الأسطوري أو أساطير علم الأجنة شيء حتى ذلك الوقت لتقديم علم الأجنة العلمي. وفقًا لما ذكره نيدهام (المرجع السابق)، لم تكن الرؤى الأسطورية للحياة الجنينية مفيدة لأي اختصاصي في علم الأجنة. لم يستفد علم الأجنة العلمي من الأساطير أو الرؤى الجنينية أو العقيدة اللاهوتية أو التكهنات الغنوصية، ولا يبدو أن هذه المجالات تعلمت شيئًا من علم الأجنة العلمي.

إن تواتر الصور الذهنية الجنينية في محتوى الأساطير والفانتازيا لا يمثل مؤشرًا لإمكانية وجود معرفة عميقة بالوجود داخل الرحم.

الكيس الأمنيوسي ومياهه والحبل السري والمشيمة والجنين والرحم والمهبل كلها أشياء ترى بالعين بعد الولادة.

قد يتم إقحامها في خدمة أسطورية، كجزء من البريكولاج[1]، وكذلك أي أشياء أخرى بعد الولادة.

في الواقع، لا يتم التعبير عادة عن الأنماط الجنينية في حياة ما بعد الولادة من خلال المحتوى الجنيني. والأكثر شيوعًا أن تكتسي بصور ما بعد الولادة، كما هو الحال حين يكون القمر المشيمي متصلًا بشامان جنيني بحبل سُرِّي فضي.

---

(١) البريكولاج **bricolage**: (في الفن أو الأدب) البناء أو الإبداع من مجموعة متنوعة من الأشياء المتاحة. (المترجم).

- ٢ -

لنتناولْ نمط الوحدة المزدوجة كما يظهر في صورة التركيب البيولوجي لأنفسنا داخل الرحم (الأرومة الغذائية الجنينية، مشيمة الحبل السري الجنيني) في الأساطير، والخبرة الحالية.

يقدم جيمس جورج فريزر، في المجلد الأول من كتاب **الغصن الذهبي**، سردًا مطولًا للمعتقدات والعادات المتعلقة بالحبل السري والمشيمة[١]، وخاصة حيث «يُعتقد عمومًا أنهما يظلان في اتحاد متعاطف مع الجسد، بعد قطع الاتصال الجسدي».

... تقدم المعتقدات والعادات المتعلقة بالحبل السري توازيًا ملحوظًا مع التزييف واسع الانتشار للروح المتحولة أو الخارجية والعادات القائمة عليها. **وبالتالي من الصعب التكهن بأن التشابه ليس**

---

(١) يحدثنا علماء الأنثروبولوجيا عن مدى أهمية المشيمة لكثير من الناس. وقد دُفِعتْ شيلا كيتزينجر **Kitzinger** (١٩٧٨) للشكوى من أن «علماء الأنثروبولوجيا لا يكتبون كثيرًا عن الولادة -ربما لأنهم عادة رجال ولا يُسمح لهم بالمشاركة في الطقوس المحيطة بالولادة. ومع ذلك، فقد كتبوا على نطاق واسع حول التخلص من المشيمة لدرجة أن المرء قد يُسامَح على الاعتقاد بأن هذا يجب أن يكون أحد أهم الطقوس في الولادة البدائية والريفية. ويشك المرء في أن عالم الأنثروبولوجيا الذكر لم يُسمح له بمشاهدة الولادة، وينتظر خارج كوخ الولادة لِلَّحظة التي يخرج فيها شخص يحمل المشيمة ويمكنه أخيرًا إضافة بعض الإضافات المفيدة إلى ملاحظاته» (ص ١٠٥). في المقابل، لم يكن لدى علماء النفس، إنائًا أو ذكورًا، باستثناءات قليلة، الكثير مما يقال عن المشيمة، وفي ممارسات الولادة المؤسسية، يمكن لعالم الأنثروبولوجيا من أي من الجنسين الإبلاغ فقط عن أنه يتم التخلص منها بشكل غير رسمي في سلة المهملات.

مجرد مصادفة، لكن فيما بعد الولادة أو المشيمة لدينا أساس مادي (وهو ليس الأساس الوحيد بالضرورة) لنظرية الروح الخارجية وممارستها. (التأكيد لي) (ص ٥١-٥٣).

التقط فرويد (١٩٧٤) اقتراح فريزر في رسالة إلى يونج في عام ١٩١١. بالرغم من أنه، كما يقول، لا يعترض على تفسير يونج لجلجامش وإنكيدو على أنهما إنسان وشهوانية فظة،

ومع ذلك، يخطر ببالي أن مثل هذه الأزواج المكونة من جزء نبيل وجزء وضيع (أخوين عادةً) موتيفة تتخلل كل الأساطير والأدب. آخر فرع كبير من هذا النوع هو دون كيخوته وسانشو بانزا (حرفيًّا: كرش). من الشخصيات الأسطورية، أول ما يتبادر إلى الذهن هما ديوسكوروي[1] (أحدهما هالك، والآخر خالد) وأزواج مختلفة من الإخوة أو التوائم من نوع رومولوس وريموس. واحد دائمًا أضعف من الآخر ويموت قبله. في جلجامش، كانت هذه الموتيفة القديمة لأخوين غير متكافئين تمثل العلاقة بين الرجل وشهوته الجنسية.

يتم دائمًا إعادة تفسير هذه الموتيفات القديمة (حتى، أنا أعترف، بمصطلحات علم الفلك): لكن ما مصدرها الأصلي؟

ليس من الصعب أن نعرف فيما يتعلق بالموتيفة قيد المناقشة. التوأم الأضعف، الذي يموت أولًا، هو المشيمة، أو ما بعد الولادة، لأنها ببساطة تولد مع الطفل من الأم نفسها. وقد وجدنا هذا التفسير

(١) ديوسكوروي: كانا إلهين توأمين متوجين بنار سانت إلمو -وهي تفريغ كهربائي تظهر على أشرعة السفن التي تنذر بالخلاص من عاصفة. كانا أيضًا إلهي الفروسية وحاميي الضيوف والمسافرين. (المترجم).

منذ بضعة أشهر في عمل عالم الأساطير الحديث... الذي نسي علمه مرة وبالتالي كانت لديه فكرة جيدة. لكن في كتاب فريزر، **الغصن الذهبي**، المجلد الأول، يمكن للمرء أن يقرأ أنها تسمى بعد الولادة بين الكثير من الشعوب البدائية، **أخ** (**أخت**) أو **توأم**، ويتم التعامل معها وفقًا لذلك، أي تحظى بالتغذية والعناية، وبالطبع لا يمكن أن يستمر ذلك فترة طويلة جدًّا. إذا كان هناك شيء مثل ذاكرة التطور في الفرد، وتكون لحسن الحظ غير قابلة للإنكار قريبًا، فهذا أيضًا مصدر الجانب الغريب «للشبيه».

أردت فقط أن أدهشك بالخبر القائل بأن إنكيدو هو «ما بعد ولادة» جلجامش. ولا يزال علينا اكتشاف جميع أنواع الأفكار والصلات في هذه المادة. ومن المؤسف أننا لا يمكننا العمل معًا إلا في مثل هذه الأمور التقنية (247F, pp.448 - 9).

ربما كان فريزر أكثر حذرًا من فرويد. إنه لا يسمي المشيمة صراحة «المصدر الأصلي» لنظرية الروح الخارجية وممارستها، يسميها الأساس المادي فقط، وليس الوحيد بالضرورة.

ومع ذلك، بدون أن ننسى الفروق الدقيقة، يبدو أن وجهات نظرهما تتسق بما يكفي لتسمح لنا بتكثيف ملاحظات فريزر وفرويد في نظرية فريزر وفرويد للمطابقة بين النمط الجنيني السرِّي المشيمي وأنماط أسطورية ونفسية كثيرة. وكيفية حدوث هذا التشابه الشكلي أمر آخر.

إننا في المستوى الأول (مستوى النقطة التي أثيرها هنا) على مستوى الطوبولوجيا الديناميكية الفينومينولوجية المقارنة. كل نمط استعارة ممتازة للآخر. ينعكس النمط نفسه في كل منهما.

يصرح يونج في رده على رسالة فرويد بما يلي:

... ما يسمى «ذكريات الطفولة المبكرة» ليست ذكريات فردية على الإطلاق لكنها ذكريات تطورية. أعني بالطبع الذكريات **المبكرة جدًّا** مثل الولادة، والرضاعة، إلخ. هناك أشياء تفسيرها الوحيد **داخل الرحم**: قدر كبير من رمزية الماء، ثم التغليف والاحتواء الذي يبدو أنه مصحوب بأحاسيس جلدية غريبة (الحبل السري وغشاء الأمنيون)[1]. الآن، يحلم أجاثلي أحلامًا مثل هذه: ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببعض أساطير ولادة الزنوج، حيث يحدث أيضًا هذا التغليف في الأشياء اللزجة. أعتقد أننا سنجد أشياء أكثر مما نفترض بكثير تمثل الآن ذكريات تطورية (247F, p.450).

بالنسبة ليونج، في تلك الأيام، كما بالنسبة لفرويد، هناك أشياء تفسيرها الوحيد **داخل الرحم** -لكن داخل الرحم فقط بمعنى تطوريٍّ. بالنسبة ليونج، كما بالنسبة لفرويد، لا يمكن أن تكون ذكريات تطور الجنين لأن البويضات والحيوانات المنوية، والزيجوت، والبلاستولا، والمُضَغ، والأجنة، وحديثي الولادة أصغر من أن يتذكروا ما يحدث لهم. وهكذا، حين يشعر الراشدون باقتناع بأنهم يستعيدون هذه المرحلة غير القابلة للاستعادة من دورة حياتهم، فإنهم يسقطون على حياة ما قبل الولادة أنماطًا تطورية بمصطلحات تتشكل بها بعض الأعمال الدرامية الوجودية لحياة ما بعد الولادة.

---

(١) غشاء الأمنيون **amnion**: الغشاء الأعمق الذي يحيط بجنين الثدييات أو الطيور أو الزواحف. (المترجم).

مثل هذه الأعمال الدرامية الوجودية و«أشياء لا حصر لها أكثر مما نفترض الآن» تحمل تشابهًا شكليًّا مع أنماط ما قبل الولادة، ولكن يبدو أن هذا التشابه يحتاج إلى تفسير بحد ذاته، بدل أن يكون تفسيرًا.

يخبرنا مكجواير (١٩٧٤) أن يونج كتب في الطبعة الأولى من **تحولات الليبيدو ورموزه**[١]، الذي نُشر عام ١٩١٢:

> أعرب البروفيسور فرويد في مناقشة شخصية عن فكرة وجود محدِّد إضافي لموتيفة الأخوين المختلفين يمكن العثور عليه في الشعائر الأولية قرب الولادة وبعد الولادة. إن التعامل مع المشيمة على أنها طفل تقليد غريب! (ص ٤٥٠)

وكانت كلمته الأخيرة في هذا الموضوع في مراجعته الأخيرة للكتاب المنشور عام ١٩٥٢:

> من الممكن فقط أن يكون لموتيفة الأخوين غير المتكافئين [على سبيل المثال حورس الجميل وحربوقراط المشوه، المقعد، الغريب] علاقة بالمفهوم البدائي القائل بأن المشيمة هي الشقيق التوأم للطفل حديث الولادة (ص ٤٥٠).

هنا يبدو أن يونج يعود إلى تفسير الفطرة السليمة. ننظر إليهما من الخارج؛ الجنين والمشيمة. يذكِّران المرء بالتوأم أو العاشقين. الأمر بهذه السهولة.

---

(١) تحولات الليبيدو ورموزه **Wandlungen und Symbole der Libido**: بالألمانية في الأصل. (المترجم).

ومؤخرًا تناول هيلمان (١٩٧٥) التيمة:

الانقسام الذاتي، أو الذات المنقسمة في الطب النفسي الحديث، هو الشرط الأساسي وليس نتيجة أو خطأ أو حادثًا. لا يجب أن يلتئم الانقسام الذاتي أو يشفى، بل ينعكس في نموذج أصلي يبدأ الوعي بأهمية الباثولوجي. يقول الزوج غير المتكافئ، غير المتماثل، زوج ساموثراكى[١] أنه لا يوجد فرد مخلص وحازم، متسق مع نفسه ومتسق مع الآلهة. هذا الاستهلال لا يجعلنا متكاملين. بل يجعلنا ندرك دائمًا أننا مقترنون بشخصية أخرى... (ص ٦٠-٦١).

ومع ذلك، فهو لا يجازف بأي تأملات حول المقارنة بين اقتران الوحدة المزدوجة للذات، وبين اقتران الوحدة المزدوجة لكائننا داخل الرحم.

المقارنة ممكنة على الأقل. لا تقدم أي لغز أو تحدٍّ مزعج لإحساسنا بما هو ممكن من النوع الذي يقدمه اقتراح فريزر وفرويد -بأن النمط البيولوجي الجنيني يوفر «أساسًا» ماديًّا لأساطير مماثلة شكليًّا.

ومن المؤكد أن بنى وتحولات جنينية كثيرة تشبه الأنماط الموجودة في الخيمياء والأساطير، وأحلام الراشدين وأفكارهم ومشاعرهم وخيالهم وأفعالهم وطقوسهم وأحوالهم. هل نحن مطالبون بعد ذلك باختيار مجال واحد يكون «أساس» المجالات الأخرى؟ لماذا يجب أن نرى أن الحديث عن أساس جسدي لأسطورة أكثر منطقية إلى حد ما من الحديث عن أساس أسطوري لبنية جسدية؟

(١) ساموثراكى: جزيرة في بحر إيجة. ذكرت في الكتاب المقدس، أعمال الرسل، ١٦: ١١. (المترجم).

هل هناك شيء ما هو «الأساس» بمعنى المحرض، مثل صوت لصداه؟ هل يوجد سجل فعلي لتطورنا الجنيني الفعلي قبل الولادة أو في أثناء الولادة يعد «أساسًا» لمثل هذه الأنماط الأسطورية والنفسية؟ وبأي طريقة يمكن أن يكون شكل جسدي مصدرًا «أصليًّا» لشكل نفسي؟ ما الذي يقدم قالبًا لكليهما؟

هل تحدد أي مدخلات قبل الولادة أو تكيف أو تحدث أنماطًا أسطورية أو نفسية؟ ما الملاءمة المجازية للأنماط البيولوجية قبل الولادة وحولها لبعض خبرات الراشدين؟ ما الروابط الموجودة بين الأشكال الجسدية التي عشناها في سياق تحولاتنا والأشكال العضوية الديناميكية والجسدية اللاحقة التي يمكن أن تتشكل بالخبرة الروحية والعقلية والعاطفية المتخيلة وأنماط التصرف؟

هناك عدة أنواع من الروابط التي يمكن للمرء أن يتخيلها بين هذه الأنماط الجنينية والأسطورية والتجريبية. يمكن للمرء أن يتبنى وجهة النظر التي ترى أننا مخلوقات ما بعد الولادة، ننظر من الخارج إلى الكائن داخل الرحم في الرحم، ونرى فيه تشابهات مع بعض المواقف التي واجهتنا في حياة ما بعد الولادة. لا يوجد اتصال جوهري أكثر من هذا. لكنه لا يفسر وجود التشابه، ولا التطابقات المجهرية الكونية.

لا يبدو أن نمط الصولجان السري المشيمي العاطفي في خبرة الراشدين تحدثه، أو تدفعه أو تولده، بشكل خاص، انطباعاتُ ما بعد الولادة عن الأحداث الجنينية أو ما قبل الولادة. إذا كان الأمر كذلك، فإننا نتوقع أن تكون مثل هذه الأنماط العاطفية امتيازًا خاصًّا لأطباء

التوليد والقابلات وإخصائيي الأجنة، الذين ينظرون إلى هذه الأشكال البيولوجية طول اليوم. لكنهم ليسوا ميالين بشكل خاص، كما سمعنا، للتحديق في عيون بعضهم بعضًا، وتتبع قوس قزح أو الحبال الفضية[1].

تتوافق المواقف الأسطورية مع الأنماط المجهرية قبل وقت طويل من كشف المجهر لمثل هذا التوافق. بالإضافة إلى ذلك، لم نتخيل أن مثل هذه الأنماط الأسطورية تتوافق مع أشكالنا في البداية البصرية جدًّا لدورة حياتنا. لنبدأ في إلقاء نظرة فاحصة على بعض الخبرات الفعلية للرجال والنساء المعاصرين، وهي خبرات لم يكن لهذه المناقشة أن تطرح بدونها. تنتقل آلاف القصص عن التذكر الحي للولادة البيولوجية الحقيقية، وإحيائها، وإعادة تمثيلها من البرازيل إلى نيوزيلندا، ومن لوس أنجلوس إلى روما، بين أناس مروا بنسخة ما من النسخ الكثيرة لما قد يسمى على أوسع نطاق العلاج التجريبي. وهؤلاء الناس غالبًا ليسوا محترفين مثل المرضى.

على سبيل المثال، تروي ليك (١٩٧٨) قصة

> طبيبة أطفال أصبحت طبيبة نفسية للأطفال. لم تستطع قَط البقاء في غرفة الولادة حين يولد طفل -كانت تضطر إلى الخروج. حينها كانت تستعيد ولادتها، كما ولدت بالضبط، من الواضح أن المشيمة انفصلت وخرجت بعدها مباشرة. كانت هناك، ترقد في دمائها «وهذا الشيء الرائع ميت بجانبي». هذا الرفيق (الذي أشار فرويد في رسالة

(١) الحبال الفضية: يشير الحبل الفضي في الدراسات والأدب الميتافيزيقي إلى ارتباط يمنح الحياة من الذات العليا وصولًا إلى الجسد المادي. ويدل أيضًا على الارتباط العاطفي بين الأم والطفل وخاصة الابن. (المترجم).

إلى يونج بأنه اعتبر غالبًا توأمًا «على سبيل الخطأ»)، الذي ربطته بالحياة والحركة والنبض، كان يرقد ميتًا جنبًا إلى جنب مع «رائحة الدم والموت» التي لا تمحى. قمعت هذه اللحظة الفظيعة حين لم تستطع التخلص من المشيمة ومن رائحة الدم والموت. ركزت بصعوبة شديدة مرة أخرى على العلاقة الحميمة. كلما حاولت إقامة علاقات كان يتغلب عليها الرعب من انبعاث رائحة كريهة (ص ٢٢٤).

الفرضية التطورية التي تتبناها ليك أن هذا الحدث حدث كما تتذكره. حين ولدت، خرجت مشيمتها، رفيقتها، بعدها مباشرة. مات أو ماتت، وظل شيء دموي ميت بجانبها، لم تستطع التحرر منه. نسيت اللحظة، لكنها كانت تطاردها إلى الأبد.

ولكن بمجرد إحياء الخبرة الكارثية الأصلية وإعادة دمجها، تتبخر فتنتها.

بعض هذه الفرضيات كان ولا يزال يتبناها رانك وفودور وموت وبيربولت وجانوف وجروف وليك وغيرهم ممن تبنوا هذا الموقف، ووسعوه إلى أي مرحلة من تقلبات الجينوم الوراثي أو النشوء والتكاثر الخلوي العابر الذي هو نحن بوصفنا أجسادًا.

أجد خصوصية التوافقات المفصلة بين البنى البيولوجية والنفسية لافتة **بشكل خاص**.

على سبيل المثال، ها هو تقرير نشرْتُه في ١٩٦١ لأربعة أحلام لسيدة في أثناء خروجها من حالة كانت تعيش فيها منذ شهور، وقد وصفتها ببرودة الموت ونسيج الوهم.

في أحد الأحلام حاصرها رجل ليعتدي عليها. يبدو أنه لا مفر. ارتبكت تمامًا وهي تحاول، وهي لا تزال في الحلم، الهروب إلى وعي اليقظة، لكنها ظلت محاصرة، وكان الوضع أسوأ الآن لأنه كان حقيقيًّا، لذلك هربت مرة أخرى إلى الحلم، إلى «أنه مجرد حلم على أي حال». في حلم آخر، كانت داخل منزل مظلم تطل من مدخل وضعت عبره مظلة سوداء. شعرت في الحلم أن الداخل غير واقعي والخارج واقعي، لكنها مُنعت من الخروج بسبب المظلة.

في الحلم الثالث، كانت تطفو بالمظلة من طائرة.

في الحلم الرابع، كانت خارج طائرة كبيرة؛ في مدخل الطائرة وقف طبيب يدمج عناصر أشخاص مختلفين بمن فيهم أنا. هذه المرة اقتنعت بأن الخارج واقعي والداخل غير واقعي. أرادت الدخول في عالم غير واقعي لكن الطبيب منعها (ص ٧٢).

عبر الاختلاف في المحتوى بين عناصر الحلم: هي، منزل مظلم، مدخل، مظلة سوداء، من ناحية، والقالب البيولوجي، الجنين، الرحم، عنق الرحم، المشيمة، من ناحية أخرى، هناك شكل عضوي ديناميكي مماثل،

هي	منزل مظلم	مدخل	مظلة سوداء
جنين	رحم	عنق الرحم	المشيمة

التشابه بين النمط النفسي والنمط البيولوجي ديناميكي وإستاتيكي.

إن الحالة الذهنية الغريبة التي مرت بها لبضعة أشهر بعد ولادة طفل سبقها شعور مقنع بأن دودة أو جرثومة غير مرئية دخلت رحمها، في حلم ذات ليلة، في عاصفة رهيبة. منذ ذلك الحين كانت في حالة انفصال عن الحياة العادية والواقع.

ولأن بداية حالتها كانت تنذر بصور توحي بالحمل أو الغرس، وبالتالي، وقد بدأت تخرج مما كانت فيه، توحي الصور الذهنية بالولادة.

١ – هي ورجل في الغرفة. هناك مخرج. الرجل يمنعها من الخروج.

٢– هي في غرفة بمخرج. مظلة مفتوحة، والمقبض باتجاهها، تمنعها من الخروج.

٣– خرجت للتو من الطائرة. تنقذها المظلة من سقوط كارثي.

٤ – هبطت هي والطائرة. تشعر وكأنها تعود. طبيب يمنعها.

في كل حلم من الأحلام، هناك نسخ من صراع على عتبة، إلى الأمام أو إلى الخلف، خارج الغرفة أو الطائرة أو داخلهما.

في أول حلمين، كانت تناضل للخروج، وفي الاثنين التاليين خرجت. في الرابع، هناك دافع للعودة. في أول اثنين منعت من الخروج. في الاثنين التاليين منعت من العودة.

الغرفة – الطائرة، الداخل – الخارج، المظلة – الباراشوت، الرجل – الطبيب؛ وهي – هو؛ هي – مقبض – مظلة مفتوحة؛ هي – باراشوت مفتوح؛ هي – دكتور، تبدو كلها عناصر من النسيج نفسه.

في الحلم الرابع خرجت وحيدة. انفصلت عن إنسان مشيمي – المظلة – الباراشوت – الطبيب.

الباراشوت الذي ينقذها هو المظلة التي تحتجزها.

والطبيب الذي يعترض طريق عودتها إلى الطائرة ينحدر من الرجل الموجود في الغرفة الذي لم يسمح لها بالخروج.

إن التحولات في أحلامها تشبه مراحل **طقوس العبور**: إن مثل هذه الطقوس في الحلم وبالمصطلحات الوجودية محن. والسؤال: هل الأنماط الديناميكية المتشابهة للولادة البيولوجية، والأحلام، وطقوس المرور، تعرض وتعكس أشكالًا ديناميكية ونشطة ومتحركة أصلها مشترك بين الثلاثة؟

يمكن استخدام محتوى الولادة الجسدية وتسلسلها وبنيتها لترمز إلى ما ترمز إليه دراما الحلم. قد تكون المظلة والباب والباراشوت والطائرة أكثر ملاءمة ودقة وغنى بالغموض من المشيمة والحبل السري والرحم. لا يوجد شيء في هذه النظرية يشير إلى أن دراما الأحلام ترمز إلى الولادة الجسدية.

لذلك: يظهر الكثير من الأحلام والدراما الحبل السري للجنين -المشيمة- أنماط الرحم قبل الولادة وحولها. هل الخبرات الفعلية حين كنا أجنة مع الحبل السري والمشيمة في أمهاتنا تشكل الأساس، أو المصدر الأصلي، لهذه الأنماط النفسية، التي تردد صداها وتعكسها، وربما يقال إنها ترمز إليها بمعنى ما؟ لا! لا أساس لذلك، إنه غير معقول للغاية، مستحيل، صرخ فرويد ويونج وبيتلهايم ومعظم المحللين النفسيين وعلماء النفس المهتمون بدراسة اللا وعي. نعم! إنها نظرية راسخة، معقولة، مؤكدة تقريبًا، يؤكد رانك وجانوف وفودور وموت وبيربولت ووينيكوت وجروف وليبوير وليك وغيرهم. ونود تركيز اهتمامنا على هذا التوجه الغريب، إلى جانب القضايا التي تنشأ عن الاختلاف.

يبدو أن من يناقشون هذه المسألة اتخذوا قراراتهم بالفعل، بطريقة أو بأخرى. يبدو أنه لا يوجد منهم أحد لم يتبنَّ وجهة نظر ما.

- ٣ -

إن المكون السري في النمط الجنيني السري موجود بوضوح في الخبرات المعاصرة للإسقاط النجمي[١]، مع الإحساس بالاتحاد الودي.

يقول الكثير من الناس إنهم رأوا أو شعروا بحبل، أو سلسلة، أو خيط، أو شريط، أو رباط، أو ذراع، أو خيط، أو وتر، أو شريط، أو أنبوب، أو رقبة طويلة، أو عارضة، أو عمود، أو زهرة، أو ضوء ملتف، أو شعاع شمس، ينبض أحيانًا، يربطهم بأقرانهم أو بأنفسهم الأخرى الدقيقة (Crookall, 1977).

إن رحلات أصحاب الإسقاط النجمي المعاصرين على طول حبالهم الفضية وما شابه، يمكن مقارنتها بصعود السلالم والأشجار والكروم ونزولها من الجنة وإليها في الأساطير، وكذلك رحلات الشامان صعودًا وهبوطًا على الشرائط والحبال وقوس قزح.

ويذكر الناس أنهم رأوا حتى حبال الآخرين الخفية. وفي بعض الاحتفالات، يرى الناس ثعابين شبيهة بالحبال تأتي من فم الخبير أو ظهره أو سرته. وقال كيميائي متميز إنه رأى، كما رأى عدد من الآخرين

---

(١) الإسقاط النجمي **astral projection**: مصطلح يستخدم في الباطنية لوصف خبرة الخروج من الجسد، ويفترض وجود جسم خفي يسمى «الجسم النجمي» من خلاله يمكن أن يعمل الوعي منفصلًا عن الجسد المادي في المستوى النجمي. (المترجم).

الحاضرين، زهرة لوتس تنبت من سرة شخص بارع في السمادهي[1] العميق.

وغالبًا ما يشعر المرء بالارتباط مع ذاته الأخرى باعتباره اتحادًا جسديًّا وديًّا.

يعتقد كروكال، كما يعتقد، على ما يبدو، كل من شعروا به بشكل مباشر تقريبًا، أن الحبل الفضي عضو موضوعي حقيقي، جسدي، وإن كان خفيًّا. والحبل الفضي أو قرين الشخص، في رأيه، ليس هلوسة، أو شبحًا للحبل الضائع، لكنه يوجد بشكل موضوعي ويمكن رؤيته.

من وجهة النظر الموضوعية، هنا رجل طيب آخر (جيولوجي متميز) فر، أو اختفى، ضحية أخرى لإغراءات خبرة التجاوز، وهي في هذه الحالة تجاوز حدود الإمكانية العلمية بالخلط بين الخبرة وشيء ما، مهما يكن، ليس **موجودًا** وإدراك الشيء المادي الحقيقي الموجود.

ومع ذلك، يعتقد كروكال أن هناك دليلًا «جيدًا» على أن الحبال الفضية الدقيقة الحقيقية توحد النجمي بالجسم المادي.

ومهما يكن التوازن الذي نصل إليه بين مختلف أنواع صلاحية مثل هذه الخبرات، فجميعها من النمط نفسه.

---

(١) السمادهي **samadhi**: حالة من التركيز الشديد تتحقق بالتأمل، في اليوجا الهندوسية، وتعتبر المرحلة النهائية، ويتم فيها الاتحاد مع الإلهي، قبل الموت أو عنده. (المترجم).

- ٤ -

في هذا القسم، أحاول تصوير عشرة أنواع من خبرات الراشدين، يبدو أنها تشترك في قالب مشترك مع النمط البيولوجي للوحدة المزدوجة لكائننا داخل الرحم.

١- ليس عليها أن تخبرني بسبب جلوسها أمامي، لأنني أعرف جيدًا أنها غلطتي. لم أضع عيني على السيدة في حياتي.

كانت في غرفتها منذ عدة أسابيع. تخشى الخروج والظهور. قبل بضعة أسابيع، دخل رجل غرفتها وضربها بقسوة. اغتصبها واعتدى عليها. عاد عدة مرات منذ ذلك الحين. فعل الشيء نفسه. كان عليَّ أن أضع حدًّا لهذا. انظر! آثار الضرب على جانب من وجهها، وذهنها شارد، ومقلة عينها جاحظة.

الغرفة معتمة دائمًا. لم ترَه قَط. تسمع أنفاسه وقلبه ينبض بسرعة. يبدأ الضرب حول رأسها. رأسها محطم. عنقها ملتوٍ. يحاول خنقها وشنقها. الآن لا يمكنها الخروج من الغرفة -بالرغم من خروجها لشراء الطعام، وقد جاءت لرؤيتي، وبالرغم من العودة مباشرة مرة أخرى، للجلوس في الغرفة المظلمة، للحفاظ على يقظتها، الآن تكتفي بالجلوس وتنتظر صوت التنفس وعودة دقات القلب مرة أخرى.

٢- فجأة أصبحتْ شخصين. هناك شخص آخر. هي الاثنان. هناك شيء تريد هي، الأخرى، أن تقوله لها، لنفسها. هي، نفسها، تستمع. إنها

تتلهف لسماع نفسها التي تتلهف للكلام. إنها صماء، أو الأخرى غبية، أو كلتاهما. إنها تعرف أنها هناك بجانبها.

٣- تحلم أنها في سيارة. تخرج. تنزل منها. تشعر أنها تركت جزءًا من نفسها في السيارة. ذهب مع السيارة. لا يمكنها استعادته. إنها مهتاجة. ذاتها الأخرى التي في السيارة ذهانية. هي، نفسها، مجرد عصابية. قد تتحطم إذا قابلتْ ذاتها الأخرى، أو إذا صارت الذاتان ذاتًا واحدة. تخشى ألا تكونا **كلتاهما** غير موجودتين. ربما لا تتذكر ذاتها المجنونة في السيارة أنها تركت وراءها الذات التي نزلت منها. وإذا كانت الذات التي في السيارة التي لا تعرف أنها موجودة غير موجودة، فربما لا تكون هي موجودة.

٤- تركها صديقها منذ عامين. منذ تركها، شعرت بأنها خارج ذاتها، منفصلة عن ذاتها، حين تنظر إلى نفسها من الخارج، منفصلة عن نفسها، وعن كل شخص وكل شيء. إنها في ضباب: مرتبكة.

«أنا قريني ينظر إليَّ، ويبدو الأمر كما لو أنه قريني. أنا في مكانه. إنه ضباب. أنا في ذلك الضباب. بيني وبين العالم ضباب. لا أستطيع الخروج من هذا الضباب. الضباب، قريني. إنه ذلك الضباب. أنا هذا الضباب».

٥- يحاول لفت انتباهها طول الوقت. تشعر أنه يحاول سحب دمها. لا تستطيع المقاومة. تحاول انتزاع نفسها منه بلا جدوى. لا يسحب دمها حتى آخر قطرة فقط، بل يسكب دمه الفاسد وقذارته فيها، وينظر إليها باستمتاع. إنه موجود طول الوقت. تحافظ عليه حيًّا. يقول إن هذا طبيعي. يقول إنه في حالة حب.

٦- «يعمل الجهاز كله مثل كابوس».

حين تركها، فقدت شريان حياتها (الحبل السري) وجهاز دعم حياتها (المشيمة والأم)، حاويتها وعالمها. وهي الآن مقطوعة ومطرودة وملعونة، أي أنها، كما تقول، تُولَد أخيرًا. وهي ممتنة له.

حين فهمها، شعرتْ أنها ضاعت بداخله. الآن رحل. لا تستطيع أن تتماسك. لا تستطيع حتى التفكير. تشعر بأنها خالية وفارغة باستثناء ركام من الأصوات المهلوسة المشوشة، وشظايا من الإيماءات، والتشنجات اللا إرادية، والانتفاضات وغيرها من نتف الحطام. بدون حبل النجاة ونظام دعم الحياة، تنتهي صلاحيتها باستمرار.

٧- تسممه الأكاذيب. الأكاذيب المسمومة مثل الثعابين في ثقب أسود تبتلعه لأنها تسممه. إنه في لحظة أبدية من الانجراف إلى تدمير نفسه.

٨- تجلس صامتة، حزينة ويائسة، على بعد بضعة أقدام. حين تبدأ الكلام، تميل إلى الأمام، تنحني على ركبتيها، وتضغطهما معًا، وتحول قدميها إلى الداخل. تتحرك حركات بطيئة، واسعة، ملتوية من الكتفين بشكل لا إرادي عبر جسدها كله من الرأس إلى أصابع القدمين. في مواجهة هذه الموجات العامة، يرتعش معصماها وأصابعها وترتجف بسرعة في هزات تأتي وتختفي فجأة وتستمر لبضع ثوانٍ.

٩- إنها في منتصف العشرينيات. وهي على علاقة عاطفية قوية لكنها غير جسدية مع امرأة أكبر منها. وهي حقًّا داخل صديقتها بطريقة ما وعاجزة عن الخروج. وهذا الشعور المجنون يدفعها إلى الجنون. لا شيء يفيد أبدًا. المرأة المعنية لا تستطيع المساعدة. سوف تموت إذا

قطعت العلاقة. إنها تحتضر في هذا الوضع. لكن البقاء فيها، والتشبث بها، إذا لزم الأمر بأي ثمن، فرصتها الوحيدة. لا يمكن أن تصدق أنها نجت حتى الآن. تُسمَّم وتُستنزَف وتختنق وتُدفَع إلى الجنون. تتساءل، تلقائيًّا، ما إن كانت قد نجت لتوها من محاولة إجهاض أو تهديد بالإجهاض أو إجهاض. تعتقد أنها يجب أن تكون قد نجت، لأنها، كما تقول، تتخيل أنها تشعر حتمًا بما ينبغي أن تشعر به حين تتعرض للتهديد بالإجهاض. إنها مقتنعة بأنها عاشت الحالة نفسها قبل ولادتها وحين ولدت. تنظر إلى أصابعها، ترتعش، ترتجف. تذكرني بطائر يحتضر. إنه أسوأ من كابوس. لماذا لا تستطيع أن تفهم؟ تشعر وكأنها طائر يحتضر أو جنين داخل جسد صديقتها، حتى إن جسدها جسد صديقتها.

١٠- الحكاية التالية توليفة أكثر كثافة للمحتوى البيولوجي والأسطوري والنفسي والمحتوى والديناميكيات والتيمات والشكل.

إنه في الرابعة والعشرين. يعيش مع زوجته وابن عمره سنة. تزوجا منذ عامين. في الشهرين الماضيين، لم يفعل، ليلًا ونهارًا، إلا الجلوس على كرسي أو الجلوس على الأرض. نادرًا ما ينطق بكلمة. لا يبرر تصرفه. لم يتصرف بهذه الطريقة من قبل.

حين أطلب منه أن يتحدث عما يجري، يكسر صمته ليروي قصة متماسكة وسلسة، فيما يلي نسخة مختصرة منها.

قبل زواجه بفترة قصيرة، مر بلقاء مِثْليٍّ قصير، وهو اللقاء المثلي الوحيد في حياته. لعدة أشهر بعد ذلك، كانت «موجات» من الشعور بأنه المسيح، المخلص، تجتاحه وأحيانًا لا تهدأ لبضع ساعات. ساد الهدوء لبضعة أشهر، حين انتابته موجات أخرى من المشاعر، هذه

المرة كان يهوذا، الخائن للمخلص. انحسرت هذه الموجات أيضًا، ولم يحدث شيء لعدة أشهر، حتى قبل بضعة أشهر، عادت موجات الشعور بالمسيح ويهوذا، أحيانًا موجة بعد الأخرى، وأحيانًا معًا. كان يميل أحيانًا إلى تصديق إحداهما، أو الأخرى أحيانًا، أو كلتيهما، أو عدم تصديق أي منهما. بدأت الموجات ترهقه. حين أوشك على الإرهاق التام، بدأت تستولي عليه.

كان تحت رحمتها. شعر أن كل ما يمكن أن يفعله محاولة الحفاظ على توازنه، من كل النواحي، بما في ذلك الوقوف متوازنًا على كرسي بلا حراك. وتتطلب أي حركة غير متوازنة حذر بهلوان.

دفعه دافع لا يمكن تفسيره إلى الجلوس على الأرض وعيناه مغمضتان. وهو جاثم، بدأ يصبح المسيح، وفجأة، بدون سابق إنذار، اختفى، هو، المسيح في الأرض. لبضع ثوانٍ بقي هو والمسيح على اتصال، ثم انقطع الاتصال بينهما. فقد نفسه وفقد المسيح معًا. وها هو، وقد تُرِك، جاثمًا على الأرض، قرينه، شبحه، يهوذا، الشرير، الفاسد، العفن والمتعفن، يموت، وفي كل لحظة، على وشك أن يُلقَى به من ثقب أسود في الأرض، يعلم الرب إلى أين.

لا يمكنه إلا الاستمرار في الجلوس والانتظار. وهو يجلس القرفصاء، يشعر، برغم أنه يشعر بأنه شعور لا معنى له، أن عليه أن يتمسك بالعالم ويتشبث به ليبقى فيه، وفي الوقت نفسه لم يكن هذا مجديًا لأن هذا العالم لا يتوقف، بعناد، عن عملية فصله وإبعاده عن نفسه.

حين لم يكن يجلس على الأرض، كان يتوازن في كرسيه. ويضطر إلى التكور ويشعر أنه في شيء عليه الخروج منه بسرعة. ويمكن أن

يشعر بأنه خرج بشكل ضئيل، بوضع ذراعه اليمنى خلفه، والضغط بجسمه عليها، ثم يمر بأحداث هائلة وهو يولد على شكل ذراعه، ببطء، بألم وضيق، من ظهره والكرسي، حتى ينزلق ثعبان عبر شق في صخرة، ويتحرر مثل ذراعه.

ينظر بِحيرة حين يصبح الثعبان الشرير، آدم وحواء، وشجرة الحياة، المسيح ويهوذا، الذات التي فقدها، قرينه، شبحه، مشيمة بدون جنينها، الروابط المقطوعة بينهم جميعًا، مرة واحدة.

يدرك أنه لن يخرج مما هو فيه حتى يصبح كاملًا مثل ثعبان ذيله في فمه، كائنًا كاملًا داخل الرحم، قبل أن تصبح الحية السُّرية شريرة، حين كان يهوذا والمسيح أخوين في الدم.

من هذه الخبرة المكثفة للغاية، يمكننا استخلاص التطابقات التالية.

يجلس على الأرض	كما لو كان	كائنًا داخل الرحم يتكون من الجنين والحبل والمشيمة
الأرض	مثل	قاع الحوض
المسيح يمضي خلال الأرض	مثل	جنين يمر عبر قناة الولادة
طرد وترك، وهاتان الذاتان لا تزالان متصلتين		تولد ذاته كلها، ولم يقطع حبله السري بعد، ومثل المشيمة تُرِك
انفصل		قطع الحبل
العالم يفصله عن نفسه، لكنه يتمسك ويتشبث به، على وشك أن يطرد، يفسد، على وشك أن يموت		الرحم ينفصل عن المشيمة، بعد الولادة، لا تزال تتشبث، على وشك أن تدفع إلى الخارج

أحد الأسباب، على ما أعتقد، التي تجعل أن مثل هذا التوازي الرائع لا يلاحظ أو يلفت الأنظار غالبًا أنه لا توجد نظرية مقبولة لتفسيره. ضمن أي نظام للخطاب توجد مثل هذه المشاعر، بتقلباتها التي لا يمكن تفسيرها ويستحيل تفسيرها (كيف يمكن للمرء أن يصبح مشيمته؟)، كيف يعثر على توافق؟

يشعر أنه مضطر إلى العودة إلى ما هو أبعد من ذلك قبل أن يخرج من هذا الموقف المستحيل، الذي لا يحتمل، الغريب، المميت، العبثي، المجنون ومشيمته المقطوعة والمهملة، على وشك أن تقذف وتموت، وقرينه، شبحه، يهوذا، الآخر الشرير. زخم النكوص يعيده إلى الوراء. يستشعر أنه سوف يستدير حين يصل إلى الخلف أو الداخل بدرجة كافية، ليرتد إلى الوضع اليوروبوروسي[1] كثعبان ذيله في فمه، قبل أن يصبح الواحد اثنين مأساويين.

كما يقول، إن وضع الجنين، الذي يصل إليه بالعودة (النكوص)، يصبح مثل الثعبان ذيله في فمه، اليوروبوروس الأسطوري، الذي يتحقق بالذهاب إلى الداخل (الارتداد).

يبدو أن هذا وصف عام مناسب لبعض جوانب بنية خبرته وديناميكياتها، كما هو موضح، سواء اعتبرنا أنه من الممكن أو المستحيل أن «يتذكر» بطريقة لا يمكن تفسيرها كيف بدت مشيمته في أثناء ولادته الفعلية.

---

(١) اليوروبوروسي **uroboric**: نسبة إلى اليوروبوروس **uroboros** وهو رمز دائري يصور ثعبانًا، أو أقل شيوعًا تنينًا، يبتلع ذيله، رمزًا للكمال أو اللا نهاية. (المترجم).

يمكن أن نمنح خبرته نوعًا من الصلاحية والاحترام بدون أن نُجبَر على الاعتقاد بوجود علاقة تخاطر بين الجنين والمشيمة يمكن من خلالها أن يشعر الطفل بما تشعر به مشيمته، حتى بعد قطعها عنه، كما يعتقد المتوحشون البدائيون والمجانين أحيانًا.

إذا أطلقنا العنان، فإن مثل هذه التكهنات تتخطى بسرعة حدود الحس السليم الحالي، ناهيك عن المعقولية العلمية والاحتمالية والإمكانية. خبرته غريبة بالفعل بحد ذاتها لدرجة أن الكثير من الناس قد يجدون صعوبة في رؤيتها بأي طريقة أخرى غير اعتبارها محض هراء.

ومع ذلك، لا يظهر أي تحدٍّ للمعقولية والاحتمالية والإمكانية بالحفاظ على الخبرة بحد ذاتها وواقعيتها، قبل أن تنزل عليها مجموعة تفسيراتنا لتمزيقها.

لوضع الأمر بشكل أكثر تجريدًا يجعله يبدو أكثر واقعية بشكل يحمل مفارقة:

إنه يتمسَّك بموقف على وشك أن يطرد منه بعد خروج نصفه الأفضل بالفعل، وهو الآن منفصل عنه بشكل لا يمكن إصلاحه.

في الموقف الذي هو فيه، لا يوجد سوى الهلاك. لا يمكنه «الاستمرار». بالعودة إلى «الخلف» أو «الداخل»، قد يجد مرة أخرى وحدة أصلية مع نصفه الأفضل قبل أن يفقد نفسه. ابتسمت زوجته.

* * *

الفصل التاسع

الارتباط والقطع

- ١ -

إذا شعرنا أن العلاقة تعلُّق، والتعلُّق ارتباط، يكاد يكون من المستحيل ألا نشعر بأننا مرتبطون بشيء ما، خيط أو وتر أو حبل أو سلسلة من الصلب أو زهور الربيع.

يمكن الشعور بالتعلق بشكل إيجابي أو سلبي بوصفه ارتباطًا بالآخر بشيء ما. وقد يكون الارتباط ممتعًا أو غير ممتع، مرغوبًا فيه أو غير مرغوب فيه، مرحبًا به أو مفروضًا، في اتجاهين أو في اتجاه واحد. ويُعبَّر عن الاختلافات التي لا تحصى في هذا الموضوع بحشد من الاستعارات. إنه حبل حول رقبتي. إنها طوق النجاة. إنه ملاذي. إنه لا يزال مقيدًا بشرائط مريلة أمه. الأصدقاء متصلون بخيوط غير مرئية. يرتبط بوفارد وبيكشيت[١] بألياف سرية.

بعد ما يزيد قليلًا على عام على كتابة فرويد إلى يونج عن سلسلة الأزواج من جلجامش وإنكيدو إلى دون كيشوت وسانشو بانزا، قطع

(١) بوفارد وبيكشيت: الإشارة إلى شخصيتين في رواية جوستاف فلوبير التي لم تكتمل وتحمل اسميهما، وقد نشرت في ١٨٨١ بعد وفاته بسنة. (المترجم).

صداقته معه بالكلمات التالية

أقترح أن نتخلى عن علاقاتنا الشخصية تمامًا. لن أفقد شيئًا بذلك، لأن رابطتي العاطفية الوحيدة معك كانت خيطًا رفيعًا -التأثير المستمر لإحباطات الماضي (ص ٥٣٩).

قد يبلى الخيط سواء كان رفيعًا أو سميكًا. وقد يتمدد المطاط أكثر مما ينبغي وينقطع.

هناك أشخاص آخرون يقولون إنهم لا يرتبطون مثل هذه الارتباطات مع الآخرين، ولا يحتفظون بأي ذكريات عن فقدانها، ولا بأي إحساس بأي نوع آخر من الارتباط بالآخرين.

تقع طرق الشعور، وأنماط الشعور بين الأشخاص، في فئتين رئيسيتين، وفقًا لما إذا كان هناك شعور بالوجود معًا أم لا؛ بالتواجد في الموقف نفسه، في القارب نفسه؛ بالتواجد مع آخرين، مثلنا، في العالم نفسه، عالم الخبرة والأهمية.

حين يوجد هذا الشعور ضمن رابطة سليمة متبادلة، لا يمكن أن ينشأ اختلاف هائل.

هناك أشخاص لا يشعرون بالتواجد مع كائنات مثلهم في الموقف نفسه.

إننا ندرس بعض الأشكال التي تتخذها الخبرة حين نشعر بأننا لا نتماس، أو لا نتواصل مع أناس آخرين، أو لا نكون منسجمين معهم، أو غير متصلين بهم، أو معزولين عنهم.

تتماشى الطريقة التي نتعامل بها مع أنفسنا في علاقتنا معًا ومع العالم مع الطريقة التي يشعر بها كل منا بالآخر. نريد أن نسلط الضوء

على أنماط معينة دقيقة وحاسمة من أنماط الخبرة الشخصية وعبر الشخصية.

ونهتم هنا بحقائق الخبرة، بالحقيقة التجريبية، وليس بالحقائق الموضوعية، إلا بقدر ما يكون تقرير خبرة غير موضوعية حقيقة موضوعية. الحقائق التجريبية التي نركز عليها هنا أنماط يمكن من خلالها الشعور بالعلاقات الشخصية. وهي أنماط مستقرة أحيانًا، وغير مستقرة أحيانًا. وتتغير أحيانًا بالكاد على مدار العمر كله.

ومن المثير للاهتمام مدى سهولة اندماج الاستعارة الجسدية مع التجريدات الوجودية. يوضح ستارك Stark، في مقدمته لدراسة شيلر عن التعاطف (١٩٥٤)، أن خبرة الآخر والذات تنشأ كأقطاب يعتمد كل منها على الآخر. لا يسبق أحدهما الآخر. لا يمكن لأي منهما أن يوجد بدون الآخر. ينشآن من دوامة مشتركة. إنهما توأمان.

> ... يرتبطان معًا إلى الأبد ولا تفرق بينهما فجوة كبيرة يجب سدها بطريقة ما (ص xi).

يقول أناس كثيرون إنهم لا يشعرون بأنهم معزولون عن الآخرين فقط، بل وعن أنفسهم وعن الكون كله وعن الرب. ويشعر البعض بأنهم معزولون بقدر ما يتذكرون. ويعتبر البعض العزلة أمرًا مسلمًا به حتى إنهم لم يدركوها قَط حتى الآن. وهي مشاعر تعذب الآخرين. يمكن للبعض أن يتذكر متى حدثت العزلة وكيف ولماذا. ويمكن أن يكون الشعور بالعزلة فظيعًا لدرجة أن البعض يقولون إنهم يفضلون الموت على التعايش معه.

الشعور بالعزلة شعور خاص. إنه لا يشبه التوقف. إنه لا يشبه الشعور بالبُعد، أو النوستالجيا والاشتياق إلى الحب الضائع أو الغائب. حين يقول شخص ما إنه عليه أن يحافظ على مسافة بينه وبين الناس، يعرف أنه غير معزول. لا يحتاج الشخص المعزول إلى الحفاظ على مسافة. لا توجد إمكانية للعلاقة الحميمة، أو الخوف من فقدان الذات في الآخر. لا توجد تلافيف يمكن الوقوع بينها. لا يكون المرء أبدًا أفضل في الارتباط مما هو عليه في الانفصال. كل الآخرين على الجانب الآخر. لا يوجد تدفق، ولا تبادل، ولا شيء، يبدو أنه يمر عبر الانقسام الذي لا يمكن إصلاحه أو الرجوع عنه. كما أنه لا يشبه الشعور بأنك في كرة بلورية وما إلى ذلك، وهو ما سنلمح إليه لاحقًا.

هناك كل أنواع الوساوس والرهاب حول التليفون التي لها علاقة بقطع الاتصال، والتوصيل، والقطع، والانقطاع مرة أخرى.

١- إنه يعرف كل تليفون عمومي على بُعد أميال. لم يغامر قَط بالدخول إلى منطقة لا يعرف فيها بالضبط المدة التي يستغرقها المشي إلى أقرب تليفون.

على مدى السنوات العشر الماضية، لم يستغرق، في أي وقت، أكثر من عشر دقائق ليرفع التليفون للاتصال بها. لم يستغرق أكثر من ذلك قَط.

٢- بصرف النظر عمن تتصل. تقترب من التليفون.

تسرع نبضات قلبها. يصعب تنفسها. قد تشعر بالاختناق. قد تصاب بالربو.

إنها تهتز وترتعش وترتجف.

لا يمكنها التأكد من أن ذراعها قد لا تكون مشلولة لأنها تحاول البدء في تحريكها لرفع السماعة.

تشعر بدوار ودوخة. قد يغمى عليها.

جسدها كله، للحظة، متجمد في لحظة هلع، حيث تلمس سبابتها اليمنى الرقم الأول المطلوب الاتصال به.

نسيت الرقم. تحاول أن تتذكر. تطلب رقمًا بشكل عشوائي.

تسمع نغمة الاتصال.

نسيت بمن تتصل. عقلها فارغ مرة أخرى.

هناك صوت. الرقم الصحيح.

إنه الشخص الصحيح لكنها لا تتذكر من هو. لا يمكن أن تتذكر سبب الاتصال. الصوت مرة أخرى. تعجز عن الكلام.

تترك السماعة.

وتقول إنها تشعر بالرعب من «بناء الجسر». بعد إجراء هذا العمل الروتيني عدة مرات، يمكنها عادةً إجراء مكالمة.

- ٢ -

كثيرًا ما تطرح حاليًّا المشاعر الجنسية في شكل ارتباط، بسعادة أو تعاسة، بالشريك الجنسي، أو عدم وجود ارتباط (بدون قيود)، بسعادة أو تعاسة.

مثل التليفون أو الحبل السُّري، قد يصبح القضيب الصورة الذهنية الحية للاتصال.

والآثار المترتبة على هذه التأملات بعيدة المدى، لكنها لم تتبع في نظرية التحليل النفسي السائدة، ربما لأن اتباعها يؤدي إلى وضع المرء في مصفوفة من الصور الذهنية لما قبل الولادة أو ما حول الولادة، ونظريات الاستدعاء الجيني، وذاكرة التطور، مربكة علميًّا أكثر من الخبرات التي تحاول تفسيرها.

رأى فرويد في «القيمة النرجسية العالية للقضيب عند صاحبه»، على حد تعبيره، «مناشدة لحقيقة» أن «هذا العضو ضمان لصاحبه بأنه يمكن أن يتحد مرة أخرى بأمه -أي بديل لها- في عملية الجماع. الحرمان منه يرقى إلى تجدد الانفصال عنها، وهذا بدوره يعني التعرض الحتمي لتوتر لا يطاق بسبب الحاجة الغريزية، كما كانت حالة الولادة». يتفق مع فيرينزي في أن فانتازيا العودة إلى الرحم، بالنسبة للرجل العنين، تصبح بديلًا عن الجماع (Standard Edn, Vol. XX, 1959, p.139).

قد يأخذ القضيب[1]، بالنسبة للجنسين، دورًا سُرِّيًّا. القضيب، بالنسبة لبعض الرجال، جسر قوس قزح الذي يجمعهم مع امرأة، أُم، عاهرة، عشيقة، زوجة، محظية. ويفضل آخرون قطعه، لتحرير أنفسهم من هذا التعلق.

الحلمة والفم، المهبل والقضيب، أطراف الارتباط المنفصلة. يبدو أن الشعور بالارتباط، أو غياب أي ارتباط، رسخ بيننا، من خلالها، هو الاهتمام الرئيسي. ووفقًا لطريقة الشعور به، يمكن أن يجلب البهجة أو الرهبة. على سبيل المثال، هل يشعر المرء أن الرابط، أو الرابطة، أو الارتباط، أو العلاقة، جزء من نفسه، أو ينتمي إلى نفسه؟ هل هو جزء من الآخر، هل ينتمي إلى الآخر، هل ينتمي إلى الاثنين ولا ينتمي إلى أي منهما؟ هل يعتمد على الذات أم الآخر، أم الاثنين؟ هل نعتمد عليه؟ هل هو رفاهية أم شريان حياة؟

يعمل القضيب المحمل بصفات الحبل السري بمثابة طريق، جسر، وسيط، ارتباط. مَن، أو ما، الطرف الآخر مِن هذا الارتباط؟

تجادل دوروثي دينرشتاين[2] (١٩٤٥) بأن الرجال يميلون إلى اختزال النساء إلى منزلة نصف بشرية. الرجل «يصادر» خدمات المرأة

---

(١) يكتب فرويد: «جميع الأشياء المتمددة، مثل العصي وجذوع الأشجار والمظلات (فتحها يمكن مقارنته بالانتصاب)، قد تمثل العضو الذكري» (**The interpretation of Dreams, Standard Edn, Vol. V, p. 354**). أفترض أنها قد تكون كذلك. وقد يتردد صداها أيضًا مع الحبل السري وخاصة الوريد السري. المظلة المفتوحة: الحبل والمشيمة؟ لا تذكر المشيمة أو الحبل السري في فهرس تفسير الأحلام.

(٢) دينرشتاين **Dinnerstein** (١٩٢٣-١٩٩٢): أكاديمية وناشطة أمريكية اشتهرت بكتابها **The Mermaid and the Minotaur** (١٩٧٦). (المترجم).

«ككائن وسيط» بينه وبين العالم. بتعبير النمط الجنيني، يصبح القضيب حبلًا سريًّا، يربط الرجل بالمرأة، مثل **المشيمة**.

مثل هذه العلاقات «المشيمية» الراشدة شائعة، ومتبادلة عادة. ومن المفيد أن نتوقف قليلًا لتناولها هنا، لأن المنطقة كلها مشوشة نظريًّا ومشوشة عمليًّا. يستغرق الأمر دراسة كاملة أخرى للبدء في إنصاف ما تنطوي عليه. وهنا، أود لفت الانتباه إلى قضية واحدة فقط، ومع ذلك أكثف أمورًا كثيرة.

- ٣ -

كتب نيومان (١٩٦٣):

يشمل الجانب الرهيب من الأنثوي دائمًا المرأة الأفعى اليوروبوروسية، والمرأة ذات القضيب، ووحدة الحمل والإنجاب، والحياة والموت. وتتمتع جورجون[١] بكل صفة ذكورية: الأفعى، الأسنان، أنياب الخنزير، اللسان الخارجي، وأحيانًا حتى اللحية (ص ١٧٠).

من يقرر أن الأفعى، والأسنان، والأنياب، واللسان، وأحيانًا اللحية، سمات ذكورية؟

لنفكرْ مرة أخرى في تلك الثعابين التي كثيرًا ما تلتف حول الآلهة الأم أو داخلها. ما مبرر اعتبارها رموزًا قضيبية؟ بهذا الاعتبار، تدخل وتتشابك مع نظريات النرجسية القضيبية وقلق الإخصاء وحسد القضيب والمرأة القضيبية.

يبدو لي اعتبار هذه الثعابين رموزًا قضيبية انحرافًا واضحًا جدًّا وتشويهًا تفسيريًّا حاسمًا[٢].

---

(١) جورجون **Gorgon**: أخت من ثلاث أخوات، شعرهن ثعابين، يستطعن تحويل أي شخص ينظر إليهن إلى حجر. (المترجم).

(٢) وتعليقًا على هذا الالتواء، يكتب ديموس: «حين ينتج المريض مادة مخيفة بمحتوى جنيني صريح، تخضع للتجاهل أو للتفسير على مستويات فموية أو قضيبية لاحقة. وهكذا، حين تحدث أبرهام عن مريض يعاني من كابوس مدى الحياة يرى فيه عنكبوتًا يمص الدماء يخرج من بيضة ليسحقه، فسر مص الدماء بأنه «رمز للإخصاء». ولذلك، أيضًا، حين كان مريض رالف ليتل يعاني من كوابيس يرى فيها عنكبوتًا مرعبًا يسحقه، إلى جانب صور ذهنية للارتباط بأمه بحبل سري بحيث «يتدفق الدم إليها أو إليه مما يؤدي إلى أن واحدًا فقط يمكن أن يعيش والآخر يموت»، أطلق على العنكبوت اسم «الأم الخاصية»» (**DeMause, 1981**).

حين كانت هذه الآلهة الثعابين تعبد، هل نظر **إليها** أي شخص، بالطريقة التي نجرؤ على أن ننظر بها الآن، بدون أي قلق أو رهبة؟ جاءت من وقت كنا فيه في الأم العظيمة. ونفخر بأن وعينا تطور بدرجة «أعلى» حيث لا يمكننا الآن النظر بخيبة أمل فقط، من الخارج، إلى تمثال وضعنا، لكننا يمكن أن ننظر إلى كل شيء قد نبدو فيه من الخارج.

يستحضر نيومان رؤية جنينية أسطورية حية لصورة كالي، الأم المفترسة الأصلية. ما الذي تلتهمه؟ ليس قضباننا! حبالنا السُّرية.

> ... تجلس القرفصاء وسط هالة من النيران تلتهم الأحشاء التي تُشكِّل حبلًا سُريًّا بشكل مميت بين بطن الجثة المفتوح وحلقها (ص ١٥٣).

يمكن الشعور بأن المشيمة والحبل السري ينتميان إلى الأم أو أنها سرقتهما.

تشير الكوبرا الملتفة حول خصرها إلى الحبل السري، لا الرحم ولا القضيب.

يركز روهيم[١] (١٩٧٣) كثيرًا على الصور والرموز والنكوص داخل الرحم، لكن كما هو الحال مع نيومان والآخرين في هذا السياق، تكون الثعابين، والحيات، إلخ، سمات ذكورية، ونكون مرة أخرى في حضرة «المرأة القضيبية». إن «القضيب الفانتازي عند الأم هو الذي

(١) جيزا روهيم **Roheim** (١٨٩١-١٩٥٣): محلل نفسي وعالم أنثروبولوجيا مجري. (المترجم).

يخيف الرجل» (ص ٥٢٢)، وليس قواها الهائلة.

لا تنتمي المشيمة والحبل السري إلى الأم[١]، بالرغم من شعور أناس كثيرين بذلك. إنها ليست صفات لجنس واحد. قد يكون لدينا هنا رموز لتلك الأجزاء من ذواتنا داخل الرحم وقد افترقنا عنها عند الولادة، وصودرت من وحدتنا المزدوجة داخل أجواء الرحم الكبير، ونُسبت خطأ للرحم نفسه، ومع الرحم، بدا أنها تنتمي إلى الأم. هذا الخطأ يعادل الخلط بين السفينة والبحر. يتفاقم هذا الالتباس حين يعاد اعتبار هذه العناصر المصادرة كسمات ذكورية رموزًا قضيبية. السفن تصبح رموزًا قضيبية للبحر.

وبالتالي، يتم الخلط بين علامات الأرومة الغذائية وإشاراتها ورموزها وصورها وبين قضيب داخل الرحم ينتمي إلى الأم. وبالتالي، فإن العالم ونحن، ذكورًا وإناثًا، يين ويانج[٢]، غير متوازنين ومنحرفين، وعشرة آلاف شيء مضطرب.

---

(١) وتعليقًا على هذه الفانتازيا كتب فيلدمار **Feldmar** (١٩٧٨)، «... كنت متحدثًا ضيفًا في جولات طبية في مستشفى رئيسي في .**B.C**، لم أصدق أذني حين بدأ رئيس قسم التوليد يتحدث عن «مشيمة الأم». قد يبدو الأمر للوهلة الأولى وكأنه يشير إلى أنه بحلول الوقت الذي تلد فيه المرأة تفقد بالتأكيد مشيمتها. طبيب التوليد يعني «مشيمة المولود». ومع ذلك، يكشف الانزلاق عن مجموعة عقلية تحدد مواقف الفرد وأفعاله».

(٢) يين ويانج: «يين» الصينية تعني «أنثى» أو «قمر»، تمثل الظلام والأنوثة والسلبية والأرض. ويانج («الشمس» أو «الذكر») يمثل الضوء والذكورة والنشاط والسماء. (المترجم).

- ٤ -

١ - سيدة في الرابعة والعشرين تعاني من التهاب القولون التقرحي. بعد نزيفها الأخير، نصحت بإجراء عملية فغر القولون. تستشيرني باعتبارها «محاولة من المرجح ألا تنجح» وباعتبارها «فرصتها الأخيرة». وبرغم خضوعها للفحص الطبي والجراحة بعناية، لم يفكر أحد مطلقًا في سؤالها عن رأيها فيما يحدث.

ولأنها لم تُسأل قَط، لم تخبر أحدًا قَط بوجود حبل يمتد من أحشائها إلى أمها. كان هناك دائمًا، وكلما حاولت الابتعاد كثيرًا عن أمها، في أفكارها، أو الابتعاد عنها أكثر من ميلين، يشد الحبل أحشاءها. وأحيانًا كانت تُثبَّت في موضعها على الرصيف، مجتهدة بكل قوتها لاتخاذ خطوة أخرى. شعرت بالحبل وهو يمزق أحشاءها مع نزول الدم.

يمكن القول إن هذا الحبل صورة حية لارتباطها بأمها، وتمسك أمها بها، مباشرة في أحشائها. وهو بالتأكيد ليس رمزًا قضيبيًّا، لكنه قد يكون رمزًا لما يمكن أن يكون الحبل السري أيضًا رمزًا له.

٢- وهو مستلقٍ على السرير، كما يفعل طول الوقت تقريبًا، يتكور، يشعر أنه منسي. يبتعد عبر قضيبه إلى عوالم أخرى وفي الوقت المناسب يعود مرة أخرى. يتكرر هذا باستمرار. في الثانية والعشرين، لمدة عام بالفعل، انغمس في هذه المغامرات لدرجة أنه لم يُظهر أي اهتمام بالفتيات أو دراسته الجامعية أو حتى الطعام.

البنية الديناميكية السرية واضحة هنا. يبتعد عبر دوامة الشرايين السرية إلى العالم الآخر للمشيمة ويعود في الوقت المناسب إلى ذاته الجنينية عبر وريده السُّري.

أنتقل لمناقشة مسألة «ما نفعله» بمثل هذا التطابق بين الجوانب البيولوجية والنفسية لأنفسنا بحيث تتلاشى تقريبًا كل منها في الأخرى.

٣- إنه رجل أعمال ناجح في الثلاثين، لكنه يشعر بفشل يدعو لليأس. هو وقضيبه، بالنسبة له، مثل الطرف المتدلي والمرتخي لحبل سري مقطوع. إنه قضيب بلا فائدة ومثير للشفقة.

لا توجد كلمة في اللغة الإنجليزية تشير إلى الطرف الجنيني للحبل السري المقطوع. في بعض أنحاء العالم له اسم يضفي عليه أهمية.

٤- يشعر بأنه معزول. شعر بذلك طوال حياته. يبدو معزولًا. عيناه تحدقان. تحاولان عبثًا، كما يقول، أن تريا من شاشة باتجاه واحد[١]. عينان يمكن فقط أن ينظر فيهما، يرى ما في نفسه.

٥- كان في الخامسة والعشرين. وكان ناجحًا وجذابًا وجامحًا.

في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام في البندقية في أواخر الخريف (لا يمكن أن يكون أكثر رومانسية) كان يجلس إلى طاولة مع صديقته في سان ماركو يشاهدان العالم يتحرك. التقت عيونهما. مفاجأة تمامًا! جديدة تمامًا! كانت ممكنة رغم كل شيء! القصة القديمة نفسها. لا يمكن أن يصدق. كان يقع في الحب أسفل دوامة تدوِّم بين عيونهما،

---

(١) شاشة باتجاه واحد **one-way screen**: عبارة عن نافذة تطل على غرفة تشبه المرآة لمن يوجد على الجانب الآخر. يستخدمها المراقب في الدراسات التجريبية لسلوك الإنسان والحيوان وفي تدريب المعالجين النفسيين. (المترجم).

مسافرًا داخل قوس قزح إلى أرض قوس قزح. انتبه بعد بضع ثوانٍ. كانا لا يزالان عبر الطاولة، يحدق كل منهما في عيني الآخر.

بعد سنوات، لم يعد يشعر بالحب، لكنه لم يعزل مرة أخرى.

٦- في رواية **انتصار الموت**[١]، دانونزيو يجعل أوريسبا جورجيو يتخيل أنه يقطع يدي إيبوليتا عند الرسغين:

> وضع الرسغين جنبًا إلى جنب ومرة أخرى أتى بحركة تقطيعهما بضربة واحدة. انبثقت الصورة في ذهنه حية وكأنها حقيقية. -على العتبة الرخامية لباب مليء بالظل والتوقع، ظهرت المرأة التي كان مصيرها الموت، مادةً ذراعيها العاريتين، على طرفيهما نبضت نافورتان حمراوان تتدفقان من أوردة معصميها المقطوعين (نقلًا عن Praz, 1970, p.266).

مرة أخرى، لدينا النمط السري -رسغان جنبًا إلى جنب، وذراعان عاريتان ممدودتان، ونافورتان حمراوان تتدفقان من الأوردة المقطوعة في معصميها، والمرأة المشيمية التي تموت، وباب عنق الرحم، والرسغان مقطوعان بضربة واحدة، الحبل المقطوع.

يحلم الشاعر في قصيدته «الأيدي»[٢] بامرأة رهيبة، مغرية، منتصبة، ساكنة، مشوهة بيدين مقطوعتين -يداها مستلقيتان، لا تزالان نابضتين بالحياة، في بركتين من الدماء الحمراء، غير ملوثة بقطرة واحدة.

---

(١) انتصار الموت **The Triumph of Death**: رواية من تأليف الكاتب والشاعر الإيطالي جابريل دانونزيو **D'Annunzio** (١٨٦٣-١٩٣٨)، كتبها سنة ١٨٩٤. (المترجم).

(٢) الأيدي **Le Mani**: قصيدة للشاعر الإيطالي فيتوريو سيريني **Sereni** (١٩١٣-١٩٨٣)، كتبها في ١٩٤٤. (المترجم).

٧- وفي **ربما نعم**[١]، المقطع التالي الذي يصور ما يسمى بفن الحب بشكل كامل تقريبًا يتعلق بدراما جنينية بغيضة جدًّا- السرة- المشيمة- دراما حول الولادة، وفيها تكثيف للكثير من الاختلافات التي نوقشت حتى الآن.

وفي الغسق الشاحب... حدثت مصارعة شرسة بين عدوين ملتصقين معًا في منتصف جسديهما، تفاقمت آلام الرقبة وشراييها المنتفخة والصراخ بقطعها، والاهتزاز المسعور لمن يسعى جاهدًا ليسحب من أعماق الجذور الحمراء، جذور الحياة ويخرجها إلى ما وراء الحد الممكن لتقلص الإنسان.

صرخ الرجل وكأن رجولته انفصلت عنه بأقصى وحشية؛ نهض ثم سقط. ارتجفت المرأة، بقعقعة اقتحمت أنينًا أكثر وحشية صادرًا من صرخة الرجل. وظلا منهكين على الأرض، في شبه ضوء أرجواني، يشعران بأنهما على قيد الحياة، مرتبكين، وبينهما شيء هامد، مع بقايا جريمة مظلمة بين جسديهما -انفصلا الآن، لكنهما بقيا مضغوطين معًا عند النقطة التي ارتُكبت فيها تلك الجريمة الغامضة، سجدا وصمتا، متغلبين بحب أعظم من حبهما وربما جاءهما من مكان الجمال الممزق المهجور (نقلًا عن Praz, op. cit., p.299).

٨- حيث، مثل وسادة على سرير،
تنتفخ كتلة حبلى، تستريح
يتكئ رأس البنفسج،

(١) ربما نعم **Forse che si**: رواية ربما نعم ربما لا (١٩١٠)، تأليف جابريل دانونزيو. (المترجم).

جلسنا، نحن الاثنين، في أفضل حال.
أيدينا ملتصقة بقوة
مع بلسم سريع، وثب،
شعاع أعيننا التوى، وارتبطت
أعيننا بخيط مزدوج؛
وهكذا امتزجت أيدينا،
كانت الوسائل حتى الآن تجعلنا واحدًا[1].

الأيدي مثبتة، ممتزجة، أعين مرتبطة بخيط مزدوج من شعاع ملتوٍ ساطع منها، اثنان على كتلة حبلى منتفخة، تشكل وحدة مزدوجة.

* * *

(١) ‹The Ecstasy› by John Donne.

الفصل العاشر

مدخل

- ١ -

الروح تدخل المادة. الساطع يدخل الأرض. ابتلع الحوت يونس. ونحن نغرق في النوم. والكيسة الأريمية تدخل بطانة الرحم.

بعد سبعة إلى تسعة أيام من الحمل، نكون كرة مجوفة من عدة مئات من الخلايا. معظم هذه الخلايا أسلاف تلك الخلايا المعدة لتشارك الرحم معنا، وخدمتنا، وتموت حين نولد. ستكون أرومتنا الغذائية. والقليل منها أسلاف ما يصبح نحن. تستقر الكرة في قاع بطانة الرحم. نضع مجسات في حقل الدم الناعم. نرتبط ونتجذر، ونبدأ الغرق. يتضخم الرحم ليحتوينا. الأوعية الدموية الرحمية تغمرنا بالدم، وإلا متنا، وتفرز الغدد السوائل بوفرة، ويهيئ الرحم مكانًا لنا، وتتشكل الأنسجة الواقية حولنا.

- ٢ -

في التحليل النفسي، يعتبر موضوع الدخول نكوصًا عن النشاط الجنسي التناسلي أو تنوعًا في تيمة الولادة: ولادة في الاتجاه المعاكس. هكذا يقول فرويد:

> في الأحلام كما في الأساطير، من الشائع أن يقدم التشويه ولادة **الطفل** من مياه الرحم باعتبارها دخول الطفل إلى الماء؛ ضمن ولادات أخرى، تعتبر ولادة أدونيس وأوزوريس وموسى وباخوس أمثلة توضيحية شهيرة (المرجع السابق، ص ٤٠١).

في «حلم مائي جميل» لمريضة:

> في منتجعها الصيفي، على ضفاف بحيرة، غاصت في المياه المظلمة حيث انعكس القمر الشاحب بالضبط (ص ٤٠٠).

> يقول لنا إن هذا النوع من الأحلام أحلام ولادة. نصل إلى تفسيرها بعكس الحدث المذكور في الحلم الواضح؛ وبالتالي، بدلًا من «الغوص في الماء» لدينا «الخروج من الماء». أي الولادة (ص ٤٠٠).

بالنسبة لفرويد، نتذكر أن الولادة حدث بيولوجي موضوعي بحت بالنسبة للطفل. لم يكن لها، حينها، أي قدر من الأهمية التي منحناها لها لاحقًا. الآن، أقترح أن الغرس نظيرنا البيولوجي للدخول، بينما تقدم لنا الولادة النظير البيولوجي للخروج.

بالرغم من أن التطابقات الواضحة غرس: الدخول والولادة: الخروج، هناك جانبان لكل عتبة. إنْ وصَف فرويد أحلام الدخول بأنها أحلام خروج الولادة، حجب التوافق التفصيلي بين التحولات الجنينية للترسيخ البيولوجي وتيمة الدخول الراسخة في الأساطير والأحلام ودراما اليقظة. يروي فودور (١٩٤٩) تسعة وعشرين حلمًا يرى أنها تحتوي على رموز نموذجية لصدمة الولادة.

معظم المجموعة أحلام **دخول**، لكنه يفسرها، مثل فرويد، بأنها أحلام ولادة عكسية.

اعتقد فودور، عكس فرويد وبالاتفاق مع رانك وآخرين، أن الولادة البيولوجية ليست حدثًا موضوعيًّا بحتًا، شعرنا بالحدث بعمق في حينها، ويتردد صدى تأثيراته الديناميكية على مر السنين لتظهر رموزًا في الأحلام والفانتازيا وأنماط التصرف.

> ... موقد، ممر، كهف، حفرة مائية، باب مصيدة، تابوت، أخطبوط، قاطرة، قاعدة سكة حديدية، حيوانات مذعورة، طريق مظلم، طين، ثلج، ريش، شجيرات، جبل، انهيار جليدي، ضفتا نهر، متنزهات، وجداول ماء تعتبر رموزًا؛ أو العنصر الديناميكي ممثلًا بالمشي، والطفو، والنزول، وعكس التجذر في الأرض أو إبعاد عقبة ترتبط [كلها] بالتأكيد بمخاوف الولادة (ص ١٠).

يكتب فودور: «من الواضح أن الحلم يعكس غالبًا عملية الولادة» (ص ١٠-١١).

من الواضح أن الولادة عكس المحتوى الواضح لأحلام كثيرة. ومع ذلك، ليس من الواضح أن هذه الأحلام ترمز إلى عكسها.

بعدم السماح للاستعارة البيولوجية بالتمدد، إذا جاز التعبير، بطول الطريق من الولادة إلى الحمل، ينشأ تشوه تفسيري.

إذا تركنا الاستعارة البيولوجية تمتد حتى المراحل المجهرية المبكرة لدورة حياتنا، فإن قائمة فودور تقترح التطابقات التالية.

داخل الرحم قبل الغرس: سلالم، ضفاف الأنهار، متنزهات، طفو، مشي وطفو، نزول.

بطانة الرحم قبل الغرس: حفرة مائية، طين، ثلج، فرشاة.

موقع الغرس: بئر ماء. حويصلة جنينية مشيمية: تابوت، موقد.

الحبل السري: ممر، جسر، سوط، أخطبوط. نبض الرحم: حيوانات مذعورة.

لا أرى أي مبرر لاعتبار كل تيمات الدخول للغوص ببهجة في قاع النعيم، أو الامتصاص، أو الابتلاع في الرمال المتحركة، أو السقوط في مستنقع، أو الدفن حيًّا، رموزًا لميلاد معكوس. نظيرها البيولوجي للغرس يحدق في وجهنا. ومع ذلك، استمر وينيكوت وليك وجروف وآخرون في تفسير هذه الأحلام والفانتازيا بأنها تنوع في قالب ما حول الولادة. قد يكون أحد أسباب علاقتها الواضحة مع النمط البيولوجي للدخول إلى بطانة الرحم أو تشابهها به مذهلًا نظريًّا، ناهيك عن أنه مربك، بحيث يُرفَض لأنه أكثر عبثية من أن نفكر فيه، ناهيك عن وضعه في الاعتبار.

جيزا روهيم (١٩٧٣) مثال آخر على ذلك. يقدم افتراضًا مشكوكًا فيه بأن تيمة الدخول بتنوع لا حصر له التيمة الأساسية لكل الأحلام. ثم، وبمثل براعة فرويد وآخرين، يواصل ليربط نفسه في عقدة نظرية بتفسيرها مرة أخرى، وترسيخها، كما يسميها، بأنها ميلاد معكوس. ونتيجة لذلك، قد يتجاهل تمامًا التطابقات الثرية المفصلة بين نمط الدخول في الأحلام والأساطير والترسيخ الجنيني.

يروي حلم امرأة في منتصف العمر من نافاهو[١].

كنا في فصل الشتاء. وكنت أبحث عن شيء بعيد عن البيت. تهت بسبب الثلج. خفت من الظلام وحاولت العودة إلى حيث بدأت -رأيت كومة من القذارة وثقبًا.

لفحتني الحرارة على جانب من جسدي. جاءت من الحفرة، شعرت بارتياح. اقتربْتُ من الحفرة ونظرت إلى الداخل. وسمعت صوتًا كأن شخصًا ما يتنفس. لم أعد خائفة الآن. سألت: «من هناك؟» وجاء الرد «شخص ما».

أخبرْتُ الرجل أنني تائهة وأنني أريد أن أدخل الحفرة. قلت: «بغض النظر عمن أنت أريد أن أبقى معك الليلة». كنت مدعوة فيها. ذهبت أبعد قليلًا، وصارت الغرفة أكبر. في الداخل كانت مغطاة بلحاء الأَرْز الناعم وكانت النيران متوهجة. كان شخص ما يستلقي هناك

(١) نافاهو **Navaho**: ثاني أكبر مجموعة من السكان الأمريكيين الأصليين في الولايات المتحدة. (المترجم).

وجلس. كان رجلًا يشبه الدب. سألني من أين أتيتُ. قال: «حسنًا، يا حفيدة، استلقي على هذا الفراش، لن يؤذيك أحد». نمت. شخر الدب، استيقظت. نمت مرة أخرى. بدأ الدب يصيح قائلًا: «انهضي!» نمت مرة أخرى. استيقظت، وربت الدب على كتفي وأراني بمخلبه إلى أين أذهب. قفزت من الحفرة واستيقظت (ص ٧١).

يعلق روهيم،

الحفرة التي تزحف إليها ثم تتحول إلى غرفة ونومها في الغرفة، هو ما نعنيه بالحلم الأساسي (ص ٧١).

لا يعد هذا النوع من أحلام الغرق رموزًا للجماع (١٩٧١). المحتوى الواضح لهذه الأحلام

ليس قضيبًا يدخل المهبل أو طفلًا يدخل رحم أمه، بل شخص يسقط أو يدخل قبوًا أو بركة أو حفرة، إلخ (ص ٥٧).

كما أنه لا يجد التفسير الشفهي للوين Lewin (١٩٥٠) للشعور بالغرق بأنه تناول الطعام بطريقة معكوسة «مقنعًا». لكن تفسيره له على أنه «ولادة معكوسة» لم يعد كما كان.

مثل فرويد وغيره، يمنح نفسه ترخيصًا لعكس الفكرة لتلائم نموذجه للولادة. صحيح أن التيمة الواضحة هي الدخول وليس الخروج. لكن لا مشكلة. يقول بشكل جذاب: «كل ما علينا القيام به، قلب ترتيب الأحداث» (ص ١٣٣).

يبدو أن هناك، كما يقترح نيومان، معادلة أساسية، المرأة = الجسم = الوعاء، وهذا يعكس خبرة أولية بالأنثوي (ص ٥٥).

ومع ذلك، فإن الأشكال الجنينية لتيمة الوعاء، الموتيفة، البنية، تحدث كما هو الحال في الأنماط الجنينية، ليس فقط من منظور الأم العالمية العظيمة، بصفتها كائنًا أموميًّا كاملًا، ولكن أيضًا مثل الرحم قبل الغرس وبعده، مثل منطقتنا الشفافة، ومثل أرومتنا الغذائية من خلال التحولات العديدة للجنين، الكيسية الأريمية، المشيمي، وكذلك نظام السلى amnion السري المشيمي النهائي.

ومع ذلك، هناك وحدات شكلية جنينية كثيرة تتوافق مع شكل الوعاء. قد يكون الوعاء رحميًّا وأموميًّا، أو قد ينتسب للأرومة الغذائية والجنينية.

لا يميل نيومان (١٩٥٥) فقط إلى الخلط بين الأشكال الجنينية المرئية والأشكال الأمومية، ولكنه يفشل في التعليق على التطابقات الجنينية المجهرية بين أشكال الأرومة الغذائية الجنينية في الأسطورة والطقوس.

الرحم أصل العرش الذي يجلس عليه الملك (ص ١٠٠).

حتى يومنا هذا، فإن الطابع الأنثوي للوعاء، للكهف في الأصل، وللمنزل لاحقًا (إحساس المرء بأنه في منزل يلوذ به ويشعر بالحماية

والدفء)، يحمل دائمًا علاقة بالاحتواء الأصلي في الرحم[1] (ص ١٣٧).

إن التحولات التجريبية التي تميز بها يونج على نطاق واسع في كتاباته، ونيومان وكامبل وإيلايد وبيري (١٩٦٦)، لا تترك مجالًا للشك في أن الأنماط والتسلسلات التي يبدو أن العقل يختبر من خلالها تحولاته الدراماتيكية تتوافق تمامًا مع الأنماط الجنينية المجهرية الأولى. وتسلسلات التحول بالإضافة إلى تلك اللاحقة المرئية بالعين.

(١) قيل إن ولادة جلجامش كانت بسبب دخول رجل؛ والنسخة اليونانية أكثر غرابة وشاعرية («ابن داناي، الذي نقول إنه وُلد من ذهب يتدفق تلقائيًا» كما قال بيندار –الذهب هو زيوس، بالرغم من أن المنطقيِّين اللاحقين قللوه عادة إلى رشوة تُمنح لسجانيها). هناك تفصيلان غريبان آخران هما المنزل النحاسي تحت الأرض والانطلاق في البحر في صندوق، وكلاهما متوازيان في أساطير يونانية أخرى. يذكرنا المنزل بالجرة البرونزية وهي المكان الذي يلجأ إليه يوريستيوس أو السجن بالنسبة لآريس، بينما الصندوق طريقة تقليدية تقريبًا للتخلص من الأقارب أو الأطفال غير المرغوب فيهم (على سبيل المثال تينيس وأخته هيميثيا). من المغري، ولكن ليس معقولًا، التفكير في صوامع الحبوب تحت الأرض أو مقابر «خلايا النحل» الضخمة كأفكار سابقة لفكرة المنزل البرونزي. فكرة الصندوق الطافي أقل قابلية للتفسير السلس، وبما أنها متوازنة بشكل فضفاض في موسى والبردي، يبدو من الأفضل التفكير فيها على أنها فكرة خرافية منتشرة على نطاق واسع (بدلًا من، على سبيل المثال، ذاكرة فرويدية للجنين). (التأكيد لي، Kirk, 1974, p.148).

فيما يلي بعض التطابقات المجهرية الأسطورية:

صندوق في البحر	المنطقة الشفافة في قناة الرحم أو تجويفه
جلجامش، يوريستيوس، آريس وآخرون	بريو هيروس
المنزل النحاسي تحت الأرض ومخازن الحبوب تحت الأرض ومقابر خلية النحل	الحويصلة المشيمية قبل تدفق الدم

- ٤ -

١- إنه رجل عادي. يغلق عينيه. يستلقي على ظهره على الأرضية. يفقد إحساسه العادي بجسده. قد تبتلعه الأرض أو الأرضية. مذاقه حامض مبهم إلى حد ما.

طمأن نفسه بأن الأرضية مغطاة بالسجاد. لكن ذلك لم يعد مجديًا. إنه يغوص في الأرضية، حتى العمق تحتها. إنها تغطيه.

٢- إنها تطفو. إنها حرة وغير مرتبطة. بدون مرساة. تشعر أنها تخرج منها ولا تعرف كيف تدخل فيها. تود أن تقضمها، بطريقة أو بأخرى، لتحقق هدفها. وحتى قبل أن تبدأ القضمة، حين تجرؤ على وضع مجس لإجراء أقل اتصال، تُمتَص، وتُبتلَع، وتُغمَر، وتُدفَن، وتُخنَق.

٣- يتذكر أنه كان يرقد في السرير تحت البطانيات وهو طفل. كان يشعر أنه يزداد بدانة ووزنًا، ويتحول إلى أسمنت يُدفن تحته.

٤- يستلقي، يغلق عينيه، يتنفس بعمق، يسترخي، ويركز في وجهه ويشعر به مباشرة. جبهته مساحة فارغة. خداه تلان. فكاه صخرتان. وهو كرة خائفة ومرتجفة تحتها، تسحقها التلال والصخور فوقه، من خديه وفكيه. يكافح عبثًا ليصعد إلى قمة جبهته الفارغة.

٥- إنها، في الحلم، في مستنقع حيث توجد زواحف وتماسيح. مع رجل يفترض أن يحميها. يفترض أن يجد مخرجًا. لكنه لا يستطيع.

٦- تندمج أحيانًا الصور الذهنية البيولوجية والنفسية.

تحلم سيدة بأنها تخوض في حفرة في الأرض، تحيط بها خلايا حيوانية خلوية في العالم السفلي.

يوفر القضيب والمهبل تنوعات كثيرة حول تيمة الدخول والاستقبال.

مهبل يستقبل قضيبًا، قضيب يدخل مهبلًا، حدثان موضوعيان يمكن ممارستهما بطرق لا تحصى. لم يطرح بأي شكل موضوعي ما يدل عليه هذا الفعل، وما يعنيه، وما الهدف منه.

لا توجد دراما في الدخول إلى ما هو موجود بالفعل أو في الخروج حين يكون المرء في الخارج بالفعل. هناك فرق شاسع بين شخص تتمثل المسألة بالنسبة له فيما إن كان عليه أن يبقى في الداخل أو يخرج، وشخص تتمثل المسألة بالنسبة له فيما إن كان عليه أن يبقى في الخارج أو يدخل.

لا يبدو أن موضوع السقوط والغرق يحظى بأي اعتبار كغطاء لتيمة الخروج، من الرحم أو أي مكان آخر، وبغض النظر عن أن الخروج من الرحم يبدأ بالنزول والدخول إلى قاع الحوض. لكن الأمر لا يشبه الغرق في مستنقع أو حمام دم. ولا يمكن أن يتعلق الأمر كله بدخول القضيب في المهبل، أو الحلمات في الفم.

٧- إنه خارج كل شيء. لا يفكر تقريبًا، لا يشعر. تأتي الأحاسيس إليه ولا يحس بها. يعرف أن هذا الجسد يفترض أن يكون جسده، لكنه لا يتذكر كيف ولماذا.

إذا تاق فقط، يمكن أن يغرق في عقله، وعقله في مشاعره، ومشاعره في أحاسيسه، وأحاسيسه في جسده، ويغرق الحزمة كلها في قضيبه، وقضيبه في المهبل غارق بالفعل في كل ما هو خارجه. آه، فقط لو! لكان في كل ذلك مرة أخرى.

٨- في عام ١٩٧٤، أمضى ميك تشكي (١٩٧٩) ساعة في أحد خزانات جون ليلي[١] للحرمان الحسي، قطره ثمانية أقدام، على شكل طبق طائر. وطاف عاريًا على ظهره في ماء مملح جدًّا بدرجة حرارة الدم، وأخذ يدور ببطء في ظلام دامس وصمت تام. لُسِع فمه وأنفه بحدة، وكانت أصابعه تبحث عن الباب بيأس. لم يستطع تمييز الجدران من السقف أو الأرضية. فقد كل إحداثياته. انحل جسده وسقط.

سقط إلى الأرض في سحابة ممطرة. كان الأمر واضحًا وبسيطًا مثل رسم تخطيطي في كتاب مدرسي: تسحب الشمس المياه من البحر ثم تتساقط مرة أخرى مطرًا من السحب في البحر أو على اليابسة.

سقط بهدوء مثل سحابة، على صخرة في وادٍ مغطى بالغبار الأحمر، وشيئًا فشيئًا تسرب بين الشقوق. انزلق عبر الحفريات وطبقات من الأشكال البلّورية المتلألئة.

لم أشعر قَط بالانتقال من الصلب إلى اللين. في لحظة أناور بين ذرات الجرانيت، وفي اللحظة التالية أُحمَل على طول نهر جوفي، أتدحرج وأدور وألف. تباطأ النهر وأنا أندمج مع البحر. استلقيت ساكنًا وهادئًا ولم أفكر في شيء.

---

(١) جون ليلي John Lilly (١٩١٥-٢٠٠١): طبيب أمريكي وعالم أعصاب ومحلل نفسي وفيلسوف وكاتب. (المترجم).

انقضى الوقت. بدأ يشعر أنه ليس وحيدًا. صار كيانه كله مضغوطًا ومقيدًا. كان مع شخص آخر. كان كل منهما يقلب الآخر بالإيقاع الدوري البطيء نفسه.

باندفاع مذهل للتعرف، صرخْتُ «جون!» وأنا أعرف أنه توأمي جون. كنا نطفو معًا في الرحم. أثارني جدًّا التأثير العاطفي للقاء. استلقيت معلقًا مثل قناديل البحر، والدموع تنهمر بحرية (ص ١٩).

إنه توأم متطابق.

إذا تم إغراء المرء بالاعتراف بإمكانية أنه عاش في خزان جانبًا من جوانب حياته في الرحم مع توأمه، فإن بعض الخبرات التفصيلية داخل الرحم لحياة ما بعد الولادة قد لا تكون ذكريات تطورية، أو فانتازيا تقمص عاطفي، أو انحرافات لا يمكن تفسيرها. إذا كانت خبرة تشكي بتوأمه داخل الرحم يمكن أن تكون تكرارًا لخبرة، فلا يوجد أي سبب منطقي ثابت لحظر التكهنات بأن خبرته بأنه سحابة تسقط وتهبط وتستقر في الأرض إعادة عرض لكيفية الشعور بالسقوط والهبوط والاستقرار في بطانة الرحم.

إذا لم يكن الأمر بعيد المنال، فقد يميل المرء إلى الاستمتاع بفكرة أن مشاعر من قبيل السقوط مثل سحابة بلطف على الغبار الأحمر على الصخر، والغرق، يمكن أن تكون إعادة عرض حين هبط وهو كيسة أريمية على سطح بطانة الرحم وغرق خلال شقوق في صخور الخلايا الظهارية العمودية columnar epithelial cells.

نادرًا ما تكون مثل هذه الخبرة داخل الرحم لدى الراشدين في الذاكرة: لا تأتي عادةً في شكل ما يُطلق عليه عادةً فانتازيا أو تخيلًا. تعتبر عادة في حينها إحياء لخبرات فعلية في تلك المرحلة.

هناك تنوعات كثيرة في تيمة الدخول. وفيما يلي أشياء آمل أن تفيد في توضيح أوجه التشابه المحددة للغاية في النمط الديناميكي الذي تحمله أحيانًا مع الأحداث الجنينية للغرس: حتى إن المرء يدفع إلى التساؤل عما إن كان هذا الأخير قد لا يقدم (بطريقة لا يمكن تصورها) نموذجًا للأول، أو إن كان من الممكن أن يعمل القالب نفسه أو نموذج مشابه تمامًا من مصدر مشترك لكليهما.

* * *

الفصل الحادي عشر

البيضة والكرة والذات

- ١ -

البويضة في منطقتها الشفافة، الحيوانات المنوية، الزيجوت، الكيسة الأريمية، قبل فقدان المنطقة الشفافة وبعده في الطريق إلى قناتي فالوب، الغرس، وأولى الحالات الجنينية، لا ترى بالعين المجردة. إنها كلها خارج نطاق قدرة العين البشرية المجردة والخيال البشري المجرد.

باستخدام المجهر، نعرف الآن ما نود النظر إليه من البداية. وبرغم وجود تكهنات كثيرة في كل هذه السنوات قبل أن يحل المجهر اللغز، لم يخمن أحد تخمينًا صحيحًا، بقدر ما نعرف.

على ما يبدو، لم يكن لدى علم الأجنة الأسطوري وعلم الأساطير الجنينية ما يقدمه لعلم الأجنة العلمي (Needham, op. cit.).

كان لدى الغنوصيين رؤى عن البيضة البدائية للكون، أول حيوان كروي، لكن لا يبدو أنهم خمَّنوا أو حدسوا أو أدركوا أننا نبدأ، جسديًّا، في هذه الحياة، أشكالًا كروية في مناطق شفافة. عرفوا أن رأس أورفيوس الغنائي يطفو في النهر، لكن ليس مثلنا، كأشكال كروية، حين كنا نطفو ذات يوم في النهر إلى محيط الرحم، وربما نغني موسيقى إلهية، قد

تلتقطها آلاتنا فوق الصوتية في يوم من الأيام وتضخمها لنا، وبالتالي ما كان عليه صوتنا، كما نرى الآن ما نبدو عليه. قد لا يكتسب علم الأجنة العلمي شيئًا من التكهنات الأسطورية الغنوصية أو اللاهوتية، لكن الأشكال التي يكشف عنها علم الأجنة المجهري لا يمكن أن تساعد إلا في تعميق اللغز فيما يتعلق بمصدر بعض الرؤى الأسطورية الغنوصية.

كتب ميد[1] (١٩٦٥) عن البيضة الأورفيوسية Orphic للكون، أنه

> إلى جانب وجود تشابه في الخلية الجرثومية التي ينمو فيها الإنسان وكل أنواع الأجنة الأخرى، [لها أيضًا] تطابقها في «البيضة الذهبية» للإنسان، التي كُتب الكثير عنها ولم يُكشف عنها إلا القليل. لون هذه البيضة في أنقى صورها عقيقي. وبالتالي نجد الدمشقي يقتبس شعرًا لأورفيوس تسمى فيه البيضة «البيضاء الفضية»، أي بريق الفضة أو عرق اللؤلؤ؛ ويسميها أيضًا، مقتبسًا من أورفيوس، «الرداء اللامع» أو «السحابة» (ص ١٠٥).

إن الكيس الأمنيوسي ومياهه، والحبل السري والمشيمة، والرحم والمهبل، كلها أشياء مرئية نراها ونتعامل معها، وقد ولدت أفكارًا، وضُغِطتْ في الخدمة الأسطورية، مع بقية البريكولاج.

تغطى الأنماط الجنينية المرئية بأشياء ما بعد الولادة. لكن يبدو أن الأنماط **المجهرية** متشابكة في نسيج ما بعد الولادة، بشكل متساوٍ إن لم يكن أكثر من المرئي.

---

(١) ميد **Mead** (١٨٦٣–١٩٣٣): ج. ر. س. ميد، مؤرخ إنجليزي وكاتب ومترجم وكان عضوًا بارزًا في الجمعية الثيوصوفية. (المترجم).

النمط ليس كبيرًا أو صغيرًا. ليس بالحجم. إن تشابه الشكل بين الأساطير الكونية والتحولات التجريبية والجنينية أكثر وضوحًا حين تكون التطابقات بين اتساع الخيال الكوني ودقة بدايتنا البيولوجية الفردية.

لنفكر في بعض هذه التطابقات بمزيد من التفصيل.

يقارن عالم الأحياء الخلوية توماس لويس (١٩٧٥) الأساطير الهندية والنظريات العلمية حول أصل الحياة.

> تحتوي بعض أساطير الحيوانات على حلقة من النظرية البيولوجية المعاصرة، إذا سمحْتَ بالاختلافات في الرطانة. تفترض فكرة قديمة في الهند وجود كائن أولي، الشكل الأول للحياة على الأرض، يماثل نسختنا من أول نظام بدون نواة الغشاء -الحمض النووي المحدود، الخلية الأولية، يولد من البرق والميثان. الكائن الهندي، غير محدد ولا يمكن تحديده، وجد نفسه وحيدًا، خائفًا من الموت، تواقًا إلى شراكة، بدأ يتضخم، وأعاد ترتيب نفسه في الداخل، ثم انقسم إلى نصفين متطابقين. تحول أحدهما إلى بقرة، والآخر إلى ثور، وتزوجا، ثم تحولا مرة أخرى إلى فرس وحصان، إلخ، وصولًا إلى النمل ثم عمرت الأرض. هنا الكثير من التبسيط المفرط، والكثير من الاختزال للأغراض الحديثة، لكن يمكن التعرف على الأسطورة الأساسية (ص ١٤٤).

يُفترض أن «الأسطورة الأساسية» التي يتعرف عليها في الأساطير الهندية والعلمية هي النمط الرسمي المشترك بينها، الذي يظهر حين

يُجرَّد الشكل من المحتوى.

وقد وُجِد النمط الشكلي نفسه في نمط أصولنا الفردية.

الشكل الأول للحياة على الأرض	الشكل الأول لدورة حياتنا
الخلية الأولية	الزيجوت
ولد من البرق والميثان	يبدأ الحمل بالحيوان المنوي والبويضة
وحده يتضخم وينقسم إلى نصفين متطابقين	وحده، يتضخم الزيجوت، وينقسم إلى نصفين متطابقين
حتى عمار الأرض	حتى إنتاج مجموع خلايا أجسامنا

- ٢ -

وصف دولوز وجوتاري[1] (١٩٧٧) بوضوح ما يعتبرانه القالب الأساسي للعقل شبه الفصامي المعاصر. إنه بيضة كروية.

البيضة الفصامية مثل البيضة البيولوجية: لها تاريخ مشابه، وقد واجهت معرفتنا بها الصعوبات والأوهام نفسها (ص ٨١).

يسميانها الجسد بدون أعضاء -

بيضة، متقاطعة بمحاور، مربوطة بمناطق، محددة بمناطق ومجالات، مقاسة بالتدرج، تجتازها الإمكانات، تميزها العتبات (ص ٨٤).

سطحها مجال من الشدة الموزعة، ترتفع، تسقط، تهاجر، تتنقل. يقودهما التناظر الافتراضي الذي يريانه بين هذه البيضة الفصامية والبيضة البيولوجية إلى الاعتقاد بأن النظرية البيوكيميائية قد لا تقدم لنا فقط وسائل فيزيائية للتحكم في الخبرة الفصامية، لكنها قد توفر لنا أوجه تماثل أفضل لفهمها.

تبدو حالات الذهن التي يميزها دولوز وجوتاري مبهمة للبعض بقدر ما تبدو شفافة لآخرين. نود أن نبقي هذا الاختلاف في الاعتبار، إلى جانب النظر فيما قد يتنبأ به.

---

(١) دولوز Deleuze (١٩٢٥-١٩٩٥): فيلسوف فرنسي؛ وجوتاري Guattari (١٩٣٠-١٩٩٢) محلل نفسي فرنسي. (المترجم).

- ٣ -

مرة أخرى، أصوِّر بعض أنماط الخبرة المعنية، مع بعض التعليقات. والهدف الرئيسي تسليط الضوء عليها، وعيننا على المقارنة مع قصتنا البيولوجية في فترة قصيرة من بعد الحمل إلى الغرس.

١- لم يفعلها بعد، بالرغم من أنه كثيرًا ما بدأ بدايات جديدة. إنه في الخامسة والثلاثين. كلما بدأ بداية جديدة، دخل في دوامة شديدة. وحين يتخطاها، ويكون مستعدًّا للدخول فيها حقًّا، وتأتي الإشارة، مرة أخرى، كما هو الحال دائمًا، من شيء ما أو شخص ما يجعله يدرك حقيقة الأمر. هذه قصة حياته.

٢- إنها منحنية. يداها تغطيان فمها. يأتي الهمس من خلالهما. إنه واضح جدًّا. يوضح: «إنها، هنا، غير واضحة. وهناك، واضحة». يقول الهمس إنها تحاول وصف ما لا يوصف. تصم آذانها بصراخ صامت. يأتي من تجويف. إنها جوفاء. جسدها أجوف. إنها سطح، يمزقه تلويح حلقات الإحساس بالذعر. إنها لا تعرف معنى الشعور بالذعر، إذا لم توجد هذه الأحاسيس. تتحدث بهدوء شديد. داخل نفسها لا يوجد يسار أو يمين أو خلف أو أمام، أعلى أو أسفل، داخلي أو خارجي. جسدها ليس له أعضاء ولا أجزاء: مجرد سطح.

تستطيع أحيانًا الانتقال من «هنا» إلى «هناك» ومن «هناك» تقول: «لا أستطيع الحصول على ما أريد قوله. لم يتبقَّ سوى آثار جسدية. ربما تكون هذه الآثار الجسدية هي القدرة على عدم وصفها بالكلمات».

٣- إنه طالب في العشرين من عمره.

«أعيش داخل كرة. تشبه كرة بلورية، أو بالونًا، أو إصبعًا شفافًا منفوخًا لقفاز مطاطي، أو واقيًا ذكريًّا. صوري تغطي الجزء الداخلي من سطحها. إنها عالمي. أشعر وكأنني أحطم كل شيء لأشق طريقي عبر الكرة. لكن لا يوجد طريق فيها ولا يوجد مخرج».

٤- كان كابوسًا. بدأْتُ أفقد ذراعيَّ وساقيَّ وشكلي. أتحول إلى كرة. أطفو. استيقظت في هلع. قفزت من السرير. اضطررت إلى لمس ساقيَّ وذراعيَّ لأتأكد من وجودها. شعرت بارتياح شديد حين وجدت نفسي واقفًا.

٥- يشعر أنه بالون كروي بشكل ما. ينظر إلى يديه. لا يستطيع استيعابهما. لا يستوعب لماذا له ساقان. لماذا عليه أن يمشي؟ ما يمشي من أجله؟ يجب أن يكون قادرًا على ثني ساقيه في الهواء والطفو. لماذا لا؟ إنه أمر لا معنى له.

تربكه غرابة الأشياء.

٦- إنها في مطار ساو باولو. طائرتها متأخرة ساعات. شربت كمية كبيرة.

الوقت يتباطأ. ويتوقف. كل شيء، الجميع يتوقف. إنها دراسة خالدة وبلا حراك. كل شيء قوقعة. إنها في قوقعة. كانت في قوقعتها طول حياتها. لم تخرج من قوقعتها قَط. تتشقق القوقعة. بدأت الجدران تنهار. العالم كله ينهار. إنها خارج قوقعتها. إنها الآن كرة من نار في صالة المطار. ومع ذلك، لم يلاحظها أحد.

- ٧

أنا على المحيط في صندوق، مركب، مع ابنتي ماري، ننجرف	أنا في قناة الرحم في المنطقة الشفافة، مع الأرومة الغذائية. ننجرف
بعيدًا عن لوس أنجلوس وأنا أنام.	بعيدًا عن المبيض.
ثم نهبط. أنا على الشاطئ ومستيقظ. هناك امرأة.	ثم نصل إلى بطانة الرحم.

(حلم استشهد به روهيم، ١٩٧١).

٨- إنها سيدة في الستينيات من عمرها عاشت حياة زوجية هادئة لأكثر من ثلاثين عامًا.

مر الوقت بدون أن تلاحظ ذلك، أو تلاحظ زوجها. كان زوجها دائمًا هناك، لكن لم يكن لديها ما تسميه علاقة شخصية معه. كان دائمًا بجوارها.

حماها من الزمن والتغيير وكان العالم هناك بدون حتى أن تفكر فيه.

«ثم قال إنه ذاهب. وغادر».

كنت قليلة الخبرة. انكشفْتُ تمامًا. كان الذهاب وعرًا، مثل الصخور الخشنة على حافة البحر. لم أكن أعرف إلى أين أنا ذاهبة، وماذا أفعل، وما إن كنت ذاهبة إلى أي مكان، أو ما إن كان هناك أي مكان أذهب إليه. لم يكن لي ساقان أقف عليهما. لم أستطع السيطرة على أي شيء. لم أستطع السيطرة على نفسي. اقتُلعت من جذوري. لكنني أدركت أنه لم يكن لي أي جذور -كل هذه السنوات- طول حياتي.

حلمتْ:

«أنا في منزل. إنه يغرق في الرمل. الرمل يندفع من جميع الجهات».

٩- بنتْ نفسها، بتعبيرها، على مبدأ عدم وجود روابط. علاقات تؤدي إلى ارتباطات. وبمجرد أن ينشأ الارتباط يمكنها الانجذاب إليه وهذا يخنقها. والثمن الذي تدفعه عزلتها.

* * *

الفصل الثاني عشر

التراجع والنكوص

- ١ -

أتخيل أن الجميع يوافقون على حقيقة أننا ننظر إلى عالمنا بالمصطلحات التي نستخدمها لتفسيره ومن خلالها. البديهيات حقائق ميتة. نبعث الحياة فيها حين ندرك مدى صوابها. ويكون التعرف على هذا العالم العادي مستحيلًا من دون التمييز المعياري بين هنا وهناك، الآن وآنذاك، الداخلي والخارجي، أنا وما ليس أنا، إلخ. هنا وهناك وفي كل مكان، العالم ليس مقسمًا كما نقسمه.

تتنقل عقولنا بين التعقيد والبساطة والتعددية والوحدة. ونشعر غالبًا بهذه الحركة فيما يتعلق بالخروج والتقدم والدخول والرجوع. يمكن أن يسمى الرجوع والتقدم في الزمن نكوصًا وتقدمًا، وقد تسمى الحركات بين الواحد والكثرة تراجعًا وانطلاقًا.

في خبرات كثيرة، يحدث النكوص والتراجع معًا، كما يحدث التقدم والانطلاق معًا.

إنه مقيد في صَدَفة (النكوص داخل الرحم) وهو في فضاء لا نهائي (التراجع إلى فقد معظم الفروق).

والخبرات في مجال الانحدار والركود متجاوزة غالبًا، لأنه في حالة التراجع، يكون التمييز بين الإمكانية والاستحالة ضمن أولى الخبرات عادة.

قد يصبح الانطلاق المنظم من الواحد إلى الكثرة غير منظم وينتهي إلى فوضى.

ومحاولة الهروب من الفوضى بالتراجع أو العودة للوحدة أو الصفر قد تستلزم الدخول في فوضى أكبر.

- ٢ -

لا يمكن للكلمات أن تعبر تعبيرًا كافيًا عن أنماط الخبرة حيث لا توجد الفروق التي تكرسها اللغة. ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات لا يمكن قوله بالكلمات. يمكننا، إذا جاز التعبير، صب أنماط الخبرة في اللغة، لكنها بذلك تأخذ شكل اللغة. حقيقة نبيلة، حشو مبتذل.

الدخول إلى العالم الداخلي يستلزم التعديل والعودة والانغماس -التراجع. يجب تمييز التذبذب والتراجع والانطلاق للداخل والخارج بشكل واضح نظريًّا عن حركة النكوص والتقدم للخلف والأمام، برغم أن التراجع والانطلاق والنكوص والتقدم يحدث عمليًّا بشكل منفصل أو متزامن. النكوص بلا نهاية، نعود عبر زمن بلا نهاية وبلا بداية، ونعود إلى ما لا نهاية إلى حيث نحن، وسيكون حيث كنا.

يرتبط الدخول إلى العالم الداخلي والخروج منه بالدخول إلى نكوص ما قبل الولادة والخروج منه.

حين يشعر المرء أنه يرجع أكثر، يشعر أنه يدخل أعمق وأعمق ويرجع أكثر وأكثر إلى أن يخرج ويتجاوز الزمان والمكان اللذين يمكن التعرف عليهما.

الارتداد هو الطريق إلى أشكال أبسط: نكوص إلى أشكال سابقة. السابق ليس أبسط بالضرورة. نتطور غالبًا من خلال التعقيد والارتباك للوصول إلى البساطة.

صورنا بعض الخبرات الغريبة. لا يزال هناك الأكثر غرابة، التي تفوق قدرة الكلمات تمامًا على تصويرها أو وصفها.

يمكن أن يُغلَق علينا أو نُمنَع من الدخول أو نُدفَع للخلف أو للأمام أو نُعلَّق أو نبقى في الحضيض.

قد يستغرق الأمر سنوات (لراهب زن يحدق في الحائط لساعات يوميًّا، أو لأي شخص) للخروج من حالة ذهنية يكون المرء عالقًا فيها، أو للوصول إلى أي حالة يكون منعزلًا عنها.

يبدو أن الكثير من الناس معزولون عن حالة السكون، والبعض الآخر لا يعرفون أنهم معزولون عنها. يبدو أن العزلة نتيجة عدم **الوصول** إلى سكون التراجع تخل بالتوازن الفسيولوجي والنفسي لبعض الناس. إن التراجع لا يحل أو يبدد المشكلات أو الألغاز أو المفارقات أو المعضلات أو المآزق، بل يذيبها إلى الشيء نفسه.

الذات والمخاوف تحترق في النار التي يحدق فيها المرء. العقل، مستيقظ تمامًا، يستقر ويستريح.

يبدو النكوص أحيانًا في خدمة التراجع. إذا تعذر وصول التراجع للسلام والهدوء والراحة إلى الآن، فربما يمكن للمرء أن يصل إلى هناك بالعودة إلى مسار النوستالجيا. تكمن الصعوبة هنا في أنه بدلًا من التراجع عن التفكير إلى عدم التفكير، يمكن للمرء أن يعود بالنكوص إلى عدم القدرة على التفكير. لكن المرء لا يستطيع عدم التفكير (التراجع عنه) إذا كان غير قادر على التفكير.

عندئذ يمكن للمرء أن يكون في وضع، فيه وإليه (في التراجع والنكوص)، المضي فيه والتقدم بالغ الصعوبة.

بالعودة إلى الفروق السابقة وضياع الفروق اللاحقة، يلتف التراجع والنكوص ويتشابكان.

إذا كان للمرء أن يتحرك لأعلى ولأسفل، إذا جاز التعبير، على طول المحور الرأسي للتراجع والانطلاق، فقد لا تكون هناك دعوة للنكوص، والعودة، على طول المحور الأفقي للنكوص والتقدم. إذا استطاع المرء العودة مباشرة إلى مركز موجود في كل مكان وليس في أي مكان، فلا داعي للنكوص إلى حالة سلس مزدوج.

قد يستلزم النكوص الشديد الاعتماد الشديد على نظام دعم الحياة الذي يقدمه الآخرون. ومع ذلك، قد يُساء تفسير النكوص، إذا اعتُبر دائمًا محاولة لتحقيق حالة تعايش ما قبل الولادة مرة أخرى.

إذا تراجع المرء إلى حالة لا يستطيع فيها التفكير، ونكص إلى حالة لا يستطيع تحملها، يكون بمصطلحات الطب النفسي متخشبًا.

تواجه حياة بعض الناس الفكرية والعاطفية مأزقًا تامًّا. يبدو أن نوعًا من الاسترخاء يحدث، نسيان ما تعلمناه وتجاهل ما اعتدنا عليه والعودة إلى أنواع فكرية وعاطفية للشكل والوظيفة قبل تعلم الكلام. نصبح أطفالًا صغارًا، وحتى أصغر.

عمومًا، هناك درجة معينة من النكوص المؤقت الجزئي في العلاج حين يتتبع المريض خطواته إلى حيث سارت الأمور خطأ وقبل ذلك، على أمل الخضوع لنوع من التحول والحمل والولادة

من جديد. ينعكس هذا النمط في الموتيفات في أساطير الانسحاب والعودة والموت والبعث. ويَصُفُّ كيستلر[1] (١٩٧٨) هذا النكوص الأسطوري والنفسي مع النظرية **البيولوجية** للنكوص، أي أن

> ... في مراحل حرجة معينة التطور يمكن أن **يتعقب خطواته**، إذا جاز التعبير، على طول الطريق الذي أدى إلى طريق مسدود والبدء من جديد في اتجاه جديد أكثر أملًا (ص ٢١٦).

التراجع من أجل قفزة أفضل[2].

إن الحركة إلى الوراء، بجانب معظم الحركات الوجودية الأخرى التي نقوم بها، لأعلى أو لأسفل أو الدوران، بجانب المرء أو فوقه، لف، سباحة، طفو أو طيران، ينظر إليها كلها بشك هائل.

للعودة إلى الوراء لا يلزم وجود علاقات نفسية مرضية مرتبطة الآن بمصطلح النكوص. قد نعود، أو نرجع، إلى الوقت الضائع، أو إلى عالم ضائع، أو عوالم ضائعة. حين نخرج من عالم الطفولة، تظهر أنماط وأشكال ومحتويات ووظائف جديدة للخبرة والتعبير، وقد ننسى، ليس فقط هذا العنصر أو ذاك من خبرة طفولتنا، ولكن طبيعته ذاتها. قد يكون النكوص عودة إلى أنماط كياننا وأشكاله ومحتوياته التي انعزلنا عنها. ويفسر النكوص عادة بأنه آلية دفاعية؛ ضد إحباطات الواقع الخارجي، وضد التناقض، وضد الكراهية العارمة، كما اقترح بأشكال مختلفة.

---

(١) آرثر كيستلر **Koestler** (١٩٠٥-١٩٨٣): كاتب وصحفي إنجليزي من مواليد المجر. (المترجم).

(٢) بالفرنسية في الأصل. (المترجم).

يقال غالبًا إنه يحدث خصوصًا عند من يعانون من ضعف حدود الأنا، ومن يعانون من إعاقة نفسية مرضية في منح الحب واستقباله.

وقد تكررت هذه النقاط إلى **حد الغثيان** في «الأدبيات» المصممة ذاتيًّا حول هذا الموضوع. ومع ذلك، فإن العودة إلى الوراء قد تفيد في إلغاء ما فعله المرء بنفسه. وقد تكون مفيدة في مشروع التفكيك وإعادة البناء. وقد تكون العودة وسيلة للعثور على الذات. وقد يكون النكوص مفيدًا في إلغاء القمع، وليس دائمًا وسيلة للحفاظ عليه. قد يكون المكان الذي يقودنا إليه أقرب إلى الأرضية الأصلية لخبرتنا من المكان الذي كنا نتجول فيه.

قد يكون التراجع والنكوص محاولتين للهروب من الارتباك والألم الحاليين. قد لا يكون الهروب غير معقول أو جبانًا. ما الطريق المفتوح حين يسود العذاب والألم كل الحالات النفسية التي يمكن الوصول إليها، حين يتعذر الوصول إلى السلام، ويشعر المرء بالألم كلما اتجه، أو حاول النسيان والنوم والاستيقاظ، إنه كابوس مستمر؟

يمكن لبعض الناس العودة إلى حالة السكون، إلى الحاضر الأبدي الذي لا ينشأ فيه عذاب. وليس عليهم العودة بالزمن للخلف، أو مسايرة إيقاع الزمن، أو تضييع الوقت للعثور على الخلود. إذا انعزل المرء عن تذبذبات العقل العادي والمتوازن للخلف والأمام، للداخل والخارج، فقد يتراجع وينكص وينغمس في حالة لا يستطيع التراجع عنها أو الخروج منها.

قد يتعذر الوصول إلى هذا الجانب من الانعزال على ذلك الجانب من الانعزال حيث يوجد ذلك الجانب من الانعزال على هذا الجانب.

النور والظلام منفصلان ولكنهما غير منفصلين. الاستيقاظ والنوم، ما نسميه الوعي واللا وعي، حالات وتغييرات مختلفة، لا يجب أن ينفصل أحدها عن الآخر.

في وعينا اليومي المعتاد، لا ندرك العمليات التي تنتج الأشكال والتحولات والاختلافات التي ندركها ونفكر فيها ونشعر بها، لكننا لا نحتاج، بمعنى إضافي، إلى الانعزال عنها.

- ٣ -

قد يؤدي الانقطاع في التقدم الذاتي إلى الارتباك والحيرة. لا يمكن بناء منزل على كومة أوراق مهتزة. كل هذا ينهار ويتحول إلى انقطاع. في بعض الحالات، يستمر الصدام المشوش بين التجريدات المشوشة والفئات ومستويات الأنواع والطبقات، في تشويش التعقيد وتحويله إلى ارتباك. قد يسقط المرء في فوضى تامة من الارتباك، بدون أن يجد الراحة والسلام والسكون في الصفر.

يسعدنا أن نكون قادرين على التمييز، حين نكون مستيقظين، بين الحلم والنشوة، والإدراك المباشر من الهلوسة، والواقع العادي من التجلي البصري.

لا يمكن العثور على بؤرة الفروق في كل تحويل وتعديل. في الحلم، الغيبوبة، ما يسمى بالنمط الخارق أو ما العابر للشخصية، قد يتحلل تمامًا، لكنه شرط سابق للوعي الغربي اليقظ العادي.

الخلط بين الصيغ يعادل الذهان. يبدو أن مثل هؤلاء الناس ينزلقون عبر الصيغ بسهولة أكبر من غيرهم. يفشل البعض في تمييزها كما يفترض أن يفشل المرء. يجدها آخرون منصهرة ومندمجة في خبرتهم الخاصة لدرجة أنهم لا يستطيعون فهم الفروق المعتادة، حيث نحاول فصل الواقع عن نفسه وفصلنا «عنه». يأتي إحساس المرء بالتواصل معه ليكون إحساسًا إضافيًّا يبدو أن واقعنا يعتمد عليه. قد يتبخر هذا الإحساس تمامًا إذا تراجعنا بما يكفي: العودة إلى حيث تتولد الأوامر

التي تولد عالمنا غير الممكن. ما لا يمكن حله لا يحل لكنه يذاب. تستمر التبرئة فقط ما دام المرء بعيدًا عن الحالة الذهنية التي يجب أن ينشأ فيها ما لا يمكن حله.

- ٤ -

فرضياتنا الأكثر صلاحية ذاتيًّا هي الأكثر ترسخًا. أصعب برامجنا هي الأكثر صلاحية ذاتيًّا. لا تتزعزع **طريقتنا** في النظر بسهولة بما تراه، ناهيك عما لا تستطيع أن تراه.

ملاحظة الواضح صعبة. وحدها تلك الفروق التي نحددها ولا يمكن ألا نحددها، تُكتشَف وهي تُحدَّد، بحقيقة أن بعض الناس لا يحددونها، لأنهم غير قادرين على تحديدها أو لأنهم قادرون على عدم تحديدها. هناك فروق كثيرة يحددها البعض ولا يحددها كثيرون (سواء استطعنا ذلك أم لا)، وأخرى لا يمكننا عدم تحديدها، إذا حددنا أي فروق على الإطلاق.

إننا نعيد ابتكار الفروق التي نعيش بها كل لحظة. يمكن أن تأتي كل لحظة من لحظات تشكيلها في أوامر قد لا تكون متسقة مع نفسها. وقد لا تكون الفروق التي نحددها متوافقة، وقد تتناثر العناصر المتوفرة كلها.

تقدم باربرا أوبراين O'Brien وصفًا في كتابها، **الدجالون والأشياء** Operators and Things، عن فترة ستة أشهر يُوجِّه البطلة خلالها دجالون تسمعهم وتراهم. سيطروا عليها. قالوا لها إنها «شيء» بالنسبة لهم. وجهوها للقيام برحلات طويلة في حافلات جريهوند، حيث تجلس لساعات وهي تنظر من النافذة. كانوا يقدمون لها لمحة من حين لآخر عن الوضع وراءهم. أحاط الدجالون الأرض بحقل من الأشعة الفولاذية قوية جدًّا حتى إن الرب لا يمكن أن يعبر. الدجالون منعزلون عن الرب، ونحن أشياء منعزلة عن دجالينا. لا ندرك أننا أشياء.

الجنس البشري معزول عن التسلسل الهرمي الكامل للدجالين. أخبرها الدجالون، الذين ظهروا في شكل بشري، أنها بدأت في المستوى الأول من هذه العمليات التي انعزلت هي ونحن عنها، كتجربة خالصة، لمعرفة ما يحدث لإنسان لمجرد أن يُسمَح له بالدخول أكثر بقليل من المعتاد.

«زخرفوا شرائط شبكية» في دماغها. بدون شرائط شبكية، كانت «دمية». لم تستطع تمييز هويتها، لكن الدجالين شغلوها على أنها دمية في أثناء عمل الشرائط الشبكية الجديدة. بعد أن اكتملت، عادت إلى وضعها الطبيعي، ولكن الآن على أنها «برونق باكنج»[1]، على عكس «الحصان سهل الانقياد» المروض الذي كانت عليه.

لا يُمنح الجميع لمحة عن الدجالين وعملياتهم: لم يتعرض الجميع لزخرفة شريط شبكي صلب مبرمج، ولم يُكرَّم الجميع أو يُلعَنوا بقبولهم بعد قطع أو اثنين. لا يمكن لأي شخص أن يتذكر قبل أن تكون الوردة وردة.

هل القطع يُفعَل لنا، أم نفعله بأنفسنا؟ هل الأمر إما/ أو، أم الاثنان/ و؟

إنه يحتقر ويكره ما يعتبره زيفًا ولا يستطيع الخروج منه أو الابتعاد عنه. إنه يريد تدمير الواقع الذي يشعر أنه لعنته. إنه ناجح إلى حد ما في إلغاء نفسه، لكنه يظل منعزلًا كما كان دائمًا.

يصادف المرء أشخاصًا يحاولون أن يكونوا مجانين وأحيانًا ينجحون ويحاولون تمزيق نسيج خبرتهم. يبدو الأمر وكأن المرء يأمل في إعادة توصيل تليفون مفصول بتحطيم بدَّالة التليفون.

---

(١) برونق باكنج **bucking bronco**: حصان بري أو جامح يصعب ركوبه. (المترجم).

– ٥ –

في رؤى الخلود، بسبب
المدارك الضيقة،
أصبحت رؤى الزمان والمكان ضعيفة،
مثبتة في أخاديد الموت،
حتى يصبح الإخفاء العميق الدفاع الوحيد
المتبقي لرجل نزيه

وليم بليك

رُسِم خط بين الذات والذات، وبين الذات والآخرين. ويُنكَر رسم الخط. لا يوجد خط، لكن لا تحاول عبوره.

لا قطع، لا خط: لا ننسى أبدًا: لا نتذكر النسيان: لا ننسى أبدًا لنتذكر النسيان: لا تأمر أبدًا بعدم تذكر الأمر: لا تأمر أبدًا أمرًا بعدم تذكر الأمر، بنسيان تذكر ما نسيه المرء. إنهم يتظاهرون بأنهم لا يتظاهرون. للانضمام إليهم، عليك أيضًا أن تتظاهر بأنك لا تتظاهر. احذرْ إذا كنت تتذكر. انسَ أنك تتظاهر بأنك لا تتظاهر. انسَ أنك تعلمت أن تنسى. القطع المثالي، مثل القتل المثالي، لا يحدث أبدًا.

تظاهر، وتظاهر بأنك لا تتظاهر. إنك لا تتظاهر بأنك لا تتظاهر. من الخطير ألا تتظاهر حين يجب أن تتظاهر بأنك تتظاهر. قد يكون الأكثر أمانًا أن تتظاهر بأنك تتظاهر. لكن لا تبالغ في السخرية وإلا انتهى بك الأمر كما انتهى بنيتشه.

يحدث القطع. ولا تعرف أنك فعلته بعد أن تفعله، لأن القطع يستلزم عدم رؤية نفسك وأنت تقطعه.

تتمثل الخطوة في عدم معرفة أن المرء قد اتخذ خطوة نحو الجهل. لا يمكن للعقل القاطع أن يرى القطع.

بعد هذا النوع من القطع، لا يعرف الشخص أنه مقطوع. يعتبرها إهانة، إن لم تكن سخرية، إذا أشار أحد إلى أنه مقطوع. ومع ذلك، قد يُهاجِم ويُدمِّر أي شخص ليس مقطوعًا مثله، أو يتذكر أنه نسي، أو يتكهن فقط أنه قد يكون مقطوعًا أو يجب أن يكون مقطوعًا.

إننا نعترف هنا بإنجاز النوع المعتاد من حدود الأنا الطبيعية.

* * *

الخاتمة

نوعية اهتمامنا بحكمنا النقدي، ومدى قدرتنا على الحفاظ عليه، ونوعية تحملنا في وسط إغراءاته، وقدرتنا على تحمل اضطراباته، وثباتنا وتحملنا، والاحتفاظ بنفحة من روح الدعابة حين لا يوجد شيء مضحك في الأفق، قد يُحدِث فرقًا كبيرًا.

يمكننا تنمية المواهب ولكن يمكننا تنمية المواهب التي توهب لنا فقط، والقدرة الحقيقية على تنمية ما يوهب لنا هبة بحد ذاتها.

كما أنه من المفيد للغاية أن نعيش في فضاء تتمتع فيه خبرتنا، مهما تكن تحولاتها، بمساحة للتنفس. كان الغرض الرئيسي من هذا الكتاب المساهمة في مثل هذه الأجواء الأكثر حرية.

المحادثة الجارية في هذا الكتاب مفتوحة. لا توجد طرق حصرية أو قاطعة للنظر إلى الأشياء الواردة هنا. لذلك لن أحاول أن أختتم الأمر في خلاصة.

بدلًا من ذلك، كخاتمة، إليك بعض الملاحظات الموجزة وخبرتين أخريين.

لا وجود للمحنة والمعاناة والبهجة بالنسبة لنا خارج خبرتنا بها. ومن المحزن أن يكون علينا أن نؤمن بأن البهجة نادرة، لكن المعاناة

والضيق شائعان لدرجة أنهما يعتبران طبيعيين. لا يمكن أن نملي على معاناتنا ومحنتنا الأشكال التي تتخذها، وهي تتخذ أحيانًا أشكالًا غريبة جدًّا بالفعل.

إن النظر إلى الوظائف، الإيجابية أو السلبية، التي قد تكون لبعض هذه التحولات والتعديلات الغريبة تيمة تتطلب دراسة منفصلة. تلخص الحكايتان المعروضتان هنا الطبيعة الكاملة للإشكاليات التجريبية التي يدور حولها هذا الكتاب.

قد تكونان وسيلة لتوضيح الارتباك أو تعميقه.

إنهما مثالان على الحالة التجريبية للأمور في بداية العمل الشاق الطويل ونهايته. للتعلم من الخبرة، علينا أن نتذكر موسيقاها ونستمع إلى صوتها.

إنه جنتلمان إنجليزي في الخامسة والثلاثين. وسيم وذكي وساحر وجذاب ومثقف ولائق بدنيًّا، تخرج في مدرسة عامة، لاعب كرة رجبي سابق من الدرجة الأولى، ضابط سابق في الحرس. حارب وقتل. أعزب مرغوب جدًّا.

النساء يرعبنه. يخاف بشدة من الاقتراب بما يكفي من إحداهن، ليبدأ في معرفة إن كان سيحدث له انتصاب.

لم يفكر قَط في مشاعره، مشاعره الجنسية أو أي نوع آخر من المشاعر. لكن المشاعر الفظيعة، المشاعر الفارغة، تغلبت عليه الآن. ماذا يحدث له؟

يشعر بوضوح أنه خارج نفسه.

إنه منفصل تمامًا، لكنه لم يفقد روح الدعابة. إنه يستمد عزاء طفيفًا من التسلية التي يستمدها من تأمل نفسه. ومع ذلك، قد يكون ميتًا أيضًا. لا أحد يهتم به ولا يهتم بأحد.

جاء يطلب مني أن أساعده على الانخراط في نفسه، وإيجاد طريقة للبدء في عيش حياة عادية وطبيعية، بدلًا من حياته الملعونة، كما بدت له، منعزلًا عن نفسه، وعن النساء، وعن الأصدقاء، وعن العمل والحياة والواقع.

بدأت قصته مع جدة جدته. دخلها بتأثر، لكنه بدأ يدخل إلى نفسه فقط حين أدرك أن القصة التي كان فيها كانت بداخله.

تقول القصة إن جدة أم أمه أنجبت ابنًا واحدًا. اختفى زوجها. وكانت شغوفة بابنها، وحين أعلن ذات يوم، بعد سنوات، أنه سيغادر للزواج من امرأة لم تسمع بها من قبل ويعيش بعيدًا، لم تصدق بداية، ثم، بكل قلبها وروحها، لعنته هو وزوجة المستقبل وزواجهما وأبناءهما وأبناء أبنائهما حتى الجيل السابع.

ترك أمه وتزوج وابتعد عنها تمامًا. أنجبت زوجته أربعة أطفال، ولدين وبنتين، وتوفيت بعد أن أنجبت طفلًا خامسًا توفي بعد فترة قصيرة.

حينها سلم أطفاله الأربعة الباقين الملعونين لأمه واختفى ولم يسمع عنه مرة أخرى. ربتهم أمه بنفسها. صار الصبيان عاجزين، مخمورين، متشردين ومثليين جنسيًّا، ولم يتركا ذرية.

عاشت فتاة حتى الشيخوخة، عذراء عانسًا. ودُعيت الحفيدة المتبقية موبز.

تزوجت موبز، وأنجبت طفلة، وتركت زوجها الذي اختفى ولم يسمع عنه مرة أخرى، وعادت لتعيش مع جدتها. ربتا الطفلة معًا، وكبرت وتزوجت من ضابط في الجيش الإنجليزي تبين أنه مثليٌّ آخر ومدمن كحول.

وقعت في حب كونت مجري مفلس، وحملت منه، وتظاهرت لزوجها أن الطفل طفله، وتركت الكونت، وتركت زوجها الذي حصل، بعد بضع سنوات، على جائزة وظيفية لشجاعته في العمل. في منطقة نائية من حدود الإمبراطورية البريطانية، عادت إلى أمها، وربتا جورج.

هذه هي القصة التي نشأ عليها جورج إلا أنه لم يعلم بخبر الكونت المجري وأن والده لم يكن والده حتى أخبرته أمه، في أحد الأيام وهو في الثلاثين، من خلال تشوشها المعتاد بتأثير الجن والمخدرات، في لحظة اعتبرها لحظة صدق، بأنه ابن زنا حقًّا.

كان يعيش مع أمه، وكثيرًا ما يضعها في الفراش، وأنقذ حياتها عدة مرات بنقلها سريعًا إلى المستشفى، حيث كانت تنقذ بالكاد من الموت. هذه المرة، بعد أن وضعها في الفراش، وقف وشاهدها وهي تموت.

شعر أنه مجموعة من الصناديق الصينية داخل الصناديق، أو الدمى الروسية داخل الدمى. كل واحد كان جيلًا، الأبعد في الوجود هو الأبعد.

كان، هو نفسه، في الخارج. في داخله كانت أمه. في أمه كانت أمها، موبز. في موبز كانت أمها الملعونة التي ماتت عند ولادتها، وفي

الأعمق كانت أم والد موبز. السيدة التي لعنت كل الذرية، التي ربت حفيدتها، جدته، التي ربته مع ابنتها، أمه.

كان يسمع لعنة جدة موبز يتردد صداها عبر الزمن. وكان في أعماق حفرة أمعائه جرذ يقضم جذور قضيبه. يمكن أن يشعر بها. وكان يسمع صوته أحيانًا.

كانت في منتصف الخمسينيات.

كانت امرأة جميلة. وكان زوجها مفتونًا بجمالها، لكنها اكتشفت حقيقته، للأسف، شيئًا فشيئًا. كان يمارس الحب معها نادرًا. صار أكثر بعدًا، وكآبة وصمتًا، واكتشفت أنه مثلي في الحقيقة. اتفقا على أن يسير كل منهما منفصلًا في طريقه الجنسي، ولكنهما لا يزالان يعيشان معًا وأنجبا طفلًا معًا. لكن مرت سنوات قبل أن تحمل. صار مهووسًا برغبته في أن يصبح أبًا. في النهاية حملت من رجل آخر، وتظاهرت بأن الحمل منه. لم يشك في شيء. تبين أن الطفل أبله. تحطم. فات أوان إخباره.

لجأت كثيرًا إلى علاقات الحب الرومانسية المكثفة، وفي أوائل الأربعينيات من عمرها، اصطدمت بانقطاع الدورة. في غضون أشهر، تبخر جمالها وتحولت إلى امرأة عجوز عادية. انتهت الرومانسية. كانت يائسة، ليس لديها ما تعيش من أجله. شعرت أن حياتها بلا معنى، وفارغة إلا من الأسف والندم. شعرت بالمرارة.

وفجأة امتلأت بالحب. تدفق إليها على وجه التحديد من نقطة في منتصف ظهرها. كانت متألقة ومبتهجة. كانت تشع. لم تستطع التحدث عن أي شيء آخر وكانت تفعل ذلك، طوال الوقت، مع كل شخص

على مرمى السمع، بصوت عالٍ، بحماس، باستمرار، وبلا انقطاع. كانت مهمتها جعل العالم كله يدرك أن الحب هو الإجابة الواحدة والوحيدة والكاملة للبؤس. بعد بضعة أيام، نقلت إلى المستشفى حيث تم تهدئتها وخضعت للعلاج بالصدمات الكهربية بسبب نوبة الهوس. تلاشى إحساسها بالحب. سلبها العلاج طاقتها، وقضى على تألقها، وقلل من بهجتها. فقدت شغفها ومهمتها. شفيت. كانت في حالة من اليأس. شعرت بالموت. لكنها استمرت بشكل طبيعي، كزومبي مثالي. لم تستطع التفكير في خيار أفضل، من قتل نفسها في كل مرة، لكن ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟ كانت ميتة بالفعل.

أدركت أنها متهورة. كانت ما يسمونه مهووسة. ومع ذلك، لم تشعر قَط بأنها حية بهذا الشكل. لا تشعر الآن بأي شيء لكنها لم تتراجع. كان الحب هو القوة العظمى والطريق الوحيد. لكن الحياة والحب والقوة تركوها. كانت تأمل أن يعودوا، حتى لو كان ذلك يعني أن تكون ذهانية. ولكن إذا عزلت وتعرضت للاعتداء كما كان بالمخدرات والصعق بالكهرباء، لا تشعر بأنها تستطيع أن تستوعبها.

قد تكون هناك طريقة؟

جاءت لرؤيتي لمدة ساعة مرة كل أسبوعين وتحدثت عن حياتها، وكنت أستمع إليها وأتحدث قليلًا جدًّا. عادت إلى الحياة في أحلامها، حتى إنها كانت تشعر بهزات الجماع، لأول مرة منذ صعقها بالكهرباء. ولكن ظلت ميتة وهي مستيقظة.

كان يوم الجمعة العظيمة. وكانت تعيش في منزل ريفي بعيد كبير. كان فارغًا حتى يوم الاثنين. ولم تكن تتوقع قدوم أحد.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، كانت تتجول بلا هدف عبر المنزل حين بدأت حرارة بيضاء شديدة تخترق منتصف ظهرها خلف الضفيرة الشمسية، لتحترق وتتحرك فيها بطريقة حلزونية، لتنتشر من خلالها وتبدأ السيطرة عليها. كانت روح الحياة والحب. كان المسيح. كانت كما كانت بالضبط قبل عشر سنوات. وكان أمامها بضع ثوانٍ لتقرر إن كانت ستقاوم (شعرت بأنها ستموت لو قاومت)، أو تتماشى معها (إذا تماشت معها فقد تصاب بالجنون).

قررت أن تتماشى معها. بمجرد أن اتخذت هذا القرار، أصبحت هادئة وصافية الذهن. لاحظت أنها لم تكن تتحرك بنفسها، لكنها كانت تتحرك من ضفيرتها الشمسية. نظرت بهدوء وهي تتحرك إلى غرفة نوم وتحضر بطانية، لتصنع مخبأ مثل مخبأ كلب تحت طاولة المطبخ. لماذا تحركت لتفعل ذلك، لم يكن لديها أي فكرة في ذلك الوقت.

حين أعدت المخبأ وجدت نفسها تخلع ملابسها. نظرتْ وهي تتحول إلى كلب صيد، على اليدين والركبتين، أو بالأحرى المخلبين. لم تستطع الكلام أو المشي. كانت تنبح وتتجول في أرجاء المنزل حتى حل الظلام، ودخلت إلى قبو لم تدخله منذ سنوات. بصعوبة، فتحت الباب بخطمها، وتكومت في زاوية مظلمة للغاية، عارية، باردة، في ظلام دامس، تشعر بالفئران، في النهاية، تركض عليها. فقدت كل فكرة عن الوقت.

بعد ذلك، لم تعرف كم مضى من الوقت، ولكن وهي لا تزال على هذا الوضع، فكرت لاحقًا، في الليلة نفسها، وجدت نفسها تتجول من الزاوية البعيدة من القبو، حتى العلية. سطع قمر من النافذة المفتوحة. بعد أن غرقت في ضوء القمر، وضعت مخلبيها الأماميين على حافة النافذة وعوت في وجه القمر. ثم اضطرت إلى العودة إلى مكانها في القبو مرة أخرى، والبقاء متكومة كما كانت من قبل في الظلام الذي تنتشر فيه الفئران.

كان عليها أن تكرر هذا الإجراء برمته مرتين أخريين، ثلاث مرات في المجموع. بعد المرة الثالثة التي تكومت فيها في القبو، سيطر عليها نعاس دافئ، ونامت. حين استيقظت كانت لا تزال كلب صيد. خرجت من القبو. كان الوقت لا يزال ليلًا، لكن لم يكن لديها أي فكرة عن أي ليلة. زحفت إلى المخبأ أسفل طاولة المطبخ، وقرفصت فيه، وسرعان ما تغلب عليها مرة أخرى نعاس دافئ لطيف، ونامت مرة أخرى.

استيقظت في الفجر. كانت سيدة عارية ملتفة في بطانية تحت طاولة المطبخ. نهضت. أخذت حمامًا. ارتدت ملابسها. كان الاثنين يوم عيد الفصح. شعرت أنها بخير. لم تشعر قَط بالموت مرة أخرى. لم تتهور مرة أخرى. تؤمن بالبعث. تعيش حياة عملية نشطة.

هناك طريقة في هذا الجنون. جاء توقيت النوبة كلها مع الوقت الأسطوري (عيد الفصح، الجمعة العظيمة إلى اثنين عيد الفصح، الموت والبعث) ومتطلبات حياتها العادية. بالتحولات والتعديلات في هذه الدراما التحولية التي استمرت ثلاثة أيام، لم يكن لديها أي فكرة

عما في المخزن. ومع ذلك، خضع كل شيء لتخطيط سابق، وصولًا إلى أدق التفاصيل.

كل تلك الأشياء التي فعلتها دون أن تعرف سبب (خلع ملابسها، ووضع بطانية تحت طاولة المطبخ)، وحقيقة أن باب القبو كان مفتوحًا تمامًا، ونافذة العلية المفتوحة، وما إلى ذلك، مرتبة وفقًا لسيناريو نجاح في الأداء يقابله إنتاج أكثر براعة وخفة وراء الكواليس.

بعد ذلك، شعرت بأنها امرأة عادية (لأنها فقدت الأمل تقريبًا مرة أخرى).

* * *

أدرجت في الببليوجرافيا عددًا من الكتب والمقالات التي لم أُشِر إليها مباشرة في النص. في عدة حالات، لم أذكر المؤلفين الذين أشعر بأنهم الأقرب لي عمومًا. إنهم يقفون، كما هو الحال، وراء ما هو مكتوب، أو قريبون جدًّا ومساهماتهم الأساسية لا يمكن دمجها في هذا العمل بدون تغيير طبيعته لتوليد محادثة أخرى، كتاب آخر.

أغتنم المناسبة هنا لمجرد ذكر بعضهم. أفلاطون، بروكلوس، أوجستين، مونتين، توماس تايلور، جوته، كوليريدج، كيركجارد، نيتشه، ديلثي، هوسرل، هايدجر، شولتز، ميرلو بونتي، سبنسر براون، فوكو، ليفيناس.

البيليوجرافيا

ABRAHAM, K. (1966), ‹Umbilical Cord Symbolism of the Spider›s Dropline›, *Psychoanalytic Quarterly*, 35:589.

(1066), 'Oral Aggression in Spider Legends', *American Imago*, 23:1. (1967), 'Spider Phobias', *Psychoanalytic Quarterly*, 36:52.

ADRIAN, E.D. (1949), *The Basis of Sensation*, London: Christophers.

ALLEN, G.E. (1978), *lift Science in the Twtnt1tth Century*, Cambridge: Cambridge University Press.

ANDERSON, J.M., and B[NIRSCHKE, K. (1964) 'Maternal Tolerance of Foetal Tissue', British Medical Journal, I:1534- 5.

BACHOFEN, J.J. (1967), Myth, Religion, and Mother Right, London: Routledge & Kegan Paul.

BACON, F. (196o), The New Organon, New York: Bobbs-Merrill.

BERGER, P., and LUCKMANN, T. (1966), The Social Construction of Reality, Garden City, N.Y.: Doubleday.

BERGSON, HENRI LOUIS (1965), Le Rire: essai sur la signification du comiqut, Paris: Presses Universitaires de France. In Wylie Sypher (trans. and ed.), Comedy (1965), Garden City, N.Y.: Doubleday.

BINSWANGER, L., (1958), 'The Case of Ellen West', in Rollo May, Ernest Angel, Henry Ellenberger (eds.), Existence, New York: Basic Books.

BION, W.R. (1925), Collected Papers, Vol. IV, London. (Quoted by Melanie Klein (1955).)

BLAKE, R.M., DUCASSE, C.J., and MADDEN, E.H. (1960), Theories of Scientific Method, London: University of Washington Press.

BLEULER, M. (1955), 'Research and Changes in Concepts in the Study of Schizophrenia, 1941- 50', Bulletin of the Isaac Ray Medical library, Vol.3, Nos. 1 and 2, Butler Hospital, Rhode Island.

(1978), The Schizophrenic Disorders, London: Yale University Press.

BRAITHWAITE, R.B. (1953), Scientific Explanation, Cambridge, Mass.: Harvard.

BROOKS, c. (October 1965), 'Metaphor, Paradox and S1ereotypc', British Journal of Aesthetics, 5, 4, 315-18.

BROWN, R.H. (1978), A Poetic for Sociology, Cambridge: University Press.

CANGUILHEM, G. (Autumn 1980), 'What is Psychology?', I (SC No.7, Technologies of the Human Sciences, 37.

CAPRA, F. (1975), The Tao of Physics, London: Wildwood House. (1946), language and Myth, New York: Harper & Row. (1955), The Philosophy of Symbolic Forms, New Haven: Yale.

CLARE, A. (1976), Psychiatry in Dissent, London: Tavistock.

COOLEY, C.H. (July 1926), 'The Roots of Social Knowledge', American Journal of Sociology, 12, 59-79.

COOPER, D. (1971), The Death of the Family, New York: Pantheon.

CROOKALL, R. (1977), Out-of-the-Body-Experiences, New Jersey: Citadel Press.

CSAKY, M. (ed.) (1979), How Does it Feel?, London: Thames & Hudson.

DAVIS, E. Ouly 1960), 'Uncertainty in Medical Prognosis, Clinical and Functional', American Journal of Sociology, 66, 41- 7.

DAWKINS, R. (1979), The Selfish Gene, St Albans, Herts: Paladin Books.

DELEUZE, G., and GUATTARI, E. (1977), Anti-Oedipus: Capitalism and Schizophrenia, New York: Viking Press.

deMAUSE, L. (ed.) (1975), The New Psychohistory, New York: Psychohistory Press.

(1981), The Fetal Origins of History, in press.

DIELS, H. (1906), Fragmente der Vorsokrativer, Berlin.

DINNERSTEIN, D. (1945), The Mermaid and the Minotaur, New York: Harper & Row.

DRAKE, s. (1957), Discoveries and Opinions of Galileo, New York: Doubleday Anchor.

EDDINGTON, A. (1939), Philosophy of Physical Science, New York: Macmillan.

EHRENWALD, J. (1978), The ESP Experience: A Psychiatric Validation, New Yor k: Basic Books.

ELIADE, M. (1938), Notes on Demonology.

(1958), Birth and Rebirth, London: Harvill Press.

(1959), Struaure et fonction du mythe cosmogonique, La Naissance du Monde: Paris, pp.471-95.

(1965), The Two and the One, London: Harvill Press.

ELLENBERGER, H.F. (1970), The Discowry of the Unconscious, New York: Basic Books. (Quoted by Kearney (1980).)

EVANS-WENTZ, W. Y. (1960), The Tibetan Book of the Dead, London: Oxford University Press.

FEIGL, HERBERT, SCRIVEN, MICHAEL, and MAXWELL, GROVER (eds.) (1967),

Conetpts, Theories and the Mind-Body Problem, Minneapolis: University of Minnesota Press.

FELDMAR, A. (1978), 'The Embryology of Consciousness: What is a Normal Pregnancy?', Paper presented at the Symposium on the Psychological Aspects of Abortion, Chicago, Illinois, 1 November.

FERREIRA, A.J. (1969), Prenatal Environmenl, Illinois: Charles C. Thomas.

FEYERABEND, P.K. (1962), 'Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of Knowledge', in Michael Radner and Stephen Winokur (eds.), Minnesota Studies in the Philosophy of Science, Vol.4, Minneapolis: University of Minnesota Press.

FLAUBERT, G. (1948), Madame Bovary (trans. Eleanor Marx Aveling), New York and Toronto: Rinehart. (Quoted by Nabokov (1980.)

FODOR, N. (1949), The Search for the Beloved, New York: University Books.

FOLCALLT, M. (Autumn 1980), 'Georges Canquilhem Philosopher of Error', ICSC No. 7, Technologies of the Human Sciences, 51

FRALLR, J. G. (1971), The Golden Bough, London: Macmillan.

FRFEMAN, K. (1956), AnCilla to the Pre-Socratic Philosophers, A Complete Translation of the Fragments in Diels, Oxford: Basil Blackwell.

Freeman, L., and STR LA's, H., Freud and Women: New York: Frederick Ungar, in press.

FREUID, S. (1958), The Interpretation of Dreams, Vol. V, Standard Edn, London: Hogarth Press.

(1958), The Complete Psychological Works of Sigmund Freud, Vol. XII, Standard Edn, London: Hogarth Press.

(1959), The Complete Psychological Works of Sigmund Freud, Vol. XX, Standard Edn, London: Hogarth Press.

(1961), The Complete Psychological Works of Sigmund Freud, Vol. XXI, Standard Edn, London: Hogarth Press.

(1963), Introductory Lectures on Psycho-Analysis, Parts I and II, Vol. XV, Standard Edn, London: Hogarth Press.

(1966), Introductory Lectures on Psycho-Analysis, Part III, Vol. XVI, Standard Edn, London: Hogarth Press.

FRIEDMAN, N., and ROSENMAN, R.H. (1974), Type A Behavior and Your Heart, New York: Knopf.

FRIES, M.E. (1977), 'Longitudinal Study: Prenatal Period to Parenthood', Journal of the American Psycho-analytic Association, Vol. 25.

GALILEO, G. (1957), Discoveries and Opinions of Galileo (ed. and trans. S. Drake), New York: Doubleday.

GERARD, R. W. (September 1953), 'What is Memory?' Psychobiology readings from Scientific American, 126- 31, San Francisco: W.H. Freeman.

GILCHRIST, A. (1945), The Life of William Blake, London: Temple Press.

GLASER, B., and STRAUSS, A. (October 1964), 'Awareness Contexts and Social Interact ion', American Sociological Review, 29, 5, 669- 78.

GOFFMAN, E. (1952), 'On Cooling the Mark Out: Some Aspects of Adaptation to Failure', Psychiatry, 15, 4 (No\"ember), 451- 63.

GOLDSTIEN, K. (1939), The Organism: A Holistic Approach to Biology, New York: American Book Co.

GRE's E, \1. (1968), Approaches to a Philosophical Biology, London: Basic Books.

(1974), The Understanding of Nature, Boston: D. Reidel.

GROF, S. (1975), Realms of the Human Unconscious, New York: Viking Press.

GROF, s. and c. (1980), Beyond Death, New York: Thames & Hudson.

HAMILTON, W. J., and MOSSMAN, H. W. (1972), Human Embryology: Prenatal Development of Form and Function, Cambridge: W. Heffer.

HILLIMAN, J. (1975), Loose Ends, Zurich: Spring Public at ions.

HOPKINS, G.M. (1952), Poems, Oxford: Oxford University Press.

HULL., C.I. (1 952), Behavior System: An Introduction to Behavior Theory Concerning the Individual Organism, New Haven, Yale.

HUXLEY, F. (1979), The Dragon, London: Thames & Hudson.

INGLEBY, D. (ed.) (1980), Critical Psychiatry: The Politics of Mental Health,

New York: Pantheon.

JANTSCH, E., and WADDINGTON, C.H. (1976), Evolution and Consciousness, Massachusetts: Addison-Wesley.

JASPERS, K. (1963), General Psychopathology, Manchester: Manchester University Press.

JAYNES, J. (1976), The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind, Boston: Houghton Mifflin.

JONES, A. (1974), The Jerusalem Bible, London: Darton, Longman & Todd.

JONES, E. (1957), The Life and Work of Sigmund Freud, New York: Basic Books.

JUNG, C.G. (1912), Wandlungen und Symbole der Libido, Part II, Jahrbuch, IV. (1956), Symbols of Transformation, Vol. V of Collected Works, Bollingen Series XX (trans. R.F.C. Hull), New York: Pantheon

KEARNEY, P.A. (April 1980), Hypnosis as a Relational Phenomenon, Thesis presented to the Faculty of the Graduate School, Hahncmann Medical College.

KEYS, J. (1972), Only Two Can Play This Game, New York: Julian Press.

KIRK, G.S. (1974), The Nature of Greek Myths, Harmondsworth: Penguin.

KIRSNER, D. (1977), Psychoanalysis and the Birth Experience, Paper presented at Deakin Freud Conference, Erskine House, Lorne, May. (Quoting Winnicott (1949).)

KITZINGER, s. (1978), Women as Mothers, Glasgow: Fontana.

KLEIN, M., HEIMANN, P., MONEY-KYRLE, R.E. (1955), New Directions in PsychoAnalysis, London: Tavistock.

KOESTLER, A. (1978), Janus, a Summing Up, London: Hutchinson.

KUMAR, s. (ed.) (1980), The Schumacher Lectures, London: Blond & Briggs. (Laing: What's the Matter with Mind?)

LAING, R. D. (1961), Self and Others, Harmondsworth: Penguin. (1978), Levels of Reality, International Symposium, Florence.

(July 1978), 'Existential Topology', Birth and Rebirth, Vol. VI, No.7, 221-3.

LAKE, F. (1978), 'Birth Trauma, Claustrophobia, and LSD Therapy', The Undivided Self(article), London: Churchill Centre.

(July 1978), 'The Significance of Perinatal Experience', Birth and Rebirth, Vol. VI, No.7, 224-32.

LEBOYER, F. (1977), Birth Without Violence, Glasgow: Fontana.

LEWIN, B.D. (1950), The Psychoanalysis of Elation (quoted by Roheim (1973)), pp.109, I IO.

LEWIS, C. S. (1978), The Abolition of Man, Glasgow: Fount.

LEWIS, T. (1975), The Lives of a Cell: Notes of a Biology Watcher, New York: Bantam.

LILEY, A.M. (June 1977), 'The Foetus as a Personality', Self and Society, Vol. V, No.6.

LILLY, J. C. (1972, rev. edn), Programming and Metaprogramming in the Human Biocomputer, New York: Julian Press.

LITTLE, K. (1965), 'The Political Function of the Poro', Africa, 25, 4.

LORBER, J. (1980), 'Is Your Brain Really Necessary?', World Medicine, 3 May, 21.

(1981), 'The Disposable Cortex' Psychology Today, April, p.11.6. LORENZ, K. (1977), Behind the Mirror: A Search for a Natural History of Human Knowledge, London: Methuen.

LURIA, S.E. (1976), Life - The Unfinished Experiment, London: Souvenir Press.

LYMAN, S.M. (1961), The Structure of Chinese Society in Nineteenth Century America, Ph.D. dissertation, Universi1y of California at Berkeley.

LYMAN, S.M., and SCOTT, 1.B. (1970), A Sociology of the Absurd, New York: Appleton-Century-Crofts.

MACALPINE, 1., and HUNTER, R.A. (1955), Memoirs of My Nervous Illness, London: William Dawson & Sons.

(1956) Schizophrenia 1677, London: William Dawson & Sons.

McGUIRE, W. (1974), The Freud /Jung Letters (trans. Ralph Manheim and R.F.C. Hull), London: Hogarth Press and Routledge & Kegan Paul.

McHUGH, P. (1970), 'On the Failure of Positivism', in Jack D. Douglas (ed.), Understanding Everyday Life, Chicago: Aldine.

MAY, R., ANGEL, E., ELLENBERGER, H.F. (eds.) (1958), Existence: A New Dimension in Psychiatry and Psychology, New York: Basic Books. (Quoting Binswanger 'The Case of Ellen West'.)

MEAD, G.R.S. (1965), Orpheus, London: John M. Watkins.

MERLEAU-PONTY, M. (1949), La Structure du comportment, Paris: Presses Universities de France.

MILLER, R. (Autumn 1980), 'The Territory of the Psychiatrist: Review of Robert Castel's L'Ordre psychiatrique', I & C No.7, Technologies of the Human Sciences, 63.

MONOD, J. (1974), Chance and Necessity, Glasgow: Collins Fontana.

MOTT, F., (1948), The Universal Design of Birth, Philadelphia: David McKay. (1950) The Universal Design of the Oedipus Complex, Philadelphia: David McKay.

(1953), The Myth of the Chosen People, London: Integration Publishing.

(1959), The Nature of the Self, London: Allen Wingate.

(1960), Mythology of the Prenatal Life, London: Integration Publishing.

(1964), The Universal Design of Creation, Edenbridge, Mark Beech.

MUSIL, R. (1979), The Man Without Qualities, Vol. I of 4, London: Picador.

NABOKOV, v. (1980), Lectures on Literature, London: Weidenfeld & Nicolson.

NARANJO, C. (1973), The Healing Journey - New Approaches to Consciousness, New York: Pantheon.

NEEDHAM, J. (1975), A History of Embryology, New York: Arno Press.

NEUMANN, E. (1955), The Great Mother, New York: Pantheon.

ONIANS, R.B. (1973), The Origins of European Thought, New York: Arno Press.

PEERBOLTE,:1-1.1. (1975), 'Some Problems Connected with Fodor's Birth Trauma Therapy', Psychiatric Quarterly, 269L952, 294-306.

(1975), Psychic Energy, Wassenaar: Servire.

PELLETIER, K.R. (1977), Mind as Healer, Mind as Slayer, New York: Dell.

PERRY, J.W. (1966), Lord of the Four Quarters: Myths of the Royal Father, New York: Braziller.

PIETSCH, P. (1972), 'Shuffle Brain', Harper's Magazine, May.

POLANYI, M. (1958), Personal Knowledge, London: Routledge & Kegan Paul. (1958). The Study of Man, The Lindsay Memorial Lectures, London:

Routledge & Kegan Paul.

POPPER, K. R. (1977), The Self and Its Brain, New York: Springer International.

PRAZ, M. (1970), The Romantic Agony, London: Oxford University Press.

PRIBRAM, K. H. (1971), Languages of the Brain, New Jersey: Prentice-Hall.

PRIGOGINE, 1., 'Order Through Fluctuation: Self-Organisation and Social System', paper quoted by Jantsch and Waddington (1976).

RANK, O. (1952), The Trauma of Birth, New York: Robert Brunner.

RASCOVSKY, A. (et al.) (1971), Niveles Profundos del Psiquismo, Buenos Aires: Editorial Sudamericana.

ROHElM, G. (1973), The Gates of the Dream, New York: International Universities Press.

(1971), The Eternal Ones of the Dream, New York: International Universities Press.

ROUSSEAU, G.S. (ed.) (1972), Organic Form: The Life of an Idea, London: Routledge & Kegan Paul.

ROWAN, J. (ed.) (1978), The Undivided Self: An Introduction to Primal Integration, London: Centre for the Whole Person.

RUGH, R., and SHETTLES, L.B. (1971), From Conception to Birth: The Drama of Life's Beginnings, New York: Harper & Row.

RUNDLE CLARK, R. T. (1959), Myth and Symbol in Ancient Egypt, London: Thames and Hudson.

SCHELER, M. (1954), The Nature of Sympathy (trans. Peter Heath), London: Routledge & Kegan Paul.

SCHNEIDER (1956), Image of the Heart and the Principle of Synergy in the Human Mind, New York: International Universities Press.

SCHRODINGER, E. (1967), What is Life? The Physical Aspect of the Living Cell and Mind and Matter, Cambridge: Cambridge University Press.

SCHUTZ, A. (May 1944), 'The Stranger', American Journal of Sociology, 49, 6, 499-507, in Arvid Brodersen (ed.), Collected Papers II: Studies in Social Theory, The Hague: Nijhoff, 1964.

SCHUTZ, A. June 1954), 'On Multiple Realities', Philosophy and Phenomenological Research, 5, 4, 533- 76.

(1971), Collected Papers, Maurice Natanson (ed.), The Hague: Nijhoff.

SEJOURNE, L. (1978), Burning Water: Thought and Religion in Ancient Mexico, London: Thames & Hudson.

SEWELL, E. (1960), The Orphic l ‘o1cr, London: Routledge & Kegan Paul.

SPENCER-BROWN, G. (1971), laws of Form, London: George Allen & Unwin.

SPOTNITZ, H. (1909), Modern Psychoanalysis of the Schizophrenic Patient, New York Grune & Stratton.

STAUDE, J.R., and Glass, J.E. (eds.) (1972), ‘The Theoretical Foundations of Humanistic Sociology’, in Humanistic Society: Today’s Challenge to Sociology, Pacific Palisades, Calif.: Goodyear.

STIERLIN, H. (1974), ‘Karl Jaspers’ Psychiatry in the Light of His Basic Philosophic Position’, Journal of the History of 1he Behavioral Sciences, Vol. X, No. 2, 213-26, April.

STOTT, D.H. (1973), ‘Follow-up Study from Birth of the Effects of Prenatal Stress’, Developmental Medicine and Child Neurology, 15: 770- 87.

STRANISSKY, I. (1956), Poetics of Music in the Form of Six lessons, New York: Vintage.

SUMMERS, REV. M. (1948), Malleus Maleficarum (trans. and ed.), London: Pushkin Press.

SWARTLEY, W. (1978), Major Categories of Early Traumas’ (article in The Undivided Self), London: Churchill Centre.

(1978), ‘The.\ lost Common Types of Primal Experiences’ (article in The Undivided Self), London: Churchill Centre.

SWARTLEY, W., and MAURICE, J. (July 1978), ‘The Birth of Birth Primals in Wartime Britain’, Birth and Rebirth (ed. Alix Pirani), Vol. 6, No. 7, 253- 44

THOM, R. (1972), S1abil1te structurelle et morphogenese, Massachusetts: W.A. Benjamin Inc.

THURNWALD, R. (1940), ‘Primitive Initiations and Wiedergeburtsriten’, Eranos-Jarbuch VII, p.393. (Quoted by Eliade (1958).)

TOLMAN, E.C. (January 1938), 'The Determinants of Behavior at a Choice Point', Psychological Review, 45, 1, 1- 41.

(1932), Purposive Behavior in Animals and Men, New York: Appleton Century-Crofts.

VERNEY, T.R. (1981), The Psychic Life of the Unborn, Paper given at the Fifth World Congress of Psycho-Somatic Obstetrics and Gynecology, Rome.

VICO, G. (1948), The New Science of Giambattista Vico (trans. Thomas G. Bergin and Max H. Fisch), Ithaca: Cornell.

WADDISGT0'-1, C.H. (1977), Tools for Thought, England: Paladin.

WALEY, A. (1965), The Way and Its Power, London: George Allen & Unwin.

WEIL, P. (1976), A Consciencia Cosmica, Vozes: Brazil.

(1977), As Fronleiras du Regressao, Vozes: Brazil.

WHITEHEAD, A.N. (1967), Science and the Modern World, New York: Macmillan.

(1978), Process and Reality (eds D.R. Griffin and D.W. Sherburne), New York: The Free Press.

WILSOS, E.O. (1980), Sociobiology: The Abridged Edition. Massachusetts: Belknap Press of Harvard University Press.

WING, J.K. (1978), Reasoning About Madness, Oxford: Oxford University Press.

WINNICOTT, D.W. (1958), Collected Papers: Through Paediatrics to PsychoAnalysis, New York: Basic Books.

(1972), The Maturational Processes and the Facilitating Environment, London: Hogarth Press.

ZOLLA, E. (1981), Archetypes, London: George Allen & Unwin.